موسى محمد علي

التوحيد

مفتاح دعوة الرسل

الناشر
محمد نجيب الصابوني



التوحيد

مفتاح دعوة الرسل

بقلم

موسى محمد علي

الناشر

محمد نجيب الصابوني



بسم الله الرحمٰن الرحيم

« شهد الله أنه لا إلٰهَ إلّا هو والملائكةُ وأولوا العِلم قائماً بالقِسْط لا إلٰهَ إلّا هو العزيزَ الحكيم » .

« صدق الله العظيم »



تقـديم

بقــلم

محمَّد على الصَّابونى

الأستاذ بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد :

فإن من خصائص هذا الدين العظيم ـــ دين الإسلام ـــ ومن مزاياه الحميدة الجليلة ، أنه دين الفطرة ، ودين الحجَّة والبرهان ، ورسالته الوَضَّاءَة المشرقة هى رسالة التوحيد ... وقد خصَّ الله الإسلام ، من بين سائر الأديان بأنه دين الإنسانية الخالد الباقى بقاء الدهر ، الذى لا يقبل الله تعالى ديناً سواه ، كما قال جلَّت أسماؤه :

« وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

فقد جمع الله تبارك وتعالى فى الإسلام فضائل جميع الأديان ، وخَصَّه بالظهور والعلوّ على سائر الأديان ، لأنه دين التوحيد ، ودين الفطرة ، ودين الحق والعدل :

« هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى ودِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَو كَرِهَ المُشْرِكُونَ » .

وهذا الكتاب القيِّم النَّفيس « التوحيد مفتاح دعوة الرسل » لمؤلفه فضيلة الأخ الشيخ « موسى محمد على » يوضِّح معالم الطريق لدعوة الحق ، ورسالة التوحيد ، الصَّافية النَّقية ، من خلال آيات القرآن الكريم ، وهدى سيد المرسلين ، بأسلوب شائق جذاب ، بعيد عن الغموض والمصطلحات العلمية التى جنح أربابها إلى الفلسفة الغربية ، البعيدة عن طريقة القرآن ، فى حججه وبراهينه الساطعة .

والله أسأل أن ينفع به ، ويجزى مؤلفه فضيلة « الشيخ موسى محمد على » خير الجزاء ، على تنويره العقول والأذهان ، بعقيدة التوحيد الصافية ، إنه سميع مجيب الدعاء ، وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله ، سيدنا محمد وآله وأصحابه أجمعين .

كتبه

خادم الكتاب والسنَّة

محمد على الصَّابونىَ

تقـــديم

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وإمام المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .. وبعد :

فقد اختص الله سبحانه وتعالى نوع الإنسان من بين خلقه ، بأن كرَّمه وفضَّله وشرَّفه وخلقه لنفسه ، وخلق كل شيء له ، وخصَّه من معرفته ومحبَّته ، وقرَّبه وأكرمه بما لم يعطه لغيره ممن خلق ، وسخَّر له ما فى سماواته وأرضه وما بينهما ، حتى الملائكة الذين هم أهل قربته وطاعته ، استخدمهم له ، وجعلهم حفظة له فى منامه ويقظته ، وظعْنه وإقامته ، وأنزل إليه وعليه كتبه ، وأرسل إليه رسله ، وخاطبه وكلَّمه منه وإليه ، واتَّخذ منهم الخليل والكليم ، والأولياء والخواصّ والأحباب ، وجعلهم معدن أسراره سبحانه ، ومحلّ حكمته تعالى ، وموضع حبِّه جلَّ جلاله ، وخلق لهم الجنة والنار ، وجعل لهم الثَّواب والعقاب .

فالخلق والأمر مداره على النوع الإنسانى ، فإنه خلاصة الخلق ، وهو المقصود بالأمر والنهى ، وعليه الجزاء بالثواب أو العقاب .

« ليجزِىَ الذين أساءُوا بما عمِلُوا ، ويَجْزِىَ الذينَ أحسَنُوا بالحُسْنَى »(١) .

فللإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات ، وقد خلق أباه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وعلَّمه أسماء كل شيء ، وأظهر فضله على الملائكة ، فمن دونهم من جميع المخلوقات ، وطرد إبليس عن قربه ، وأبعده عن بابه ، إذ لم يسجد له سبحانه مع الساجدين ، فاتَّخَذَه عدوًّا له إلى يوم الدين .

فالمؤمن من نوع الإنسان : خير البرية على الإطلاق ، وخيرة الله من سائر العالَمين ، فإنه خلَقَه ليتمَّ نعمته عليه ، وليتواتَر إحسانه إليه ، وليخصَّه من

---

(١) النجم : ٣١

كرامته وفضله بما لم تنله أمنيته ، ولم يخطر على باله ولم يشعر به ، ومنحه من المواهب والعطايا الباطنة والظاهرة ، العاجلة والآجلة ، التى لا تُنال إلّا بمحبَّته ، ولا تُنال محبته إلا بطاعته ، وإيثاره على من سواه .

فالله سبحانه وتعالى اتخذ الإنسان محبوبا له ، وأعد له أفضل ما يُعدُّه محب غنىّ قادر جواد لمحبوبه ، إذا قدم عليه ، وعهد إليه عهداً تقدم إليه فيه بأوامره ونواهيه ، وأعلمه فى عهده ما يقرب إليه ، ويزيده محبة له وكرامة عليه ، وما يبعده منه ويسخطه عليه ، ويسقطه من عينيه .

وللمحبوب عدوّ ، هو أبغض خلقه إليه ، قد جاهره بالعداوة ، وأمر عباده أن يكون دينهم وطاعتهم وعبادتهم له ، دون وليّهم ومعبودهم الحق سبحانه ، واستقطع عباده ، واتخذ منهم حزبا ظاهروه ووالوه على ربهم ، وكانوا أعداء له مع هذا العدو ، يدعون إلى سخطه ، ويطعنون فى ربوبيته وإلهيته ووحدانيته ، ويسبونه ويكذبونه ويفتنون أولياءه ، ويؤذونهم بأنواع الأذى ، ويجهدون على أعدائهم من الوجود وإقامة الدولة لهم ، ومحو كل من يحبه الله تعالى ويرضاه ، وتبديله بكل ما يسخطه ويكرهه ، فعرَّفه بهذا العدو ، وطرائقهم وأعمالهم ومالهم ، وحذَّره موالاتهم ، والدخول فى زمرتهم والسكون معهم .

وأخبره فى عهده : أنه أجود الأجودين ، وأكرم الأكرمين ، وأرحم الراحمين ، وأنه سبقت رحمته غضبه ، وأفاض على خلقه نعمه ، وكتب على نفسه الرحمة ، وأنه يحب الإحسان والعطاء والبر ، وأن الفضلَ كله بيده ، والخير كله منه ، والجود كله له ، وأحب ما إليه : أن يجود على عباده ويوسعهم فضلًا ، ويغمرهم إحسانا ، ويتم عليهم نعمته ، ويضاعف لديهم منَّته ، ويتعرف إليهم بأوصافه وأسمائه ، ويتحبَّب إليهم بنعمه وآلائه .

فهو الجواد لذاته ، وجود كل جواد : أقل من ذرة بالقياس إلى جوده ، فليس الجواد على الإطلاق إلا هو ، وجود كل جواد فمن جوده ، ومحبته للجود والإعطاء والإحسان ، والبر والإنعام والإفضال: فوق مايخطر ببال الخلق، أو يدور فى

أوهامهم ، وفرحه بعطائه وجوده وأفضاله ، أشد من فرح الآخذ بما يعطاه ويأخذه .

فإذا اجتمع شدة الحاجة وعظم قدر العطية والنفع بها ، فما الظن بفرح المعطِى ؟

ففرح المعطِى سبحانه بعطائه أشد وأعظم من فرح هذا بما يأخذه ، ولله المثل الأعلى ، إذ هذا شأن الجواد من الخلق ، فإنه يحصل له من الفرح والسرور ، والابتهاج واللذة بعطائه وجوده ، فوق ما يحصل لمن يعطيه ، ولكن الآخذ غائب بلذة أخذه ، عن لذة المعطى وابتهاجه وسروره ، هذا مع كمال حاجته إلى ما يعطيه وفقره إليه ، وعدم وثوقه باستخلاف مثله ، وخوف الحاجة إليه عند ذهابه ، والتعرض لذل الاستعانة بنظيره ومن هو دونه ، ونفسه قد طبعت على الحرص والشح .

فما الظن بمن تقدس وتنزه عن ذلك كله ؟ ولو أن أهل سماواته وأرضه ، وأول خلقه وآخرهم وإنسهم وجنّهم ، قاموا فى صعيد واحد فسألوه ، فأعطى كل واحد ما سأله : ما نقص ذلك مما عنده مثقال ذرة .

عن أبى إدريس الخولانى ، عن أبى ذر جندب بن جنادة رضى الله عنهما ، عن النبى ﷺ فيما يروى عن الله تبارك وتعالى أنه قال :

« يا عبادى : إنى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا .

يا عبادى : كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم .

يا عبادى : كلكم جائع إلا من أطعمتُه فاستطعمونى أطعمكم .

يا عبادى : كلكم عارٍ إلا من كسوتُه فاستكسونى أكسكم .

يا عبادى : إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم .

يا عبادى : إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى .

يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل

واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا .

يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا .

يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى ، فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر .

يا عبادى : إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه »[1] .

وهذا الحديث القدسى الرائع يوضح بلا شك أن الله تبارك وتعالى هو الجواد لذاته ، كما أنه سبحانه هو الحى لذاته ، العليم لذاته ، فجوده العالى من لوازم ذاته ، والعفو أحب إليه من الانتقام ، والرحمة أحب إليه من العقوبة ، والفضل أحب إليه من العدل ، والعطاء أحب إليه من المنع .

فإذا تعرض عبده ومحبوبه الذى خلقه لنفسه ، وأعد له أنواع كرامته ، وفضَّله على غيره ، وجعله محل معرفته ، وأنزل إليه كتابه ، وأرسل إليه رسوله ، واعتنى بأمره ولم يهمله ، ولم يتركه سدى ، فتعرض لغضبه ، وارتكب مساخطه وما يكرهه ، ووالَى عدوه وظَاهَره عليه وتحيز إليه ، وقطع طريق نغمته وإحسانه إليه ، وفتح طريق العقوبة والغضب والانتقام : فقد استدعى من الجواد الكريم خلاف ما هو موصوف به من الجود والإحسان والبر ، وتعرض لإغضابه وإسخاطه وانتقامه ، فيصير غضبه وسخطه فى موضع رضاه ، وانتقامه وعقوبته فى موضع كرمه وبره وعطائه ، فاستدعى بمعصيته من أفعاله ما سواه أحب إليه منه ، وخلاف ما هو من لوازم ذاته من الجود والإحسان .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه ، وقال سعيد : كان أبو إدريس إذا حدَّث بهذا الحديث جثا على ركبتيه .

فبينما هو حبيبه المقرَّب المخصوص بالكرامة ، إذ انقلب آبقاً شارداً ، رادًّا لكرامته ، مائلا عنه إلى عدوه ، مع شدة حاجته إليه ، وعدم استغنائه عنه بطرفة عين .

فبينما ذلك الحبيب مع العدو فى طاعته ناسيا لسيده ، منهمكا فى موافقة عدوه قد استدعى من سيده خلاف ما هو أهله : إذ عرضت له فكرة فتذكر برّ سيده ، وعطفه وجوده وكرمه ، وعلم أنه لا بد له منه ، وأن مصيره إليه ، وعرضه عليه ، وأنه إن لم يقدر عليه بنفسه قدم به عليه على أسوأ الأحوال ، ففر راجعا إلى سيده ، من بلد عدوه ، حتى وصل إلى بابه ، فوضع خدَّه على عتبة بابه ، وتوسد ثرى أعتابه ، متذلّلا متضرعاً ، خاشعاً باكياً آسفا ، يرجو سيده ويعتذر إليه ، واستسلم له وأعطاه قياده ، وألقى إليه زمامه ، فعلم سيده ما فى قلبه ، فعاد مكان الغضب عليه رضا عنه ، ومكان الشدة عليه رحمة به ، وأبدله بالعقوبة عفوا ، وبالمنع عطاء ، فاستدعى بالتوبة والرجوع من سيده ما هو أهله . وما هو موجب أسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، فكيف يكون فرح سيده به ؟ وقد عاد إليه حبيبه ووليه طوعا واختيارا ، وراجع ما يحبه سيده منه برضاه ، وفتح طريق البر والإحسان والجود ، التى هى أحب إليه من طريق الغضب والانتقام والعقوبة .

هذه نبذة يسيرة تطلعك على سر فرح الله سبحانه بتوبة عبده وأنه أعظم من فرح هذا الواجد لراحلته فى الأرض المهلكة ، بعد اليأس منها .

أخرج البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أنس بن مالك الأنصارى خادم رسول الله ﷺ ، رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط بعيره وقد أضله فى أرض فلاة » .

والمراد : أن التوبة تقع من الله فى القبول والرضى ، موقعا يقع فى مثله ما يوجب فرط الفرح ممن يتصور فى حقه ذلك ، فعبر بالرضى عن الفرح تأكيداً للمعنى فى ذهن السامع ، ومبالغة فى تقديره .

وحقيقة الفرح لغةً : انشراح الصدر بلذة عاجلة ، وهو محال فى حقه المقدس سبحانه ، ذلك أنه لما حُجب العالم بالأكوان ، واشتغلوا بغير الله تعالى عن الله سبحانه ، صاروا بهذا الفعل فى حال غيبة عنه جل جلاله ، فلما وردوا عليه بنوع من أنواع الحضور ، أرسل إليهم فى قلوبهم من لذة نعيم محاضرته ومناجاته ومشاهدته ما تتحبب بها قلوبهم . فكنى بالفرح عن إظهار هذا الفعل ؛ لأنه إظهار سرور بقدومه عليه .

فهو سبحانه يحب من عباده أن يطيعوه ، ويكره منهم أن يعصوه ، ويفرح بتوبة عبده مع غناه المطلق عن طاعته ، وأن نفعها إنما يعود إليه ، لكن هذا من كمال رأفته بهم ، وحبه لنفعهم ، فهو يبسط رحمته على عباده ، ويكرمهم بالإقبال عليهم ويكره ذهابهم عنه ، وإعراضهم مع غناه .

يقول الحكيم الترمذى رحمه الله تعالى ورضى عنه :

« ما دام العبد مقبلا على الله فهو مقبل عليه ، ولا يعلم ما فى هذا الإقبال إلا أهله ، فإذا أعرض العبد معتزاً بخدائع نفسه ، وآمالها ، وأكاذيبها ، فأقبل على النفس وقبل منها ما تأتى به ، فقد أعرض عن الله ، وأعرض الله عنه ، وعذب قلبه ، فإذا تاب إلى الله ونزع أدركه من الله الغوث ، وفرح بها ، وفتح باب الرحمة عليه فوجد القلب خالصا ، وعاد العون والمدد فلم يزل العبد يترقى درجة ، وينتعش بعد النكس ، ويحيا بعد الموت » اهـ .

وصدق الترمذى فى هذا التعليق النفيس الذى تشهد له : الرحمة التى وضعها الله تعالى فى الآباء والأمهات ، حتى إنك لتراهم على الغاية من الشفقة عليهم ، والرفق بهم ، والاحتراق عليهم فيما يخافونه من الوبال عليهم ، وفرحهم بالتوبة إذا هم تابوا .

فإذا كانت هذه هى رحمة الآباء والأمهات ، فكيف بالخالق الواحد الماجد ، الذى يدر جميع رأفة الدنيا من جنب رحمة من مائة رحمة عنده ؟ ثم ماذا يكون ذلك فى جنب الرحمة العظمى التى عبَّر عنها بقوله سبحانه :

« ورحمتي وسعت كل شيء » ؟

فإياك أخي المسلم وطريقة التعطيل والتمثيل . فإن كلا منهما منزل ذميم ، ومرتع على علاته وخيم ، ولا يحل لأحد أن يجد روائع هذا الأمر ؛ لأن زكام التعطيل والتمثيل مفسد لحاسة الشم ، كما هو مفسد لحاسة الذوق ، فلا يذوق طعم الإيمان ، ولا يجد ريحه إلا من رضى بالله ربًّا ، وبالإسلام دينا ، وبسيدنا محمد ﷺ نبيًّا ورسولا .

والمحروم من عُرض عليه الغنى والخير فلم يقبله ، فلا مانع لما أعطى الله ، ولا معطِى لما منع الله ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

هذا كله إذا نظرت إلى متعلق الفرح الإلهى بالإحسان والجود والبر .

وأما إن لاحظت تعلقه بإلٰهيته وكونه معبودا : فذاك مشهد أجلّ من هذا وأعظم منه ، وإنما يشهده خواص المحبين من عباده .

فإن الله سبحانه وتعالى إنما خلق الخلق لعبادته ، الجامعة لمحبته والخضوع له وطاعته ، وهذا هو الحق الذى خلقت به السمٰوات والأرض ، وهو غاية الخلق والأمر :

« وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ، ما أُرِيدُ مِنْهُمْ من رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ »[1] .

ونفي عبادته ــ كما يقول أعداؤه ــ هو الباطل ، والعيب الذى نزّه الله نفسه عنه : أن يترك الإنسان عليه ، وهو سبحانه يحب أن يُعبد ويطاع ، ولا يعبأ بخلقه شيئا لولا محبتهم له ، وطاعتهم إليه ، ودعاؤهم إياه :

« أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ؟ فَتَعالَى اللهُ المَلِكُ الحَقُّ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ العَرْشِ الكَرِيم »[2] .

---

(١) الذاريات : ٥٦ ، ٥٧ .

(٢) المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦ .

وقد أنكر على من زعم أنه خلقهم لغير ذلك ، وأنهم لو خلقوا لغير عبادته وتوحيده وطاعته لكان خلقهم عبثاً وباطلاً وسُدَى ، وذلك ما يتعالى عنه أحكم الحاكمين ، والإله الحق رب العالمين .

فإذا خُدِع العبد عما خلق له من الطاعة والعبودية ، فقد خرج عن أحب الأشياء إليه ، وعن الغاية التى لأجلها خُلقت الخليقة ، وصار كأنه خلق عبثا لغير شيء .

فإذا راجع الإنسان نفسه ، وأدرك حقيقة ما خُلق له ، وَوُجِد لأجله ، فقد رجع إلى الغاية التى هى أحب الأشياء إلى خالقه سبحانه وتعالى ، بل ورجع إلى مقتضى الحكمة التى خلق لأجلها ، وخرج عن معنى العبث والباطل ، فاشتدت محبة الله تعالى له ، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين .

هذه المحبة هى التى أوجدت فرحا كأعظم ما يقدر من الفرح ولو كان فى الفرح المشهود فى هذا العالم نوع أعظم من هذا الذى ذكره النبى ﷺ لذكره ، ولكن لا فرحة أعظم من فرحة هذا الواجد الفاقد لمادة حياته فى سفره ، بعد إياسه من أسباب الحياة بفقده ، وهذا كشدة محبته لتوبة التائب المحب إذا اشتدت محبته للشيء وغاب عنه ، ثم وجده وصار طوع يده ، فلا فرحة أعظم من فرحته به .

فما الظن بمحبوب لك تحبه حبًّا شديداً ، أسره عدوك ، وحال بينك وبينه ، وأنت تعلم أن العدوّ سيسومه سوء العذاب ، ويعرضه لأنواع الهلاك ، وأنت أولَى به منه ، وهو غرسك وتربيتك ، ثم إنه انفلت من عدوه ، ووافاك على غير ميعاد ، فلم يفجأ له إلا وهو على بابك يترضاك ويستعينك ، ويمرغ خديه على تراب أعتابك .

فكيف يكون فرحك به ، وقد اختصصته لنفسك ، ورضيته لقربك ، وآثرته على من سواه ؟

والله عز وجل هو الذى أوجد عبده ، وخلقَه وكوَّنه ، وأسبغ عليه نعمه ، وهو يحب أن يتمها عليه ، فيصير مظهراً لنعمه ، قابلا لها ، شاكراً عليها ، محبًّا

لوليِّها ، مطيعاً له ، عابدا له ، معاديا لعدوه ، مبغضا له عاصيا له ، والله تعالى يحب من عبده معاداةَ عدوه ومعصيتَه ومخالفته ، كما يحب أن يوالِى الله مولاه سبحانه ، ويطيعه ويعبده ، فتنضاف محبته لعبادته وطاعته والإنابة إليه ، إلى محبته لعداوة عدوه ، ومعصيته ومخالفته ، فتشتد المحبة منه سبحانه ، مع حصول محبوبه ، وهذا هو حقيقة الفرح .

وليس فى إثبات هذه الصفات محذور ، فإنه « فرح » ليس كمثله شىء ، وحكمه حكم رضاه ومحبته ، وإرادته وسائر صفاته ، فالباب باب واحد ، لا تعطيل ، ولا تمثيل .

وليس ما يلزم به المعطل المثبت إلا ظلم محض ، وتناقض عجيب وتلاعب فاضح ، فإن هذا لو كان لازماً للزم رحمته وإرادته ومشيئته وسمعه وبصره ، وعلمه وسائر صفاته ، فكيف جاء هذا اللزوم لهذه الصفة دون الأخرى ؟ وهل يجد ذو عقل إلى الفرق سبيلا ؟

فما ثَمَّ إلا التعطيل المحض المطلق ، أو الإثبات المطلق لكل ما ورد به النص ، والتناقض لا يرضاه المخلصون المحققون .

« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ »[1] .

والتوحيد : أصل أصولِ البرّ ، وعمدة أنواعه .

ذلك أنه يتوقف عليه الإخبات لله ربّ العالمين ، الذى هو أعظم الأخلاق الجالبة للسعادة ، وهو أصل التدبير المحمود الذى به يحصل للإنسان التوجه التام تلقاء الغيب ، ويعد نفسه للُّحوق به بالوجه المقدس ، وقد نبَّه سيدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، على عظم أمره ، وكون منزلته من أنواع البر بمنزلة القلب من الجسد ، إذا صلح صلح الجسد كله ، وإذا فسد فسد الجسد كله ، حيث أطلق القول فيمن مات لا يشرك بالله شيئا أنه دخل الجنة ، أو حرَّم الله جسده على النار ، أو لا يُحجب من الجنة ، ونحو ذلك من العبارات التى قررت ذلك كله .

---

(١) الشورى : ١١

عن أبي سعيد وأبي هريرة رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :

« من قال لا إله إلا الله ، والله أكبر صدَّقه ربه وقال : لا إله إلا أنا وأنا أكبر .

وإذا قال : لا إله إلا الله وحده ، يقول الله : لا إله إلا أنا وأنا وحدى .

وإذا قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، قال الله : لا إله إلا أنا وحدى لا شريك لى .

وإذا قال : لا إله إلا الله له الملك وله الحمد ، قال الله : لا إله إلا أنا ، لى الملك ولى الحمد .

وإذا قال : لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله ، قال الله : لا إله إلا أنا ولا حول ولا قوة إلا بى » .

وكان يقول : من قالها فى مرضه ، ثم مات لم تَطْعَمْهُ النَّار[1] .

وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق ، والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل[2] .

وهذا يعنى : أن من شهد أن لا إله إلا الله ، عارفا لمعناها ، عاملا بمقتضاها باطنا وظاهرا ، كما دل عليه قوله تعالى :

(فاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)[3] .

وقوله سبحانه : (إِلَّا مَنْ شَهِدَ بالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)[4] .

أما النطق بها من غير معرفة لمعناها ولا عمل بمقتضاها ، فإن ذلك غير نافع بالإجماع أصلا .

وفى الحديث ما يدل على هذا ، وهو قوله : « من شهد » إذ كيف يشهد وهو لا يعلم ومجرد النطق بشيء لا يسمى شهادة به .

---

(١) أخرجه الترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، وابن حبان ، والحاكم وصححاه وقال الترمذى : حديث حسن .

(٢) أخرجه الإمام البخارى ومسلم . (٣) محمد : ١٩ (٤) الزخرف : ٨٦

ويعلق الإمام النووى رضى الله عنه فيقول :

« هذا حديث عظيم جليل الموقع ، وهو من أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد ، فإنه ﷺ جمع فيه ما يخرج عن ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدها ، فاقتصر ﷺ فى هذه الأحرف على ما يباين به جميعهم » انتهى .

ومعنى « لا إله إلا الله » لا معبود بحق إلا إله واحد ، وهو الله وحده لا شريك له كما قال تعالى :

(وَما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)[1] .

وقوله تعالى : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ واجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)[2] .

فصح أن معنى الإله هو المعبود ، ولهذا قال النبى ﷺ لكفار قريش « قولوا لا إله إلا الله » فقالوا : « أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً واحِداً إِنَّ هذَا لَشَيْءٌ عُجَاب »[3] .

وقال قوم هود عليه السلام : « أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِما تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِين »[4] وهو إنما دعاهم إلى « لا إله إلا الله » .

هذا هو معنى « لا إله إلا الله » وهو عبادة الله ، وترك عبادة ما سواه ، وهو الكفر بالطاغوت والإيمان بالله سبحانه وتعالى .

فتضمنت هذه الكلمة العظيمة أن ما سوى الله ليس بإله ، وأن إلهية ما سواه أبطل الباطل ، وإثباتها أظلم الظلم ، فلا يستحق العبادة سواه ، كما لا تصلح الإلهية لغيره ، فتضمنت نفى الإلهية عما سواه ، وإثباتها له وحده لا شريك له ، وذلك يستلزم الأمر باتخاذه إلهاً وحده ، والنهى عن اتخاذ غيره معه إلهاً ،

---

(١) الأنبياء : ٢٥
(٢) النحل : ٣٦
(٣) ص : ٥
(٤) الأعراف : ٧٠

وهذا يفهمه المخاطب فى هذا النفى والإثبات ، فإن هذا أمر منه ونهى ، وقد دخل فى الإلهية جميع أنواع العبادة الصادرة عن تألّه القلب لله بالحب والخضوع والانقياد له وحده لا شريك له ، فيجب إفراد الله تعالى بها ، كالدعاء والخوف والمحبة والتوكل والإنابة ، والتوبة ، والسجود ، وجميع أنواع العبادة ، فيجب صرف جميع ذلك لله وحده ، لا شريك له ، فمن صرف شيئاً مما لا يصلح إلا لله من العبادات لغير الله سبحانه ، فهو مشرك ولو نطق بلا إله إلا الله ، إذ لم يعمل بما تقتضيه لا إله إلا الله من التوحيد الخالص ، والإخلاص المطلق لله وحده .

وللسادة العلماء أقوال نفيسةٌ فى معنى الإله :

يقول ابن عباس رضى الله عنهما : الله ذو الألوهية ، والعبودية على خلقه أجمعين .

وروى ابن جرير الطبرى فى تفسيره ، وابن أبى حاتم ، رضى الله عنهما ، أن قوله « شهادة ألا إله إلا الله » يقتضى أن يكون الشاهد عالما بأن : « لا إله إلا الله » ، كما قال الله عز وجل : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلٰهَ إِلَّا الله ، واسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾[١] .

وينبغى أن يكون الناطق بها شاهدا فيها ، فقد قال الله عز وجل ، ما أوضح به أن الشاهد بالحق إذا لم يكن عالما بما شهد به ، فإنه غير بالغ من الصدق به مع من شهد من ذلك بما يعلمه فى قوله تعالى :

﴿ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بالحَقِّ وهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[٢] .

واقتضى الإقرار بها أن تعلم أن كل ما فيه أمارة للحدث ، فإنه لا يكون إلٰها ، فإذا قلت : لا إله إلا الله ، فقد اشتمل نطقك هذا على أن ما سوى الله ليس بإله ، فيلزمك إفراده سبحانه بذلك وحده .

وجملة الفائدة فى ذلك أن تعلم ، أن هذه الكلمة هى مشتملة على الكفر

---

(١) محمد : ١٩ (٢) الزخرف : ٨٦

بالطاغوت ، والإيمان بالله ، فإنك لما نفيت الإلهية وأثبت الإيجاب لله سبحانه ، كنت ممن كفر بالطاغوت وآمن بالله وحده .

يقول أبو عبد الله القرطبي رحمه الله تعالى في تفسيره : لا إله إلا هو ، أى لا معبود إلا هو .

وقال شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية : الإله هو المعبود المطاع .

كما قال أيضا رحمه الله تعالى في : لا إله إلا الله :

إثبات انفراده بالإلهية ، والإلهية تتضمن كمال علمه وقدرته وحكمته ، ففيها إثبات إحسانه إلى العباد ، فإن الإله هو المألوه ، والمألوه هو الذى يستحق أن يعبد ، وكونه يستحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات التى تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب ، المخضوع له غاية الخضوع .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى :

« الإله هو الذى تألهه القلوب ، محبةً وإجلالًا ، وإنابةً وإكراماً ، وتعظيماً وذلًا ، وخضوعاً وخوفاً ، ورجاء وتوكلا » .

والإله هو الذى يطاع فلا يعصى ، هيبة له وإجلالا ، ومحبة وخوفا ، ورجاء وتوكلا عليه ، وسؤالًا منه ، ودعاء له ، ولا يصلح ذلك كله إلا لله عز وجل ، فمن أشرك مخلوقاً في شيء من هذه الأمور التى هى من خصائص الإلهية كان ذلك قدحاً في إخلاصه في قول : لا إله إلا الله ، ونقصاً في توحيده ، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك ، وهذا كله من فروع الشرك .

وقال البقاعى رضى الله عنه :

« لا إله إلا الله » انتفى انتفاء عظيماً أن يكون معبود بحق غير الملك الأعظم ، فإن هذا العلم هو أعظم الذكرى المنجية من أهوال الساعة ، وإنما يكون علماً إذا كان نافعا ، وإنما يكون نافعاً إذا كان الإذعان والعمل بما تقتضيه ، وإلا فهو جهل صرف .

وللتوحيد مراتب :

إحداها : حصر وجوب الوجود فيه سبحانه وتعالى ، فلا يكون غيره واجبا .

الثانية : حصر خلق العرش والسموات والأرض وسائر الجواهر فيه تعالى
وهاتان المرتبتان لم تبحث الكتب الإلهية عنهما ، ولم يخالف فيهما مشركو العرب ، ولا اليهود ، ولا النصارى ، بل إن القرآن العظيم نبّه على أنهما من المقدسات المسلّمة عندهم .

الثالثة : حصر تدبير السموات والأرض وما بينهما فيه تعالى .

الرابعة : أنه لا يستحق غيره العبادة ، وهما متشابكتان متلازمتان لربط طبيعي بينهما .

وقد اختلفت في هذه المراتب طوائف من الناس معظمهم ثلاث فرق :

النجامون : فإنهم ذهبوا إلى أن النجوم تستحق العبادة ، وأن عبادتها تنفع في الدنيا ، ورفع الحاجات إليها حق .

وقالوا : قد تحققنا أن لها أثراً عظيما في الحوادث اليومية ، وسعادة المرء وشقاوته ، وصحته وسقمه ، وأن لها نفوسا مجردة عاقلة ، تبعثها على الحركة ، ولا تغفل عن عبادها ، فبنوا هياكل على أسمائها وعبدوها .

والمشركون وافقوا المسلمين في تدبير الأمور العظام ، وفيما أبرم وجزم ، ولم يترك لغيره خيرة ، ولم يوافقوهم في سائر الأمور ، بل ذهبوا إلى أن الصالحين من قبلهم عبدوا الله سبحانه ، وتقربوا إليه تعالى ، فأعطاهم الله سبحانه الألوهية ، فاستحقوا العبادة من سائر خلق الله ، كما أن ملك الملوك يخدمه عبده ، فيحسن خدمته ، فيعطيه خلعة الملك ، ويفوّض إليه تدبير بلد من بلاده ، فيستحق السمع والطاعة من ذلك البلد .

وقالوا : لا تقبل عبادة الله إلا مضمونة بعبادتهم ، بل الحق في غاية التعالى ، فلا تفيد عبادته تقربا منه ، بل لا بد من عبادة هؤلاء ليقربوا إلى الله زلفى .

وقالوا : هؤلاء يسمعون ويبصرون ويشفعون لعبادهم ، ويدبرون أمورهم ، وينصرونهم فنحتوا على أسمائهم أحجارا ، وجعلوها قبلة عند توجههم إلى هؤلاء ، فخلف من بعدهم خلف ، فلم يفطنوا للفرق بين الأصنام ، وبين من هى على صورته ، فظنوها معبودات بأعيانها ، ولذلك رد الله تعالى عليهم تارة

بالتنبيه على أن الحكم والملك له خاصة ، وتارة ببيان أنها جمادات ، فقال سبحانه :

« أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بها ؟ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بها ؟ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بها ؟ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بها ؟ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ »[1] .

والنصارى ذهبوا إلى أن للمسيح عليه السلام قربا من الله تعالى ، علوًّا على الخلق فلا ينبغى أن يسمَّى عبداً فيسوَّى بغيره ، لأن هذا سوء أدب معه ، وإهمال لقربه من الله سبحانه ، ثم مال بعضهم عند التعبير عن تلك الخصوصية إلى تسميته ابن الله ، نظراً إلى أن الأب يرحم الابن ، ويربيه على عينه وهو فوق العبيد ، فهذا الاسم أولى به .

ومال بعضهم إلى تسميته بالله نظرا إلى أن الواجب حل فيه ، وصار داخله ، ولهذا يصدر منه آثار لم تعهد من البشر ، مثل إحياء الأموات ، وخلق الطين ، فكلامه كلام الله ، وعبادته هى عبادة الله ، فخلف من بعدهم خلف لم يفطنُوا لوجه التسمية ، وكادوا يجعلون النبوة حقيقة ، أو يزعمون أنه الواجب من جميع الوجوه ، ولذلك ردَّ الله تعالى عليهم تارة ، بأنه لا صاحبة له ، وتارة بأنه بديع السموات والأرض ، فقال سبحانه :

« بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ !؟ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ »[2] .

وهذه الفرق الثلاث ، لهم دعاوى عريضة ، وخرافاتٌ باطلةٌ كثيرة ، لا تخفى على المتبع ، وعن هاتين المرتبتين بحث القرآن الكريم ، ورد على الكافرين شبهتهم ، ردًّا لا يدع فيه مجالا لمرتاب ولا شاك .

---

(١) الأعراف : ١٩٥

(٢) الأنعام : ١٠١ ، ١٠٢

وإذ تقرر لا محالة فرض توحيد الحق سبحانه على عباده ، بمقتضى هذا الاستدلال القاطع ، وبموجب هذه الحجج الواضحة ، فإن لإثبات هذا التوحيد الخالص وإقراره ، وسائل واضحة ، تثبت بلا شك صدق إقرار العبد فى توحيده ، وإخلاص عقيدته لله سبحانه وتعالى .

ومن وسائل هذا التوحيد الخالص ، الذى هو مفتاح دعوة الرسل :

* إخلاص جميع أنواع العبادة له ، فيجب إخلاص العبادة لله تعالى ، فمن أشرك بين الله تعالى وبين غيره فى شيء فليس بمسلم ولا بموحِّد .

أخرج ابن ماجه فى سننه ، وابن خزيمة فى صحيحه ، والبيهقى فى سننه ، بإسناد صحيح ورجاله ثقات ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : قال الله عز وجل :

« أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل لى عملًا أشرك فيه غيرى ، فأنا منه برىء ، وهو للّذى أشرك » .

وأخرج الترمذى فى جامعه وابن ماجه فى سننه ، وابن حبان فى صحيحه ، والبيهقى فى سننه ، عن أبى سعيد بن أبى فضالة وكان من الصحابة ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم القيامة ، ليومٍ لا ريب فيه ، نادى منادٍ : من كان أشرك فى عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عنده ؛ فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك » .

ومن هذه العبادة المقصودة بالإخلاص لله سبحانه :

* المحبة ، فمن أشرك بين الله تعالى وبين غيره فى المحبة التى لا تصلح إلا لله تعالى فهو مشرك ، يقول سبحانه :

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ »(١) .

---

(١) البقرة : ١٦٥

* ومنها : التوكل ، فلا يتوكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه .

يقول تعالى : « وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ »[1] .

ويقول سبحانه : « وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ »[2] .

والتوكل على غير الله — فيما لا يقدر عليه إلا الله — شركٌ .

* ومنها : الخوف ، فلا يخاف خوف السر إلا من الله سبحانه ، ومعنى خوف السر ، هو أن يخاف العبد من غير الله تعالى أن يصيبه مكروه بمشيئته وقدرته ، وإن لم يباشره ، فهذا شرك ، لأنه اعتقاد للنفع والضر من غير الله تعالى ، والله يقول : « فَإِيَّاىَ فَارْهَبُون »[3] .

ويقول سبحانه : « فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ واخْشَوْنِ »[4] .

ويقول تعالى :

« وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الغَفُورُ الرَّحِيم »[5] .

* ومنها : الرجاء فيما لا يقدر عليه إلا الله ، يقول سبحانه :

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا والَّذينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ »[6] .

ويقول الإمام على رضى الله عنه وكرّم الله وجهه : « لا يرجُونَّ العبد إلا ربه » .

* ومنها : الصلاة والركوع والسجود ، قال الله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا واسْجُدُوا واعْبُدُوا رَبَّكُمْ »[7] .

* ومنها : الدعاء فيما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه ، يقول تعالى :

---

(١) المائدة : ٢٣ (٢) المائدة : ١١ (٣) النحل : ٥١
(٤) المائدة : ٤٤ (٥) يونس : ١٠٧ (٦) البقرة : ٢١٨
(٧) الحج : ٧٧

« وَقَالَ رَبُّكُم ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُم ، إنَّ الَّذِينَ يَسْتَكبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ »(١) .

وقال سبحانه : « وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ الله مَالَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإنْ فَعَلْتَ فَإنَّكَ إذًا مِنَ الظَّالِمين »(٢) .

* ومنها الطواف ، فلا يُطاف إلا ببيت الله سبحانه ، قال تعالى : « وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيق »(٣) .

* ومنها : التوبة والاستغفار ، فلا يتاب إلا لله ، ولا يُستغفر إلا هو يقول سبحانه :

« وَتُوبُوا إلَى الله جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون »(٤) .

ويقول تعالى : « وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا الله »(٥) .

* ومنها : الاستعاذة فيما لا يقدر عليه إلا الله وحده ، قال الله تعالى :

« قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَق » .

وقال سبحانه : « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاس » .

*ومنها : التعرف إلى الله في الرخاء قبل الشدة ، والاستعانة به وحده فيما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه ، يقول صلوات الله وسلامه عليه لابن عباس رضى الله عنهما :

« يا غلام : احفَظِ الله يَحفَظْكَ ، احفَظِ الله تجدْهُ تجاهَك ، تعرَّف إلى الله فى الرَّخاء يعرفك فى الشدَّة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعت على أن يضروك لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رُفعت الأقلام وجفَّت الصحف(٦) » .

---

(١) المؤمن (غافر) : ٦٠ (٢) يونس : ١٠٦ (٣) الحج : ٢٩

(٤) النور : ٣٨ (٥) آل عمران : ١٣٥ (٦) أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

* ومنها : الرضا بالقضاء والصبر على البلاء ، والإيمان بأن المرجع والمآب إليه سبحانه ، يقول الله تعالى :

(الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيهِ رَاجِعُونَ ، أُولَئِكَ عَلَيهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)[1] .

يقول القاضى رضى الله عنه فى معنى هذه الآية الكريمة :

إنه تعالى لم يضف هذه المصيبة إلى نفسه بل عمم وقال :

(الذين إذا أصابتهم مصيبة) .

فالظاهر أنه يدخل تحتها كل مضرة ينالها من قبل الله تعالى ، وينالها من قبل العباد ، لأن فى الوجهين جميعاً عليه تكليفاً ، وإن عدل عنه إلى خلافه كان تاركاً للتمسك بأدائه ، فالذى يناله من قبله تعالى ، يجب أن يعتقد فيه أنه حكمة وصواب وعدل وخير وصلاح ، وأن الواجب عليه الرضا به وترك الجزع ، وكل ذلك داخل تحت قوله (إنا لله) لأن فى إقرارهم بالعبودية تفويض الأمور إليه ، والرضا بقضائه فيما يبتليهم به ، لأنه لا يقضى إلا بالحق كما قال تعالى :(وَاللهُ يَقْضِى بِالحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَىء »[1] .

أما إذا نزلت به المصيبة من غيره فتكليفه أن يرجع إلى الله تعالى ، فى الانتصاف منه وأن يكظم غيظه وغضبه ، فلا يتعدى إلى ما لا يحل له من شفاء غيظه ، فهذا يدخل تحت قوله (إنا لله) .

والله وحده هو الذى ألزمه سلوك هذه الطريقة ، حتى لا يجاوز أمره كأنه يقول فى الأول :

إنا لله ، يدبِّر فينا كيف يشاء ، وفى الثانى يقول : إنا لله ينتصف لنا كيف يشاء » اهـ .

وعلى قوله تعالى : « إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون » يعلِّق أيضاً الإمام أبو بكر الوراق رضى الله عنه تعليقاً نفيساً فيقول :

---

(١) غافر (٢٠) .

« إنا لله إقرار منا بالملك ، وإنا إليه راجعون ، إقرار على أنفسنا بالهلاك » .
ومعنى الرجوع إليه ليس عبارة عن الانتقال إلى مكان أو جهة ، فإن ذلك على الله محال ، بل المراد أن يصير إلى حيث لا يملك الحكم فيه سواه ، وذلك هو الدار الآخرة ، لأن عند ذلك لا يملك لهم أحد نفعاً ولا ضرا ، وما داموا فى الدنيا قد يملك غير الله نفعهم وضرهم بحسب الظاهر ، فجعل الله تعالى هذا رجوعاً إليه تعالى » اهـ .

وهذا يدل على أن ذلك إقرار بالبعث والنشور ، والاعتراف بأنه سبحانه سيجازى الصابرين على قدر استحقاقهم ، ولا يضيع عنده أجر المحسنين .

كما يدل قوله (إنَّا لله) على كون الإنسان راضيا بكل ما نزل به فى الحال من أنواع البلاء .

وقوله : (وإنا إليه راجعون) يدل على كونه فى الحال راضيا بكل ما سينزل به بعد ذلك ، من إثابته على ما كان منه ، ومن تفويض الأمر إليه على ما نزل به ، ومن الانتصاف ممن ظلمه ، فيكون مذللًا نفسه ، راضيا بما وعده الله به من الأجر فى الآخرة .

وقال أبو بكر الرازى رضى الله عنه :

اشتملت الآية على حكمين : فرض ونفل ، أما الفرض فهو التسليم لأمر الله تعالى ، والرضا بقضائه ، والصبر على أداء فرائضه ، لا يصرفه عنها مصائب الدنيا ، وأما النفل فإظهار لقوله (إنا لله وإنا إليه راجعون) فإن فى إظهاره فوائد جزيلة :

منها : أن غيره يقتدى به إذا سمعه .

ومنها : غيظ الكفار وعلمهم بجده واجتهاده فى دين الله والثبات عليه وعلى طاعته .

وللمحن والبلايا فوائد تختلف باختلاف رتب الناس ومكانتهم ، منها :

* معرفة عز الربوبية وقهرها ، ومعرفة ذل العبودية وكسرها ، وإليه الإشارة بقوله تعالى :

« الَّذِينَ إذا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إنَّا لله وإنَّا إلَيهِ رَاجِعُون » .

* اعترافهم بأنهم ملكه وعبيده وأنهم راجعون إلى حكمه وتدبيره ، وقضائه وتقديره ، لا مفر لهم منه ، ولا محيد لهم عنه .

* الإخلاص لله تعالى إذ لا مرجع فى رفع الشدائد إلا إليه ، ولا معتمد فى كشفها إلا عليه :

« وَإِنْ يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُو »[1] .

« فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّين »[2] .

* الإنابة إلى الله تعالى ، والإقبال عليه والتضرع إليه والدعاء له :

« وَإِذَا مَسَّ الإنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيهِ »[3] .

« وَإِذَا مَسَّكُم الضُّرُّ فِي البَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ »[4] .

« بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ ، وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ »[5] .

« قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِه لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ »[6]

* الحلم ممن صدرت عنه المصيبة : «إنَّ إبرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ »[7] :

إن فيك لخصلتين يحبهما الله تعالى : الحلم والأناة .

وتختلف مراتب الحلم باختلاف المصائب فى صغرها وكبرها ، فالحلم عند أعظم المصائب أفضل من كل حلم .

---

(١) الأنعام : ١٧ (٢) العنكبوت : ٦٥ (٣) الزمر : ٨
(٤) الإسراء : ٦٧ (٥) الأنعام : ٤١ (٦) الأنعام : ٦٣
(٧) التوبة : ١١٤

* والعفو عن جانيها ، والعفو عن أعظمها أفضل من كل عفو : « وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ »[١] ، « فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ »[٢] .

* الصبر عليها : وهو موجب لمحبة الله تعالى وكثرة ثوابه : « وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ »[٣] . « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ »[٤] .

« وما أعطىَ أحد عَطاءً خيراً وأوسع من الصبر » .

* الفرح بها لأجل فوائدها ، قال عليه الصلاة والسلام :

« والذى نفسى بيده : إن كانوا ليفرحون بالبلاء كما تفرحون بالرخاء » .

وقال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه :

« حبَّذا المكروهان : الموتُ ، والفقر » .

وإنما فرحوا بها إذ لا وقع لشدتها ومرارتها بالنسبة إلى ثمرتها وفائدتها ، كما يفرح من عظمت أدواؤه بشرب الأدوية الحاسمة لها ، مع تجرعه لمرارتها .

* الشكر عليها لما تضمنته من فوائدها ، كما يشكر المريضَ الطبيب القاطع لأطرافه ، لما يتوقع فى ذلك من البرء والشفاء :

* تمحيصها للذنوب والخطايا :

« وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُم وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ »[٥] .

« وما يصيب المؤمن من وَصب « ولا نَصَب » حتى الهم يهم به ، والشوكة يشاكها إلا كُفِّر به من سيئاته » .

* رحمة أهل البلاء ومساعدتهم على بلواهم ، فالناس معافى ومبتلى ، فارحموا أهل البلاء ، واشكروا الله تعالى على العافية .

---

(١) آل عمران : ٣٤ — (٢) الشورى : ٤٠ — (٣) آل عمران : ١٤٦

(٤) الزمر : ١٠ — (٥) الشورى : ٣٠

* معرفة قدر نعمة العافية والشكر عليها ، فإن النعم لا تعرف أقدارها إلا بعد فقدانها .

* ما أعدَّه الله تعالى على هذه الفوائد من ثواب الآخرة على اختلاف مراتبها .

* ما في طيِّها من الفوائد الخفية : « فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيرا »[1] . « وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ »[2] .

* إن المصائب والشدائد تمنع من الأشر والبَطَر ، والفخر والخيلاء ، والتكبُّر والتجبُّر ، فإن نمرود لو كان فقيرا سقيما ، فاقد السمع والبصر ، لما حاجَّ إبراهيم في ربه ، لكن حمله بطر المُلك على ذلك ، وقد علَّل الله سبحانه وتعالى محاجَّته بإتيانه الملك ، ولو ابتلى فرعون بمثل ذلك لما قال : « أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى » .

« كَلَّا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى ، أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى »[3] .

« وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ »[4] .

« وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيه »[5] .

« لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا ، لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ »[6] ..

« وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ »[7] .

والفقراء والضعفاء هم الأولياء ، وأتباع الأنبياء ، ولهذه الفوائد الجليلة كان أشد الناس بلاءً الأنبياء . ثم الأمثل فالأمثل .

---

(١) النساء : ١٩ (٢) البقرة : ٢١٦ (٣) العلق : ٩ ، ١٠

(٤) الشورى : ٢٧ (٥) هود : ١١٦ (٦) الجن : ١٦ ، ١٧

(٧) سبأ : ٣٤

نُسبوا إلى الجنون ، والسحر ، والكهانة ، واستُهزىء بهم ، وسُخر منهم ، « فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وأوذوا » .

يقول الله تعالى :

« أم حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ والضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ ؟ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ »[1] .

« وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ »[2] .

« لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرا »[3] .

كالذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم ، وتغربوا عن أوطانهم ، وكثر عناهم ، واشتد بلاهم ، وتكاثر أعداؤهم ، فغُلِبوا في بعض المواطن ، وقتل منهم بأُحد وبئر معونة من قتل ، وشُجَّ وجه سيدنا رسول الله ﷺ ، وكُسِرت رباعيته ، وقُتِلَ أعزَّاؤه ، وابتلُوا يوم الخندق ، وزلزلوا زلزالا شديدا ، وزاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وأُوذى بأنواع الأذية ، حتى قذفوا أحبَّ أهله إليه ، ثم ابتُلِيَ فى آخر الأمر بمسيلمة وطليحة والعنسى ، ولقى هو وأصحابه فى جيش العُسرة ما لقوه ، ومات ودرعه مرهونة عند يهودى على أصع من شعير ، ولم تزل الأنبياء والصالحون يُتعهَّدون بالبلاء الوقت بالوقت .

« يُبتلَى الرجل على قدر دينه ، فإن كان صلباً فى دينه شُدِّدَ فى بلائه » .

ولقد كان أحدهم يوضع المنشار على مفرقه فلا يصدُّه ذلك عن دينه .

---

(١) البقرة : ٢١٤ (٢) البقرة : ١٥٥ (٣) آل عمران : ١٨٦ .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ فيما أخرجه البخارى ومسلم :

« مثل المؤمن كمثل خامة الزرع من حيث أتتها الريح كفتها ، فإذا سكنت اعتدلت ، وكذلك المؤمن يكفأ بالبلاء ، ومثل الفاجر كالأرزة ، صمَّاءَ معتدلة حتى يقصمها الله تعالى إذا شاء »[1] .

فحال الشدة والبلوى مقبلة بالعبد إلى الله عز وجل .

وحال العافية والنعماء صارفة للعبد عن الله تعالى :

« وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّه »[2] .

والمقصود من هذه الآية : بيان أن الإنسان قليل الصبر عند نزول البلاء ، قليل الشكر عند وجدان النعماء والآلاء ، فإذا مسَّه الضر أقبل على التضرع والدعاء فى جميع أحيانه مضطجعا أو قاعدا ، مجتهدا فى ذلك الدعاء ، طالبا من الله تعالى إزالة تلك المحنة ، وتبديلها بالنعمة ، فإذا كشف سبحانه وتعالى عنه ذلك بالعافية أعرض عن الشكر ، ولم يتذكر ذلك الضرر ، ولم يعرف قدر الإنعام ، وصار بمنزلة من لم يدع الله تعالى لكشف ضره ، وذلك يدل على ضعف طبيعة الإنسان ، وشدة استيلاء الغفلة والشهوة عليه ، ولكن الله سبحانه وتعالى ذكر ذلك تنبيها على أن هذه الطريقة مذمومة ، بل الواجب على الإنسان العاقل أن يكون صابرا عند نزول البلاء ، شاكرا عند الفوز بالنعماء ، ومن شأنه أن يكون كثير الدعاء والتضرع فى أوقات الراحة والرفاهية ، حتى يكون مستجاب الدعوة فى وقت المحنة .

---

(١) والمعنى أن المؤمن كثير الآلام فى بدنه وأهله وماله وذا مكفِّر لسيئاته ، رافع لدرجاته . والكافر قليلها وإن حل به شيء لم يكفر عنه ، بل يأتى بها تامة يوم القيامة .

(٢) يونس : ١٢

فالمؤمن إذا ابتُلِي ببلية ، واختبر بمحنة ، وجب عليه أن يكون راضياً بقضاء الله تعالى غير معترض بالقلب واللسان عليه .

وجب عليه ذلك ؛ لأنه تعالى مالك على الإطلاق ، ومالك بالاستحقاق ، فله أن يفعل في مِلكه ومُلكه ما شاء كما يشاء ، لأنه تعالى حكيم على الإطلاق وهو منزه عن فعل الباطل مقدَّس عن العبث،فكل ما فعله فهو حكمة وصواب ، وإذا كان كذلك فحينئذ وجب على الإنسان أن يعلم أنه تعالى إن أبقى عليه تلك المحنة فهو عدل ، وإن أزالها عنه فهو فضل ، وحينئذ يجب عليه الصبر والسكوت وترك القلق والاضطراب .

وفي ذلك الوقت إن اشتغل بذكر الله تعالى والثناء عليه بدلا من الدعاء كان أفضل ، لقوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن رب العزة :

« مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِين » .

لأن الاشتغال بالذكر اشتغال بالحق تعالى ، والاشتغال بالدعاء اشتغال بطلب حظ النفس ، ولا شك أن الأول أفضل ، ثم إن اشتغل بالدعاء وجب أن يشترط فيه أن يكون إزالته صلاحاً في الدين .

وبالجملة فإنه يجب أن يكون الدين راجحا عنده على الدنيا .

والله سبحانه وتعالى إذا أزال عنه تلك البلية ، فإنه يجب عليه أن يبالغ في الشكر ، وألّا يخلو عن ذلك الشكر في السراء والضراء ، وأحوال الشدة والرخاء ، فهذا هو الطريق الصحيح عند نزول البلاء .

وهنا مقام آخر، أفضل مما ذكرناه ، وهو أن أهل التحقيق قالوا :

« إن من كان في وقت وجدان النعمة مشغولاً بالنعمة لا بالمنعم ، كان عند البلية مشغولا بالبلاء لا بالمُبلِي ، ومثل هذا الشخص يكون أبدا في البلاء ، أما في وقت البلاء فلا شك أنه يكون في البلاء ، وأما في وقت حصول النعماء فإن خوفه من زوالها يكون أشد أنواع البلاء ، فإن النعمة كلما كانت أكمل وألذّ وأقوى وأفضل ، كان خوف زوالها أشد إيذاءً وأقوى إيحاشا ، فثبت أن من كان مشغولا بالنعمة كان أبداً في لُجّة البليّة ، أما من كان في وقت النعمة مشغولًا

بالمنعم ، لزم أن يكون فى وقت البلاء مشغولا بالمُبلِى ، وإذا كان المنعمَ والمبلى واحدا ، كان نظره أبداً على مطلوب واحد ، وكان مطلوبه منزها عن التغير ، مقدماً عن التبدل ، ومن كان كذلك كان فى وقت البلاء وفى وقت النعماء ، غرقاً فى بحر السعادات ، واصلا إلى أقصى الكمالات ، وهذا النوع من البيان بحر لا ساحل له ، ومن أراد أن يصل إليه ، فليكن من الواصلين إلى العين دون السامعين للأثر .

لأجل ذلك تقلّلوا فى المآكل والمشارب والمناكح والمجالس والمراكب وغير ذلك ، ليكونوا على حالة توجب لهم الرجوع إلى الله تعالى والإقبال عليه سبحانه .

* الرضا الموجب لرضوان الله تعالى ، فإن المصائب تنزل بالبر والفاجر ، فمن سخطها فله السخط وخسران الدنيا والآخرة ، ومن رضيها فله الرضا ، والرضا أفضل من الجنة وما فيها .

يقول تعالى : « وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَر »[1] أى من جنات عدن ومساكنها الطيبة .

لهذا ختم الله عز وجل ، هذه الآية الكريمة ، بما يحقق لهم الفوز الدائم ، والسعادة الأبدية ، جزاء ما صنعوا من إنابتهم إليه ، وإقبالهم عليه ، وتضرعهم بالدعاء والخشوع له ، فى كل ما نزل بهم من قضاء ، وما لحق بهم من قدرٍ وبلاء . فقال :

« أُولَئِكَ عَلَيهِمْ صَلَوَاتٌ مِن رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُون »[2] .

وفى هذا القول الإلهى : إشارة إلى الصابرين باعتبار اتصافهم بما ذكر من جميل الصفات ، وكريم الخصال والنعوت ، حتى كانت الصلاة عليهم من الله البركة والمغفرة ، والثناء والمدح والتعظيم والتكريم .

والصلاة عليهم من الله تعالى أتت بصيغة الجمع فى حقهم : تنبيها على

---

(١) التوبة : ٧٢ (٢) البقرة : ١٥٧

كثرتها منه سبحانه ، وأنها حاصلة لهم في الدنيا توفيقا وإرشادا ، وفي الآخرة ثوابا ومغفرة ، ورحمة عظيمة في الدنيا عِوَض مصيبتهم ، فهم المهتدون إلى الوفاء بحق الربوبية والعبودية ، فلا بد أن يوفي الله عليهم صلواته وبركاته ورحمته .

* ومن وسائل التوحيد كذلك : ألا يوكل أمر الرزق إلا إليه وحده سبحانه :

يقول تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ، مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِن رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُون ، إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِين »[1] .

والعبادة هي طاعة الله ، بامتثال ما أمر به على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وهي اسم جامع لكل ما يحبه الله عز وجل ويرضاه ، من الأقوال ، والأعمال الباطنة والظاهرة .

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :

« ومدارها — أي العبادة — على خمس عشرة قاعدة ، من كملها كمل مراتب العبودية » .

وبيان ذلك أن العبادة منقسمة على القلب ، واللسان ، والجوارح .

والأحكام التي للعبودية خمسة : واجب ، ومستحب ، وحرام ، ومكروه ، ومباح . وهنَّ لكل واحد من القلب ، واللسان ، والجوارح .

ويقول الإمام القرطبي رحمه الله تعالى ورضي عنه :

« أصل العبادة التذلل والخضوع ، وسميت وظائف الشرع على المكلفين عبادات ، لأنهم يلتزمونها ويفعلونها خاضعين متذللين لله تعالى » اهـ .

وفي قول الحق عز وجل : « وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » أخبر الله تعالى أنه ما خلق الإنس والجن إلا لعبادته ، وهذا هو مقتضى الحكمة في

---

(١) الذاريات : ٥٦ — ٥٨

خلقهم ، ولم يرد منهم ما تريده السادة من عبيدها من الإعانة لهم بالرزق والإطعام ، بل هو الرزاق ذو القوة المتين ، الذى يُطعِم ولا يُطعم :

« قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ؟ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ، قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ »[1] .

وعبادة الله تعالى هى طاعته بفعل المأمور ، وترك المحظور ، وذلك هو حقيقة دين الإسلام ، لأن معنى الإسلام ، هو الاستسلام لله المتضمن غاية الانقياد ، فى غاية الذل والخضوع والانكسار .

وما أجمل ما عبّر به الإمام علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فى معنى الآية :

« إنى لآمرهم أن يعبدونى ، وأدعوهم إلى عبادتى » .

وقال مجاهد : إنى لآمرهم وأنهاهم » .

ويدل على هذا قوله تعالى : « أَيَحْسَبُ الإنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى »[2] .

والله سبحانه وتعالى قد قال فى القرآن فى موضع :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُم الَّذى خَلَقَكُمْ وَالَّذينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون »[3] .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم الَّذى خَلَقَكُمْ مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ »[4] .

فقد أمرهمّ بما خلقوا له ، وأرسل الرسل إلى الجن والإنس لذلك ، وهذا المعنى العميق هو الذى قصد بالآية ، وهو الذى فهمه ويفهمه جماهير المسلمين فى المشارق والمغارب ، ويحتجون بالآية عليه ، ويقرُّون أن الله تعالى ، إنما خلقهم ليعبدوه العبادة الشرعية ، وهى طاعته وطاعة رسله ، لا ليضيعوا حقه الذى خلقهم له .

---

(١) الأنعام : ١٤

(٢) القيامة : ٣٦

(٣) البقرة : ٢١

(٤) النساء : ١

وفى هذه الآية الكريمة دلالة قاطعة على وجوب اختصاص الخالق تعالى بالعبادة ، لأنه سبحانه هو الذى ابتدأ العباد بخلقه والإنعام عليهم بقدرته ، ومشيئته ، ورحمته ، من غير سبب منهم أصلا ، وما فعله بهم لا يقدر عليه غيره ، وصدق الله العظيم إذ يقول :

« يَا أَيُّها النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيكُمْ هَلْ مِن خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفكُون »(١) .

ثم إذا احتاج العباد إليه فى جلب رزق ، أو دفع ضر ، فهو وحده الذى يأتى بالرزق لا يأتى به غيره ، وهو الذى يدفع الضر لا يدفعه غيره ، يقول سبحانه :

« أَمَّنْ هَذَا الَّذِى هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُم مِن دُونِ الرَّحْمَنِ ، إِنِ الكَافِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ، أَمَّنْ هَذا الَّذى يَرْزُقُكُمْ إنْ أَمْسَكَ رِزْقَه ، بَلْ لَجُّوا فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ »(٢) .

فهو سبحانه الذى ينعم على الإنسان ويحسن إليه بنفسه ، فإن ذلك من موجب ما تسمى به ، ومن أوصاف ما وصف به نفسه ، إذ هو الرحمن الرحيم ، الودود المجيد ، الفعَّال لما يريد ، وهو القادر بنفسه ، وقدرته من لوازم ذاته ، وكذلك رحمته وعلمه وحكمته ، لا يحتاج إلى خلقه بوجه من الوجوه ، بل الكل هو المحتاج إليه فى كل شىء ، وهو الغنى الحميد :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ ، واللهُ هُوَ الغَنِيُّ الحميد ، إنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ »(٣) .

« وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِيٌّ كَرِيم »(٤) .

---

(١) فاطر : ٣
(٢) الملك : ٢٠ ، ٢١
(٣) فاطر : ١٥ — ١٧
(٤) النمل : ٤٠

فهو سبحانه هو الغنى بنفسه ، وما يستحقه من صفات الكمال ، ثابت له بنفسه ، واجب له من لوازم ذاته ، لا يفتقر فى شىء من ذلك إلى غيره ، ففعله وإحسانه وجوده مع كماله لا يفعل شيئا لحاجة إلى غيره بوجه من الوجوه ، بل كل ما يريده فعله ، فإنه فعال لما يريد ، وهو سبحانه بالغ أمره ، وكل ما يطلب فهو يبلغه وبناله ، ويصل إليه وحده لا يعينه أحد ، ولا يعوقه أحد ، ولا يحتاج فى شىء من أموره إلى معين ، وما له من المخلوقين من ظهير ، وليس له ولىّ من الذل ، بل هو الكبير المتعال ، يفعل ما يشاء ويختار ، والأمر له وحده ، فهو الواحد القهار .

وغير هذا كثير من وسائل التوحيد الذى لا يتسع المقام هنا لسردها ، والتى نرجو الله تعالى أن يوفقنا لتوضيحها فى هذا السِّفر الذى نحن الآن بصدده .

وبعد : فقد ذكر الإمام الرازى رضى الله عنه قال :

« كان الرجل قبل الفرائض إذا شهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، ثم مات على ذلك ، وجَبَت له الجنة ، فأنزل الله تعالى :

« لَيْسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ والمَلَائِكَةِ والكِتَابِ والنَّبِيِّينَ ، وَآتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى القُرْبَى واليَتَامَى والمَسَاكِينَ وابْنَ السَّبِيلِ ، والسَّائِلِينَ وَفِى الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إذَا عَاهَدُوا والصَّابِرِينَ فِى البَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأْسِ . أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ، وَأُولَئِكَ هُمُ المُتَّقُون »[1] .

والله تبارك وتعالى اعتبر فى تحقق ماهية البر أموراً :

الأول : الإيمان بالله تعالى ، ولن يحصل العلم بالله إلا عند العلم بذاته المخصوصة ، والعلم بما يجب له ، وما يجوز فى حقه ، وما يستحيل عليه .

---

(١) البقرة آية ١٧٧

ولن يحصل العلم بهذه الأمور ، إلا عند العلم بالدلالة الدالة عليها ، فيدخل فيه العلم بحدوث العالم ، والعلم بالأصول التى عليها يتفرع حدوث العالم .

ويدخل فى العلم بما يجب له من الصفات : العلم بوجوده ، وقدمه ، وبقائه ، وكونه عالما بكل المعلومات ، قادرا على كل الممكنات ، حيًّا ، مريدا ، سميعا ، بصيرا ، متكلما .

ويدخل فى العلم بما يجوز فى حقه ، اقتداره سبحانه على الخلق والإيجاد ، وبعثة الرسل .

ويدخل فى العلم بما يستحيل عليه ، العلم بكونه منزها عن الحالية ، والمحلية ، والتحيز والعرضية ، وكل ما يؤدى إلى نقص .

الثانى :الإيمان باليوم الآخر ، وهذا الإيمان مفرَّع على الأول ، لأنه ما لم يعلم كونه تعالى عالما بجميع المعلومات ، ولم يعلم قدرته على جميع الممكنات ، كذلك لا يمكننا أن نعلم صحة الحشر والنشر .

الثالث : الإيمان بالملائكة الأطهار ، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

الرابع : الإيمان بالكتب المنزَّلة كما أوحى الله بها إلى رسله .

الخامس : الإيمان بالرسل المرسلة صلوات الله وسلامه عليهم .

ثم يعلِّق الفخر الرازى على آية البر تعليقا نفيسا يقول فيه :

« والذى عندنا أنه أشار سبحانه ، إلى السفهاء الذين طعنوا فى المسلمين وقالوا : ما وَلَّاهُم عن قِبلَتِهِم التى كانوا عليها ؟ مع أن اليهود كانوا يستقبلون المغرب ، والنصارى كانوا يستقبلون المشرق ، فقال الله تعالى :

إن صفة البر لا تحصل بمجرد استقبال المشرق والمغرب ، بل إن البر لا يحصل إلا عند مجموع أمور :

أحدها : الإيمان بالله سبحانه وأهل الكتاب خلّوا بذلك :

أما اليهود فقولهم : بالتجسيم ، ولقولهم : بأن عزيراً ابن الله .

وأما النصارى فقولهم : المسيح ابن الله ؛ ولأن اليهود وصفوا الله تعالى بالبخل ، على ما حكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله : « قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء »[١] .

وثانيها : الإيمان باليوم الآخر : واليهود أخلُّوا بهذا الإيمان حيث قالوا : « وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى »[٢] .

وقالوا : « لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً »[٣] .

والنصارى أنكروا المعاد الجسمانى ، وكل ذلك تكذيب باليوم الآخر .

وثالثها : الإيمان بالملائكة ، واليهود أخلُّوا بذلك ، حيث أظهروا عداوة جبريل عليه السلام .

ورابعها : الإيمان بكتب الله : واليهود والنصارى قد أخلُّوا بذلك ؛ لأن مع قيام الدلالة على أن القرآن كتاب الله ردوه ولم يقبلوه قال تعالى :

« وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ، أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ »[٤] .

وخامسها : الإيمان بالنبيين : واليهود أخلوا بذلك ، حيث قتلوا الأنبياء ، على ما قال تعالى :

« وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحَقِّ »[٥] .

وحيث طعنوا فى نبوة سيدنا محمد ﷺ .

وسادسها : بذل الأموال على وفق أمر الله سبحانه وتعالى : واليهود أخلوا بذلك ، لأنهم يلقون الشبهات لطلب المال القليل ، كما قال سبحانه :

---

(١) آل عمران : ١٨١ (٢) البقرة : ١١١ (٣) البقرة : ٨٠
(٤) البقرة : ٨٥ (٥) البقرة : ٦١

« وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ »(١)

وسابعها : إقامة الصلوات والزكوات : واليهود كانوا يمنعون الناس منها .

وثامنها : الوفاء بالعهد : واليهود نقضوا العهد حيث قال :

«يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ، وَأَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُم وَإِيَّاىَ فَارْهَبُون »(٢) .

وحيث قال :

« ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ »(٣) .

وهذا حق من غير شك لا مرية فيه ، ولا جدال معه ، خاصة وأن الإمام الرازى رحمه الله تعالى ، تناول تفصيل القول بالأدلة القرآنية القاطعة التى تفرض على السامع ، أو القارىء ، أو الباحث ، بداهة منذ قراءتها الإقناع والتسليم .

ولهذا فسَّر المفسرون قوله تعالى : «غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيهِم » باليهود « وَلَا الضَّالِّينَ » بالنصارى ، مع تلازم وصفَى الغضب والضلال ، على أن هذا ليس بتخصيص يقتضى نفى كل صفة عن أصحاب الصفة الأخرى ، فإن كل مغضوب عليه ضال ، وكل ضال مغضوب عليه ، لكن ذكر كل طائفة بأشهر أوصافها وأحقها به ، وألصقه بها ، وإن ذلك هو الوصف الغالب عليهما ، وهذا مطابق لوصف الله اليهود بالغضب فى القرآن الكريم ، والنصارى بالضلال ، فهو تفسير للآية بالصفة التى وصفهم بها فى ذلك الموضع .

أما اليهود فقد قال الله تعالى فى حقهم :

« بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُم أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِين »(٤) .

---

(١) آل عمران : ١٨٧ (٢) البقرة : ٤٠ (٣) الأنفال : ٥٦ (٤) البقرة : ٩٠

وفى تكرار الغضب هنا أقوال :

أحدها أنه غضب متكرر فى مقابلة تكرر كفرهم برسول الله ﷺ ، والبغى عليه ومحاربته ، فاستحقوا بكفرهم غضبا ، وبالبغى والحرب والصد عنه استحقوا غضبا آخر ونظيره قوله تعالى :

« الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ العَذَابِ »(1) .

فالعذاب الأول استحقوه بكفرهم ، والعذاب الذى زادهم إياه استحقوه بصدِّهم عن سبيله .

القول الثانى : إن الغضب الأول : استحقوه بتحريفهم وتبديلهم وقتلهم الأنبياء ، والغضب الثانى استحقوه بكفرهم بالمسيح عليه السلام .

والقول الثالث : إن الغضب الأول استحقوه بكفرهم بالمسيح ، والغضب الثانى استحقوه بكفرهم بسيدنا محمد ﷺ ، والصحيح المراد فى الآية أن التكرار هنا ليس المراد به التثنية التى تشفع الواحد ، بل المراد غضب بعد غضب بحسب تكرر كفرهم ، وإفسادهم ، وقتلهم الأنبياء ، وكفرهم بالمسيح ، وبسيدنا محمد ﷺ ، ومعاداتهم لرسل الله تعالى ، إلى غير ذلك من الأعمال التى كل منها يقتضى غضبا على حدته ، وهذا كما فى قوله تعالى :

(فَارْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُور ، ثُمَّ ارْجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ)(2) .

أى كَرَّة بعد كرة لا مرتين فقط ، وقصد التعدد فى قوله (فباءوابغضب على غضب) أظهر .

ولا ريب أن تعطيلهم ما عطلوه من شرائع التوراة ، وتحريفهم وتبديلهم يستدعى غضبا ، وتكذيبهم الأنبياء يستدعى غضبا آخر ، وقتلهم إياهم يستدعى غضبا آخر ، وتكذيبهم المسيح عليه السلام ، وطلبهم قتله ، ورميهم أمهُ بالبهتان العظيم يستدعى غضبا ، وتكذيبهم النبى ﷺ ، يستدعى

---

(1) النحل : ٨٨ (2) الملك : ٣ ، ٤

غضبا ، ومحاربتهم له وأذاهم لأتباعه يقتضي غضبا ، وصدّهم من أراد الدخول فى دينه عنه ، يقتضى غضبا ، فهم الأمة الغضبية التى باءت بالغضب المضاعف المتكرر ، وكانوا أحق بهذا الاسم والوصف من النصارى يقول سبحانه فى شأنهم :

(قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَن لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُم القِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ)[1] .

فهذا غضب مشفوع باللعنة والمسخ ، وهو أشد ما يكون من الغضب .

قال تعالى :

(لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ، كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ، تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَمَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِى العَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ)[2] .

وأما وصف النصارى بالضلال فى قوله تعالى :

(قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِى دِينِكُمْ غَيْرَ الحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ)[3] .

فهذا خطاب للنصارى لأنه فى سياق خطابه معهم بقوله تعالى :

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، وَقَالَ المَسِيحُ يَابَنِى إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّى وَرَبَّكُم إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيهِ الجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ، لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِن إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ، وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنهُم

---

(١) المائدة : ٦٠ (٢) المائدة : ٧٨ — ٨٠ (٣) المائدة ٧٧ .

عَذَابٌ أَلِيمٌ ، أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ، مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُون ، قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ، قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾(١) .

فوصفهم بأنهم قد ضلوا أولا ، ثم أضلوا كثيرا هم وأتباعهم ، فهذا قبل مبعث النبى ﷺ ، حيث ضلوا فى أمر المسيح عليه السلام ، وأضلوا أتباعهم ، فلما بعث الله تبارك وتعالى سيدنا محمد ﷺ ، ازدادوا ضلالا آخر بتكذيبهم له ، وكفرهم به ، فتضاعف الضلال فى حقهم .

وشأنهم هذا هو شأن أسلافهم ، الذين هم لهم تبع ، فوصفهم الله سبحانه بثلاث صفات :

أحدها : أنهم قد ضلوا من قبلهم .

الثانى : أنهم أضلوا أتباعهم .

الثالث : أنهم ضلوا عن سواء السبيل .

فهذه صفات لهم ولأسلافهم الذين نهى هؤلاء عن اتباع أهوائهم ، فلا يصح أن يكون وصفا للموجودين فى زمن النبى ﷺ ، لأنهم هم المنهيون أنفسهم ، المنهى عنهم .

وإنما سر الآية أنها اقتضت تكرار الضلال فى النصارى ، ضلالا بعد ضلال ، لفرط جهلهم بالحق ، وهى نظير الآية التى تقدمت فى تكرار الغضب فى حق اليهود ، ولهذا كان النصارى أخص بالضلال من اليهود .

---

(١) المائدة : ٧٢ — ٧٧

ووجه تكرار هذا الضلال ، أن الضلال قد أخطأ نفس مقصوده فيكون ضالا فيه فيقصد ما لا ينبغى أن يقصده ويعبد من لا ينبغى أن يعبده ، وقد يصيب مقصودا حقا لكن يضل فى طريق طلبه والسبيل الموصلة إليه ، فالأول ضلال فى الغاية ، والثانى ضلال فى الوسيلة ، ثم إذا دعا غيره إلى ذلك فقد أضله .

وأسلاف النصارى اجتمعت لهم الأنواع الثلاثة فضلوا عن مقصودهم حيث لم يصيبوه ، وزعموا أن إلههم بشر يأكل ويشرب ويبكى ، وأنه قتل وصلب وصفع ، فهذا ضلال فى نفس المقصود ، حيث لم يظفروا به وضلوا عن السبيل الموصلة إليه ، فلا اهتدوا إلى المطلوب ولا إلى الطريق الموصل إليه ، ودعوا أتباعهم إلى ذلك فضلوا عن الحق وعن طريقه وأضلوا كثيرا ، فكانوا أدخل فى الضلال من اليهود ، فوصفوا بأخص الوصفين .

والذى يحقق ذلك أن اليهود إنما أتوا من فساد الإرادة والحسد ، وإيثار ما كان لهم على قومهم من السحت والرياسة ، فخافوا أن يذهب بالإسلام ، فلم يؤتوا من عدم العلم بالحق ، فإنهم كانوا يعرفون أن سيدنا محمدا رسول الله ﷺ كما يعرفون آباءهم ، ولهذا لم يوبخهم الله تعالى ولم يقرعهم إلا بإرادتهم الفاسدة من الكبر والحسد ، وإيثار السحت والبغى وقتل الأنبياء بغير الحق .

ووبخ النصارى كذلك بالضلال والجهل ، الذى هو عدم العلم بالحق ، فإن الشقاء بالكفر ينشأ من عدم معرفة الحق تارة ، ومن عدم إرادته والعمل بها أخرى .

فكفر اليهود نشأ من عدم إرادة الحق والعمل به ، وإيثار غيره بعد معرفته لم يكن ضلالا محضا .

وكفر النصارى نشأ من جهلهم بالحق وضلالهم فيه ، فإذا تبين لهم وآثروا الباطل عليه أشبهوا الأمة الغضبية وبقوا مغضوبا عليهم ضالين .

ثم لما كان الهدى والفلاح والسعادة ، لا سبيل إلى نيله إلا بمعرفة الحق وإيثاره على غيره ، وكان الجهل يمنع العبد من معرفته بالحق ، والبغى يمنعه من إرادته ، كان العبد أحوج شيء إلى أن يسأل الله تعالى كل وقت أن يهديه الصراط المستقيم ، تعريفا وبيانا وإرشادا وإلهاما وتوفيقا وإعانة ، فيعلمه ويعرفه ، ثم يجعله مريدا له ، قاصدا لاتباعه ، فيخرج بذلك عن طريقة المغضوب عليهم ، الذين عدلوا عنه على عمد وعلم ، والضالين الذين عدلوا عنه عن جهل وضلال .

ولهذا كان أهل السلف رضى الله عنهم يقولون :

« من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبَّادنا ففيه شبه من النصارى » .

ذلك أن من فسد من العلماء فاستعمل أخلاق اليهود من : تحريف الكلم عن مواضعه ، وكتمان ما أنزل الله إذا كان فيه فوات غرضه ، وحسد من آتاه الله تعالى من فضله ، وطلب قتله ، وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس ، ويدعونهم إلى كتاب ربهم وسنَّة نبيهم ، إلى غير ذلك من الأخلاق التى ذم بها اليهود ، من الكفر والكتمان والتحريف والتحيُّل على المحارم ، وتلبيس الحق بالباطل ،فهذا شبهه باليهود ظاهر .

وأما من فسد من العبَّاد ، فعبد الله تعالى بمقتضى هواه لا بما بعث به رسوله ﷺ ، وغلا فى الشيوخ فأنزلهم منزلة الربوبية ، وتجوز ذلك إلى نوع من الحلول أو الاتحاد فشبهه بالنصارى ظاهر .

فعلى المسلم أن يبعد عن هذين الشبهين غاية البعد .

وفى رحاب رد القرآن الكريم على شبه اليهود المعاندين ، والنصارى المارقين ، والكافرين المنكرين ، كان موضوع هذا الكتاب « التوحيد مفتاح دعوة الرسل » .

والله نسأل أن يهدينا إلى الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .

كما نسأله سبحانه أن يلهمنا الصدق والصواب ، وأن يكتب لهذا الجهد المتواضع التوفيق ، والرشاد ، وأن يوجِّه إليه القلوب والقبول ، إنه حسبنا ونعم الوكيل ، ومن يعتصم بالله فقد هُدِىَ إلى صراط مستقيم .

وبالله التوفيق ؟

البـاب الأول

* شهد الله أنه لا إلـه إلا هو

* قائمـــــــا بالـــــــقسط

* لا إلـه إلا هو العزيـز الحكيـم



الفصــل الأول

« شهد الله أنه لا إلٰه إلا هو »



شهد الله أنه لا إلـٰه إلا هو

يقول الله تبارك وتعالى :

(شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَالمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ)(١) .

بهذه الآية القرآنية الكريمة أعلمنا الله سبحانه وتعالى ، بأنه شهد لنفسه بالتوحيد ، وكذلك الملائكة ، بل وأولوا العلم .

وشهادة الله تعالى على توحيده عبارة عن أنه سبحانه ، خلق الدلائـل والآيات الدالة على توحيده ، وشهادة الملائكة ، وشهادة أولى العلم عبارة عن إقرارهم بذلك .

ولما كان كل واحد من هذين الأمرين يسمى شهادة ، لم يبعد أن يجمع بين الكل في اللفظ ، ونظير ذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

(إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)(٢) .

ومعلوم أن الصلاة من الله تعالى على النبي ﷺ ، غير الصلاة عليه من الملائكة ، والصلاة عليه من الملائكة ، غير الصلاة عليه من الناس ، مع أن الله سبحانه وتعالى قد جمعهم في اللفظ .

والشاهد الحقيقي ليس إلا الله سبحانه ، لأنه تعالى هو الذى خلق الأشياء وجعلها دلائل على توحيده ، ولولا تلك الدلائل لما صحت الشهادة .

ثم بعد أن نصب الله تبارك وتعالى تلك الدلائل وأقامها ، وفّق العلماء لمعرفة تلك الدلائل ، ولولا تلك الدلائل التى نصبها الله تعالى وهدى إليها ، لعجزوا عن التوصل بها إلى معرفة الوحدانية ، ثم بعد حصول العلم بالوحدانية ، الله تعالى وحده هو الذى وفّقهم وأعانهم حتى أرشدوا غيرهم إلى معرفة التوحيد .

---

(١) آل عمران : ١٨ (٢) الأحزاب : ٥٦

وإذا كان الأمر كذلك ، كان الشاهد على الوحدانية ليس إلا الله وحده ، ولهذا قال سبحانه :

(قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ؟ قُلِ اللهُ)[1] .

ومفهوم الشهادة عبارة عن الإظهار والبيان ، فإن الله تعالى هو الذى أظهر ذلك وبيَّنه بل وخلق ما يدل على ذلك .

أما الملائكة ، وأولوا العلم ، فقد أظهروا ذلك وبيَّنوه بتقرير الدلائل والبراهين .

أما الملائكة فقد بيَّنوا ذلك للرسل عليهم الصلاة والسلام ، والرسل بيَّنوا ذلك للعلماء ، والعلماء بينوا ذلك لعامة الخلق ، فالتفاوت إنما وقع فى الشىء الذى به حصل الإظهار والبيان ، فالمفهوم الإظهار والبيان ، فهو مفهوم واحد فى حق الله سبحانه وتعالى ، وفى حق أولى العلم .

فظهر على ضوء هذا أن المفهوم من الشهادة واحد وكأن المقصود من ذلك : أنه يقول للرسول ﷺ ، إن وحدانية الله تعالى أمر قد ثبت بشهادة الله تعالى ، وشهادة جميع المعتبرين من خلقه ، ومثل هذا الدين المتين ، والمنهج القويم ، لا يضعف ، بخلاف بعض الجهَّال من النصارى ، وعبَّاد الأوثان ، فاثبت يا محمد ومن معك على ذلك ، فإنه هو الإسلام ، وإن الدين عند الله الإسلام .

ومعنى التوحيد : تنزيه الله عز وجل عن الحدث والشبيه والنظير ، وقد نطق العلماء بما نطقوا به ، وأشار المحققون بما أشاروا إليه فى هذا الطريق : لقصد تصحيح التوحيد ، أما ما سوى ذلك من حال أو مقام فهو مصحوب بالعلل والمسببات .

أما التوحيد فهو أول دعوة الرسل ، وأول منازل الطريق ، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله سبحانه .

---

(١) الأنعام : ١٩

قال الله تعالى : (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ، فَقَالَ : يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ، مَا لَكُمْ مِن إِلَـٰهٍ غَيْرُه)[١] .

وقال هود لقومه : (اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِن إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ)[٢] .

وقال صالح لقومه : (اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ)[٣] .

وقال شعيب لقومه : (اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ)[٤] .

وقال الله تعالى : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا : أَنِ اعْبُدُوا اللهَ واجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)[٥] .

فالتوحيد : مفتاح دعوة الرسل ، ولهذا قال النبى ﷺ لرسوله معاذ بن جبل رضى الله عنه وقد بعثه إلى اليمن :

« إنك تأتى قوما أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه : عبادة الله وحده ، فإذا شهدوا أن لا إلـٰهَ إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى اليوم والليلة » .

وقال صلوات الله وسلامه عليه فيما رواه أبو هريرة وأخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما :

« أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله » .

لهذا كان الصحيح : أن أول واجب يجب على المكلف : شهادة أن لا إله إلا الله ، لا النظر ، ولا القصد إلى النظر .

ذلك أن التوحيد هو أول ما يدخل به العبد فى الإسلام ، وآخر ما يخرج به من الدنيا . يقول صلوات الله وسلامه عليه :

« من كان آخر كلامه لا إلـٰه إلا الله : دخل الجنة » .

فهو أول واجب وآخر واجب ، وهو أول الأمر وآخره .

---

(١) الأعراف : ٥٩ (٢) هود : ٥٠ (٣) هود : ٦١
(٤) هود : ٨٤ (٥) النحل : ٣٦

وتنزيه الله سبحانه وتعالى عن الحدث ، هذا الحد لا يدل على التوحيد الذى بعث الله به رسله ، وأنزل به كتبه ، وينجو به العبد من النار ، ويدخل به الجنة ، ويخرج من الشرك ، فإنه مشترك بين جميع الفرق ، وكل من أقرَّ بوجود الخالق سبحانه أقر به ، فعبَّاد الأصنام ، والمجوس ، والنصارى ، واليهود ، والمشركون — على اختلاف نحلهم ومللهم — كلهم ينزهون الله سبحانه عن الحدث ، ويثبِتون قِدَمه ، حتى أعظم الطوائف على الإطلاق شركا ، وكفرا ، وإلحادا وهم طائفة الاتحادية ، فإنهم يقولون :

هو الوجود المطلق ، وهو قديم لم يزل ، وهو منزَّه عن الحدث ، ولم تزل المحدثات تكتسى وجوده ، تلبسه وتخلعه . والفلاسفة — الذين هم أبعد الخلق عن الشرائع وما جاءت به الأنبياء — يثبتون أنه سبحانه واجب الوجود قديما منزها عن الحدث .

والمشركون — عبَّاد الأصنام الذين يعبدون معه آلهة أخرى — يثبتون قديماً منزها عن الحدث .

فالتنزيه عن الحدث حق ، لكن لا يعطى إسلاماً ولا إيمانا ، ولا يدخل فى شرائع الأنبياء ، ولا يخرج من نِحل أهل الكفر ومللهم .

ومع هذا فقد سئل سيد الطائفة الجنيد ، رضى الله عنه عن التوحيد ؟ فقال :

هو إفراد القديم عن المحدث .

فالجنيد بقوله واعتقاده الصحيح هذا ، أشار إلى أنه لا تصح دعوى التوحيد ، ولا مقامه ولا حاله ، ولا يكون العبد موحداً إلا إذا أفرد القديم عن المحدث ، فإن كثيرا ممن ادعى التوحيد لم يفرده سبحانه عن المحدثات ، فإن من نفى مباينته لخلقه فوق سماواته على عرشه ، وجعله فى كل مكان بذاته : لم يفرده عن المحدث ، بل جعله حالاً فى المحدثات مخالفا لها ، موجودا فيها بذاته ، وصوفية هؤلاء وعبَّادهم : هم الحلولية ، الذين يقولون :

إن الله عز وجل يحل بذاته فى المخلوقات . وهم طائفتان : طائفة تعم الموجودات بحلوله فيها ، وطائفة تخص به بعضها دون بعض .

قال الأشعرى فى كتاب المقالات :

هذه حكاية قول قوم من النسَّاك ، وفى الأمة قد ينتحلون النسك ، يزعمون أنه جائز على الله تعالى الحلول فى الأجسام ، وإذا رأوا شيئا يستحسنونه قالوا : لا ندرى ، لعله ربنا .

وهذه الفرقة طائفتان ، إحداهما : تزعم أنه سبحانه يحل فى الصورة الجميلة المستحسنة .

والثانية : تزعم أن الله سبحانه يحل فى الكُمَّل من الناس ، وهم الذين تجردت نفوسهم عن الشهوات واتصفوا بالفضائل ، وتنزهوا عن الرذائل .

والنصارى تزعم أنه حلَّ فى بدن المسيح وتدرَّع به .

والاتحادية تزعم أنه مطلق اكتسته الماهيات ، فهو عين وجودها »اهـ .

فكل هؤلاء لم يفردوا القديم عن المحدث .

وهذا الإفراد — الذى أشار إليه الإمام الجنيد رضى الله عنه — نوعان :

أحدهما : إفراد فى الاعتقاد والخبر ، وذلك نوعان أيضا :

أحدهما : إثبات مباينة الله تعالى للمخلوقات ، وعلوّه فوق عرشه من فوق سبع سماوات ، كما نطقت به الكتب الإلهية من أولها إلى آخرها ، وأخبرت به جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم .

والثانى : إفراده سبحانه بصفات كماله وإثباتها له على وجه التفصيل ، كما أثبتها لنفسه ، وأثبتها له رسله ، منزهة عن التعطيل والتحريف والتمثيل ، والتكييف والتشبيه ، بل تثبت له سبحانه حقائق الأسماء والصفات ، وتنفى عنه فيها مماثلة المخلوقات ، إثبات بلا تمثيل ، وتنزيه بلا تحريف ولا تعطيل :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[1] .

---

(١) الشورى : ١١ .

وفى هذا النوع يكون إفراده سبحانه بعموم قضائه وقدره لجميع المخلوقات — أعيانها وصفاتها وأفعالها — وأنها كلها واقعة بمشيئته وقدرته ، وعلمه وحكمته .

فيباين صاحب هذا الإفراد ، سائر فرق أهل الباطل : من الاتحادية . والحلولية ، والجهمية ، والفرعونية الذين يقولون : ليس فوق السماوات رب يعبد ، ولا على العرش إلٰه يصلَّى له ويُسجَد .

والقدرية الذين يقولون : إن الله لا يقدر على أفعال العباد ، من الملائكة والإنس والجن ، ولا على أفعال سائر الحيوانات ، بل يقع فى ملكه ما لا يريد ، ويريد ما لا يكون ، فيريد شيئا لا يكون ، ويكون شيء بغير إرادته ومشيئته ، وتعالى الله عن ذلك :

(كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا)[1] .

والنوع الثانى من الإفراد : إفراد القديم عن المحدث بالعبادة ، من التأله والحب والخوف والرجاء والتعظيم ، والإنابة ، والتوكل ، والاستعانة ، وابتغاء الوسيلة إليه ، فهذا الإفراد ، وذلك الإفراد : بهما بعثت الرسل ، وأنزلت الكتب ، وشرعت الشرائع ، ولأجل ذلك خلقت السماوات والأرض ، والجنة والنار ، وقام سوق الثواب والعقاب .

فتفريد القديم سبحانه عن المحدث ، فى ذاته وصفاته وأفعاله ، وفى إرادته وحده ، ومحبته وخوفه ورجائه ، والتوكل عليه والاستعانة به ، والتوبة إليه ، والسجود له ، والتعظيم والإجلال لعظمته سبحانه ، وتوابع ذلك .

ولذلك كانت عبارة الإمام الجنيد عن التوحيد عبارة سداد وتوفيق .

فإن أراد العبد ما أراد أبو القاسم ، فلا إشكال ، وإن أراد أن ينزه الله سبحانه عن قيام الأفعال الاختيارية به ، التى يسميها نفاة أفعاله : حلول الحوادث ، ويجعلون تنزيه الله تعالى عنها من كمال التوحيد ، بل هو أصل التوحيد عندهم ، فكأنه قال : التوحيد تنزيه الله تعالى عن حلول الحوادث .

---

(١) الكهف : ٥

وحقيقة ذلك : أن التوحيد ، عندهم ، تعطيله عن أفعاله ونفيها بالكلية ، وأنه لا يفعل شيئا ، فإن إثبات فاعل من غير فعل يقوم به ، محال فى العقول والفطر ولغات الأمم ، ولا يثبت كونه سبحانه ربًّا للعالم مع نفى ذلك أبدا ، فإن قيام الأفعال به هو محض الربوبية وحقيقتها ، ونافِى هذه المسألة نافٍ لأصل الربوبية جاحد لها رأسا .

وإن أراد تنزيه الله تعالى عن سمات المحدثين ، وخصائص المخلوقين : فهو حق ، ولكنه تقصير فى التعبير عن التوحيد ، فإن إثبات الكمال أصل التوحيد ، ومن تمام هذا الإثبات : تنزيهه سبحانه عن سمات المحدثين ، وخصائص المخلوقين ، وقد استدرك عليه الاتحادى فى هذا الحد ، فقال :

« شهود التوحيد يرفع الحدوث أصلا ورأسا ، فلا يكون هناك وجودان ، قديم ومحدث :

فالتوحيد : هو أن لا يرى مع الوجود المطلق سواه » اهـ .

غير أن هذه الطوائف قسّمت « التوحيد » وكل طائفة منها سمّت باطلهم توحيدا :

فأتباع أرسطو ، وابن سينا ، والنصير الطوسى ، عندهم التوحيد : إثبات وجود مجرد عن الماهية والصفة ، بل هو وجود مطلق ، لا يعرض لشىء من الماهيات ، ولا يقوم به وصف ، ولا يتخصص بنعت .

فتوحيد هؤلاء : هو غاية الإلحاد والجحد ، بل والكفر أيضا .

وفروع هذا التوحيد : إنكار ذات الله ، والقول بقدم الأفلاك ، وأن الله لا يبعث من فى القبور ، وأن النبوة مكتسبة ، وأنها حرفة من الحرف ، كالولاية والسياسة ، وأن الله لا يعلم عدد الأفلاك ولا الكواكب ، ولا يعلم شيئا من الموجودات المعينة ، وأنه لا يقدر على قلب شىء من أعيان العالم ، ولا شق الأفلاك ولا خرقها ، وأنه : لا حلال ولا حرام ولا أمر ولا نهى ، ولا جنة ولا نار ، فهذا توحيد هؤلاء .

وأما الاتحادية ، فالتوحيد عندهم : أن الحق المنزه هو عين الخلق المشبه ، وأنه سبحانه هو عين وجود كل موجود ، وحقيقته وماهيته ، وأنه آية كل شيء ، وله فيه آية تدل على أنه عينه ، وهذا عند محققيهم من خطأ التعبير ، بل هو نفس الآية ونفس الدليل ، ونفس المستدل ، ونفس المستدل عليه .

فالتعدد : بوجود اعتبارات وهمية ، لا بالحقيقة والوجود ، فهو عندهم عين الناكح وعين المنكوح ، وعين الذابح وعين المذبوح ، وعين الآكل وعين المأكول ، وهذا عندهم : هو السر الذى رمزت إليه هوامس الدهور الأولية ، ورامت إفادته الهداية النبوية .

ومن فروع هذا التوحيد : أن فرعون وقومه مؤمنون كاملو الإيمان ، عارفون بالله على الحقيقة .

ومن فروعه : أن عبَّاد الأصنام على الحق والصواب ، وأنهم إنما عبدوا عين الله سبحانه لا غيره .

ومن فروعه أن الحق عندهم أنه لا فرق فى التحريم والتحليل بين الأم والأخت والأجنبية ، ولا فرق بين الماء والخمر ، والزنا والنكاح ، الكل من عين واحدة ، بل هو العين الواحدة ، وإنما المحجوبون عن هذا السر ، قالوا : هذا حرام وهذا حلال ، نعم هو حرام عليكم ، لأنكم فى حجاب عن حقيقة هذا التوحيد .

ومن فروعه : أن الأنبياء ضيقوا الطريق على الناس ، وبعَّدوا عليهم المقصود ، والأمر وراء ما جاءوا به ، ودعوا إليه .

وأما الجهمية ، فالتوحيد عندهم : إنكار علوِّ الله على خلقه بذاته ، واستوائه على عرشه ، وإنكار سمعه وبصره ، وقوته وحياته ، وكلامه وصفاته ، وفعاله ومحبته ، ومحبة العبادله سبحانه .

فالتوحيد عندهم : هو المبالغة فى إنكار التوحيد الذى بعث الله به رسله ، وأنزل به كتبه .

وأما القدرية فالتوحيد عندهم : هو إنكار قدرة الله سبحانه ، وعموم مشيئته

للكائنات ، وقدرته عليها ، ومتأخروهم ضموا إلى ذلك : توحيد الجهمية ، فصار حقيقة التوحيد عندهم : إنكار القدَر ، وإنكار حقائق الأسماء الحسنى ، والصفات العلَى ، وربما سموا إنكار القدر ، والكفر بقضاء الله وقدره : عدلاً وقالوا : نحن أهل العدل والتوحيد .

وأما الجبرية فالتوحيد عندهم : هو تفرد الله تعالى بالخلق والفعل ، وأن العباد غير فاعلين على الحقيقة ، ولا محدثين لأفعالهم ، ولا قادرين عليها ، وأن الله تعالى لم يفعل لحكمة ، ولا غاية تطلب بالفعل ، وليس فى المخلوقات قوى وطبائع وغرائز وأسباب ، بل ما ثم إلا بمشيئة محضة ترجح بغير مرجح ولا حكمة ولا سبب .

وأما صاحب المنازل ، ومن سلك سبيله ، فالتوحيد عندهم : نوعان :

أحدهما غير موجود ولا ممكن ، وهو توحيد العبد ربه .

والثانى : توحيد صحيح ، وهو توحيد الله لنفسه ، وكل ما ينعته سواه فهو ملحد ، فهذا توحيد الطوائف .

أما التوحيد الذى دعت إليه رسل الله تعالى ، ونزلت به الكتب : فوراء ذلك كله وهو نوعان :

توحيد فى المعرفة والإثبات ، وتوحيد فى المطلوب والقصد .

فالأول : هو حقيقة ذات الله تعالى ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، وعلوه فوق سماواته على عرشه ، وتكلمه بكتبه ، وتكليمه لمن شاء من عباده ، وإثبات عموم قضائه وقدره وحكمه ، وقد أفصح القرآن الكريم عن هذا النوع ، كما فى أول سورة الحديد ، وسورة طه ، وآخر سورة الحشر ، وأول سورة السجدة ، وأول سورة آل عمران ، وسورة الإخلاص بكمالها ، وغير ذلك مما ورد فى القرآن الكريم .

النوع الثانى : مثل ما تضمنته سورة (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ) .

وقوله سبحانه :

(قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِن دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)[١] .

وأول سورة : تنزيل الكتاب[٢] وآخرها ، وأول سورة يونس ، ووسطها ، وآخرها ، وأول سورة الأعراف وآخرها ، وجملة سورة الأنعام ، وغالب سور القرآن الكريم ، بل كل سورة فى القرآن الكريم ، فهى متضمنة لنوعى التوحيد .

بل إن كل آية فى القرآن الكريم متضمنة للتوحيد ، شاهدة له ، داعية إليه ، فإن القرآن الكريم :

إما خبر عن الله تعالى ، وأسمائه وصفاته وأفعاله ، فهو التوحيد العلمى الخبرى .

وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له ، وخلع كل ما يعبد من دونه ، فهو التوحيد الإرادى الطلبى .

وإما أمر ونهى ، وإلزام بطاعته فى نهيه وأمره ، فهى حقوق التوحيد ومكملاته .

وإما خبر عن كرامة الله تعالى لأهل توحيده ، وطاعته ، وما فعل بهم فى الدنيا وما يكرمهم به فى الآخرة ، فهو جزاء توحيده .

وإما خبر عن أهل الشرك ، وما فعل بهم فى الدنيا من النكال ، وما حل بهم فى العقبى من العذاب ، فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد .

فالقرآن الكريم كله فى التوحيد وحقوقه وجزائه ، وفى شأن الشرك وأهله وجزائهم :

---

(١) آل عمران : ٦٤

(٢) أى أول سورة غافر ، الجاثية ، الأحقاف .

« الحمد لله » توحيد « رب العالمين » توحيد « الرحمن الرحيم » توحيد . « مالك يوم الدين » توحيد « إياك نعبد » توحيد « وإياك نستعين » توحيد « اهدنا الصراط المستقيم » توحيد ، متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد ، الذين أنعم الله عليهم « غير المغضوب عليهم ولا الضالين » الذين فارقوا التوحيد ، ولذلك شهد الله لنفسه بهذا التوحيد ، وشهد له به ملائكته ، وأنبياؤه ورسله . قال تعالى :

« شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ ، قَائِمًا بِالْقِسْطِ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ »[1] .

فتضمنت هذه الآية الكريمة إثبات حقيقة التوحيد ، والرد على جميع هذه الطوائف ، والشهادة ببطلان أقوالهم ومذاهبهم ، وهذا إنما يتبين بعد فهم الآية ببيان ما تضمنته من المعارف الإلهية والحقائق الإيمانية .

فتضمنت هذه الآية : أجل شهادة ، وأعظمها ، وأعدلها وأصدقها ، من أجل شاهد بأجل مشهود به .

وعبارات السلف فى « شهد » تدور على الحكم والقضاء ، والإعلام والبيان والإخبار ، يقول مجاهد رضى الله عنه : حكم وقضى .

وقال الزجاج : بين . وقالت طائفة : أعلم وأخبر .

وهذه الأقوال كلها حق لا تنافى بينها ، فإن « الشهادة » تتضمن كلام الشاهد وخبره ، وقوله ، وتتضمن إعلامه ، وإخباره وبيانه ، فلها أربع مراتب :

أولها : علم ومعرفة ، واعتقاد لصحة المشهود به وثبوته .

وثانيا : تكلمه بذلك ، ونطقه به ، وإن لم يعلم به غيره ، بل يتكلم به مع نفسه ويذكرها ، وينطق بها أو يكتبها .

وثالثها : أن يعلم غيره بما شهد به ، ويخبره به ، ويبينه له .

ورابعها : أن يلزمه بمضمونها ويأمره به .

---

(١) آل عمران : ١٨ ، ١٩

فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية ، والقيام بالقسط : تضمنت هذه المراتب الأربعة :

علم الله سبحانه بذلك ، وتكلمه به ، وإعلامه وإخباره لخلقه به ، وأمرهم وإلزامهم به .

أما مرتبة العلم : فإن الشهادة بالحق تتضمنها ضرورة ، وإلا كان الشاهد شاهداً بما لا علم له به .

قال تعالى : (إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)[1] .

وقال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في الحديث الصحيح :

« على مثلها فاشهد » وأشار إلى الشمس .

وأما مرتبة التكلم والخبر : فمن تكلم بشيء وأخبر به فقد شهد به ، وإن لم يتلفظ بالشهادة . قال تعالى :

(قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ)[2] .

وقال تعالى : (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ، أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ؟ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ)[3] .

فجعل ذلك منهم شهادة وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة ، ولم يؤدوها عند غيرهم .

وشهادة الزور هي قول الزور ، كما قال تعالى :

(وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ، حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ)[4] .

وعند نزول هذه الآية قال رسول الله ﷺ : « عدلت شهادة الزور الإشراك بالله » .

فسمى قول الزور شهادة ، وسمى الله تعالى إقرار العبد على نفسه شهادة ، قال تعالى :

---

(١) الزخرف : ٨٦
(٢) الأنعام : ١٥٠
(٣) الزخرف : ١٩
(٤) الحج : ٣٠ ، ٣١

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ، وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾[1] .

فشهادة المرء على نفسه : هى إقراره على نفسه .

وفى الحديث الصحيح فى قصة ماعز الأسلمى :

« فلما شهد على نفسه أربع مرات ، رجمه رسول الله ﷺ » .

والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا ، وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾[2] .

وهذا وأضعافه يدل على أن الشاهد عند الحاكم وغيره : لا يشترط فى قبول شهادته أن يتلفظ بالشهادة ، كما هو مذهب مالك وأهل المدينة ، وظاهر كلام أحمد ، ولا يعرف عن واحد من الصحابة والتابعين اشتراط ذلك ، وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما :

« شهد عندى رجال مرضيون ، وأرضاهم عندى عمر ، أن رسول الله ﷺ ، نهى عن الصلاة بعد الصبح ، حتى تطلع الشمس ، وبعد العصر حتى تغرب الشمس » . ومعلوم أنهم لم يتلفظوا بلفظ الشهادة .

والعشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة ، لم يتلفظ فى شهادته لهم بلفظ الشهادة ، بل قال :

« أبو بكر فى الجنة ، وعمر فى الجنة ، وعثمان فى الجنة ، وعلىّ فى الجنة ... الحديث » .

وأجمع المسلمون على أن الكافر إذا قال « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » فقد دخل فى الإسلام ، وشهد شهادة الحق ، ولم يتوقف إسلامه على لفظ الشهادة ، وأنه قد دخل فى قوله : « حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله »

---

(١) النساء : ١٣٥ (٢) الأنعام : ١٣٠

وفى لفظ آخر « حتى يقولوا لا إله إلا الله » .

فدل على أن مجرد قولهم : « لا إله إلا الله » شهادة منهم ، وهذا أكثر من أن تذكر شواهده ، من الكتاب والسنة .

فليس مع من اشترط لفظ الشهادة دليل يعتمد عليه .

وأما مرتبة الإعلام والإخبار فهى على نوعين : إعلام بالقبول ، وإعلام بالفعل ، وهذا شأن كل معلم لغيره بأمر : تارة يعلمه بقوله ، وتارة بفعله ، ولهذا كان من جعل داره مسجدا ، وفتح بابها لكل من دخل إليها ، وأذن بالصلاة فيها : معلما أنها وقف ، وإن لم يتلفظ به ، وكذلك من وجد متقربا إلى غيره : معلما له ولغيره أنه يحبه ، وإن لم يتلفظ بقوله ، وكذلك بالعكس ، وكذلك شهادة الله جل جلاله .

وبيانه وإعلامه سبحانه : يكون بقوله تارة ، وبفعله تارة أخرى .

فالقول : هو ما أرسل به رسله ، وأنزل به كتبه ، أن جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام أخبروا عن الله : أنه شهد لنفسه « بأنه لا إلـٰه إلا هو » وأخبر بذلك ، وأمر عباده أن يشهدوا به ، وشهادته سبحانه « أن لا إلـٰه إلا هو » معلومة من جهة كل من بلغ عنه كلامه .

وأما بيانه وإعلامه بفعله : فهو ما تضمنه خبره تعالى ، من الأدلة الدالة على وحدانيته ، التى تعلم دلالتها بالعقل والفطرة ، وهذا أيضا يستعمل فيه لفظ الشهادة ، كما يستعمل فيه لفظ الدلالة ، والإرشاد والبيان ، فإن الدليل يبين المدلول عليه ويظهره ، كما يبينه الشاهد والمخبر ، بل قد يكون البيان بالفعل أظهر وأبلغ ، وقد يسمى شاهد الحال نطقا وقولا وكلاما ، لقيامه مقامه وأدائه مؤداه .

فهذه شهادة منهم على أنفسهم بما يفعلون من أعمال الكفر وأقواله ، فهى شهادة بكفرهم وهم شاهدون على أنفسهم بما شهدت به .

والمقصود : أن الله سبحانه وتعالى يشهد بما يجعل آياته المخلوقة دالة عليه ، فإن دلالتها إنما هى بخلقه وجعله ، ويشهد بآياته القولية الكلامية

المطابقة لما شهدت به آياته الخلقية ، فتتطابق شهادة القول وشهادة الفعل ، كما قال تعالى :

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقّ)[١] .

فأخبر سبحانه أنه يدل بآياته الأفقية والنفسية على صدق آياته القولية والكلامية ، وهذه الشهادة الفعلية قد ذكرها غير واحد من أئمة العربية والتفسير .

قال ابن كيسان : شهد الله بتدبيره العجيب وأموره المحكمة عند خلقه : أنه لا إله إلا هو .

وأما المرتبة الرابعة : وهى الأمر بذلك والإلزام،وإن كان مجرد الشهادة لا يستلزمه ، لكن الشهادة فى هذا الوضع تدل عليه وتضمنه فإنه سبحانه شهد به شهادة من حكم به وقضى وأمر ، وألزم عباده به ، كما قال تعالى:

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ)[٢] .

وقال تعالى : (وَقَالَ اللهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَـٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ، إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ)[٣]

وقال تعالى : (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)[٤]

وقال تعالى : (وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَـٰهاً آخَرَ)[٥] .

وقال الله سبحانه وتعالى : (وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَـٰهًا آخَرَ)[٦] . والقرآن كله شاهد بذلك .

ووجه استلزام شهادته سبحانه لذلك : أنه إذا شهد أنه لا إلـٰه إلا هو ، فقد أخبر وبيّن ، وحكم وقضى : أن ما سواه ليس بإلـٰه ، وأن إلـٰهية ما سواه أبطل الباطل ، وإثباتها أظلم الظلم ، فلا يستحق العبادة سواه ، كما لا تصلح

---

(١) فصّلت : ٥٣ — (٢) الإسراء : ٢٣ — (٣) النحل : ٥١
(٤) البيّنة : ٥ — (٥) الإسراء : ٣٩ — (٦) القصص : ٨٨

الإلـٰهية لغيره ، وذلك يستلزم الأمر باتخاذه وحده إلـٰها ، والنهى عن اتخاذ غيره معه إلـٰها ، وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفى والإثبات ، كما إذا رأيت رجلا يستفتي أو يستشهد ، أو يستطب من ليس أهلا لذلك ، ويدع من هو له أهل .

وأيضا فإن الأدلة قد دلت على أنه سبحانه وحده المستحق للعبادة ، فإذا أخبر أنه هو وحده المستحق للعبادة تضمن هذا الإخبار : أمر العباد وإلزامهم بما يستحقه الله تعالى عليهم ، وأن القيام بذلك هو خالص حقه عليهم ، فإذا شهد سبحانه أنه « لا إله إلا هو » تضمنت شهادته تعالى بهذا ، شهادة الأمر والإلزام بتوحيده سبحانه وتعالى ..

وبعد : فمجمل القول في هذا الموضوع أن التوحيد مصدر وحّد يوحّد توحيدا ، أي جعله واحدا ، وسمى دين الإسلام توحيدا ، لأن مبناه على أن الله تعالى واحد فى ملكه وأفعاله لا شريك له ، وواحد فى ذاته وصفاته لا نظير له ، وواحد فى إلـٰهيته وعبادته لا ند له .

وإلى هذه الأنواع الثلاثة ينقسم توحيد الأنبياء والمرسلين الذين جاءوا به من عند الله وهى متلازمة ، كل نوع منها لا ينفك عن الآخر ، فمن أتى بنوع منها ولم يأت بالآخر ، فما ذاك إلا أنه لم يأت به على وجه الكمال المطلوب .

وإن شئت قلت : التوحيد نوعان :

توحيد فى المعرفة والإثبات : وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات .

وتوحيد في الطلب والقصد : وهو توحيد الإلـٰهية والعبادة .

والنوع الأول : توحيد الربوبية والملك ، وهو الإقرار بأن الله تعالى رب كل شيء ومالكه ، وخالقه ورازقه وأنه المحيي المميت ، النافع الضار ، المتفرد بإجابة الدعاء عند الاضطرار ، الذى له الأمر كله ، وبيده الخير كله ، القادر على ما يشاء ليس له فى ذلك شريك ، ويدخل فى ذلك الإيمان بالقدر .

وهذا التوحيد لا يكفى العبد فى حصول الإسلام ، بل لا بد أن يأتى مع ذلك بلازمه من توحيد الإلـٰهية ، لأن الله تعالى حكى عن المشركين أنهم مقرّون

بهذا التوحيد لله وحده ، قال تعالى :

(قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ ، وَمَن يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ ، وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ ، فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ)[1] .

وقال تعالى : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَن خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ)[2] .

وقال سبحانه : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَن نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ)[3] .

وقال تعالى : (أَمَّن يُجِيبُ المُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ ، أَإِلَـٰهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُون)[4] .

فهم كانوا يعلمون أن جميع ذلك لله وحده ، ولم يكونوا بذلك مسلمين ، بل قال تعالى :

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ باللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)[5] .

يقول مجاهد رضى الله عنه فى معنى الآية :

« إيمانهم بالله قولهم : إن الله خلقنا ويرزقنا ويميتنا ، فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيره » .

فتبين أن الكفار يعرفون الله تعالى ويعرفون ربوبيته ، وملكه وقهره ، وكانوا مع ذلك يعبدونه ويخلصون له أنواعا من العبادات كالحج والصدقة والدعاء وقت الاضطرار ونحو ذلك ، ويدّعون أنهم على ملّة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فأنزل الله تعالى :

(مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ)[6] .

---

(١) يونس : ٣١ — (٢) الزخرف : ٨٧ — (٣) العنكبوت : ٦٣

(٤) النمل : ٦٢ — (٥) يوسف : ١٠٦ — (٦) آل عمران : ٦٧

فكان بعضهم يؤمن بالبعث والحساب ، وبعضهم يؤمن بالقدر ، ومثل هذا كان يوجد فى عقائدهم .

فوجب على كل من عقل عن الله تعالى أن ينظر ويبحث عن السبب الذى أوجب سفك دمائهم وسبى نسائهم ، وإباحة أموالهم ، مع هذا الإقرار والمعرفة ، وما ذاك إلا لإشراكهم فى توحيد العبادة الذى هو معنى : لا إله إلا الله » .

النوع الثانى : توحيد الأسماء والصفات ، وهو الإقرار بأن الله تعالى بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير، وأنه الحى القيوم ، الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، له المشيئة النافذة ، والحكمة البالغة ، وأنه سميع بصير ، رؤوف رحيم ، على العرش استوى ، وعلى الملك احتوى ، وأنه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار ، المتكبر ، سبحان الله عما يشركون ... إلى غير ذلك من الأسماء الحسنى ، والصفات العلى .

وهذا أيضا لا يكفى فى حصول الإسلام ، بل لا بد مع ذلك من الإتيان بلازمه ، من توحيد الربوبية والإلهية ، والكفار يقرُّون بجنس هذا النوع ، وإن كان بعضهم قد ينكر بعض ذلك ، جهلا وعنادا ، كما قالوا :

« لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة » فأنزل الله فيهم : (وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَـٰنِ)[1] .

ويعلّق الإمام الحافظ ابن كثير فيقول :

« والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جحود وعناد وتعنت فى كفرهم

ولم يعرف عنهم إنكار شيء من هذا التوحيد ، إلا فى اسم الرحمن خاصة ، ولو كانوا ينكرونه لردُّوا على النبى ﷺ ، ذلك ، كما ردوا عليه توحيد الإلـٰهية ، فقالوا : (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَـٰهًا وَاحِدًا ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ)[2] .

لا سيما السورة المكية مملوءة بهذا التوحيد » اهـ .

---

(١) الرعد : ٣٠ (٢) ص : ٥

وتوحيد الإلـٰهية مبنى على إخلاص التألُّه لله تعالى : من المحبة ، والخوف ، والرجاء ، والتوكل ، والرغبة ، والرهبة ، والدعاء لله وحده .

وينبنى على ذلك إخلاص العبادات كلها ظاهرها وباطنها لله وحده لا شريك له ، لا يجعل فيها شيئا لغيره ، لا لملَك مقرب ، ولا لنبىّ مرسل ، فضلا عن غيرهما .

وهذا التوحيد هو الذى تضمنه قوله تعالى : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) .

وقوله تعالى : (فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)[١] .

وقوله سبحانه : (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِىَ اللهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيْمِ)[٢] .

وقوله تعالى : (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا)[٣] .

وقوله سبحانه : (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيْب)[٤] .

وقوله تعالى : (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا)[٥] .

وقوله سبحانه : (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)[٦] .

وهذا التوحيد هو أول الدين وآخره ، وباطنه وظاهره ، وهو أول دعوة الرسل وآخرها ، وهو معنى قول : لا إله إلا الله . فإن الإله هو المألوه المعبود بالمحبة ، والخشية ، والإجلال والتعظيم ، وجميع أنواع العبادة ، ولأجل هذا التوحيد ، خلقت الخليقة ، وأرسلت الرسل ، وأنزلت الكتب ، وبه افترق الناس إلى مؤمنين ، وكفار ، وسعداء أهل الجنة ، وأشقياء أهل النار ، قال تعالى :

---

(١) هود : ١٢٣ (٢) التوبة : ١٢٩ (٣) مريم : ٦٥

(٤) هود ٨٨ (٥) الفرقان : ـ ٥٨ (٦) الحجر : ٩٩

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[١] .

فهذا أول أمر فى القرآن الكريم .

وقال سبحانه :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَومِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ)[٢] .

فهذا دعوة أول رسول بعد حدوث الشرك .

وقال هود لقومه : (اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ)[٣] .

وقال صالح لقومه : (اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ)[٤] .

وقال شعيب لقومه : (اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ)[٥] .

وقال إبراهيم عليه السلام لقومه :

(إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)[٦] .

وقال تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلَّا نُوْحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)[٧] .

وقال تعالى : (وَاسْأَلْ مَن أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَـٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُون)[٨] .

وقال سبحانه : (وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)[٩] .

وقال هرقل لأبى سفيان لما سأله عن النبى ﷺ ما يقول لكم ؟

---

(١) البقرة : ٢١ (٢) المؤمنون : ٢٣ (٣) الأعراف : ٦٥
(٤) هود : ٦١ (٥) الأعراف : ٨٥ (٦) الأنعام : ٧٩
(٧) الأنبياء : ٢٥ (٨) الزخرف : ٤٥ (٩) الذاريات : ٥٦

قال يقول : اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، واتركوا ما يقول آباؤكم .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضى الله عنه :

« إنك تأتى قوما أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه : شهادة ألا إله إلا الله » وهذا التوحيد هو أول واجب على المكلف ، لا النظر ، ولا القصد إلى النظر ، ولا الشك فى الله ، كما هى أقوال لمن لم يدر ما بعث الله به رسوله ﷺ ، من معانى الكتاب والحكمة .

فهو أول واجب ، وآخر واجب ، وأول ما يدخل به الإسلام وآخر ما يخرج به من الدنيا ، وقد أفصح القرآن الكريم ، عن هذا النوع كل الإفصاح ، وأبدأ فيه وأعاد ، وضرب لذلك الأمثال . بحيث أن كل سورة فى القرآن فيها الدلالة على هذا التوحيد . ويسمى هذا النوع :

توحيد الإلهية لأنه مبنى على إخلاص التأله ، وهو أشد المحبة لله وحده ، وذلك يستلزم إخلاص العبادة .

وتوحيد العبادة لذلك .

وتوحيد الإرادة ، لأنه مبنى على إرادة وجه الله بالأعمال الصالحة .

وتوحيد القصد ، لأنه مبني على إخلاص المستلزم لإخلاص العبادة لله وحده .

قال الله تعالى : (فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ)[١] .

وقال سبحانه : (قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ، وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ)[٢] .

وقال تعالى : (قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِى ، فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ)[٣] .

---

(١) الزمر : ٢ (٢) الزمر : ١١ ، ١٢ (٣) الزمر : ١٤ ، ١٥

وقال سبحانه : (قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّى أَعْبُدُ أَيُّهَا الجَاهِلُونَ ، وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِـنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَـنَّ عَمَـلُكَ وَلَتَكُونَـنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ، بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)[١] .

فكل هذه الآيات فى الدعاء إلى هذا التوحيد ، والأمر به ، والجواب عن الشبهات والمعارضات ، وذكر ما أعد الله لأهله من النعيم المقيم ،وما أعد لمن خالفه من العذاب الأليم .

وكل سورة فى القرآن الكريم ، بل وكل آية فى القرآن ، فهى داعية إلى هذا التوحيد شاهدة به ، متضمنة له ، لأن القرآن الكريم ، إما خبر عن الله تعالى وأسمائه ، وصفاته وأفعاله ، وهو توحيد الربوبية ، وتوحيد الصفات ، فذاك مستلزم لهذا متضمن له .

وإما دعاء إلى عبادته وحده ، لا شريك له ، وخلع ما يعبد من دونه ، أو أمر بأنواع من العبادات ، ونهى عن المخالفات ، فهذا هو توحيد الإلـٰهية والعبادة، وهو مستلزم للنوعين الأولين ، متضمن لهما أيضا .

وإمّا خبر عن إكرامه لأهل توحيده ، وطاعته ، وما فعل بهم فى الدنيا وما يكرمهم به فى الآخرة ، فهو جزاء توحيده .

وإمّا خبر أهل الشرك وما فعل بهم فى الدنيا ، من النكال ، وما يحل بهم فى العقبى من الوبال ، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد .

وهذا التوحيد هو حقيقة دين الإسلام الذى لا يقبل الله من أحد دينا سواه، كما قال النبى ﷺ فيما أخرجه البخارى ومسلم :

---

(١) الزمر : ٦٤ ـــ ٦٦

« بُنِيَ الإسلام على خمس : شهادة ألا إلـٰه إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت » .

فقد أخبر صلوات الله وسلامه عليه ، أن دين الإسلام مبنى على هذه الأركان الخمسة وهى الأعمال ، فدل ذلك على أن الإسلام :

هو عبادة الله وحده لا شريك له ، بفعل المأمور ، وترك المحظور ، والإخلاص فى ذلك كله لله عز وجل . ألا للهِ الدينُ الخالص ...



الفصل الثانى

قائما بالقسط



قائماً بالقسط

يقول الله تبارك وتعالى :

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)(١) .

على ضوء هذه الآية الكريمة ، ذكرنا فى الفصل السابق ، أن الله تبارك وتعالى أعلمنا ، بأنه سبحانه وتعالى شهد لنفسه بالتوحيد ، وشهد له بذلك الملائكة وأولوا العلم أيضا كذلك .

واستكمالاً لموضوع « التوحيد مفتاح دعوة الرسل » نستطرد الحديث فى هذا الفصل الذى نحن الآن بصدده ، عن شهادة ا لله سبحانه لنفسه أيضا ، وشهادة الملائكة كذلك ، بل وشهادة أولى العلم ، بأنه سبحانه وتعالى قائما بالقسط ، الذى هو من دلائل التوحيد ، والذى انفرد به وحده سبحانه ، والذى هو مفتاح دعوة الرسل ، الذين أرسلهم الله تعالى من أجل انتشار دعوته ، وتبليغ رسالته ، وأنزل عليهم كتبه .

والقسط هو العدل الذى شهد الله لنفسه به ، وأنه قائم بالعدل فى توحيده ، وبالوحدانية فى عدله .

والتوحيد والعدل ، هما جماع صفات الكمال ، فالتوحيد يتضمن تفرد الله سبحانه بالكمال والجلال والمجد والتعظيم ، الذى لا ينبغى لأحد سواه .

والعدل : يتضمن وقوع أفعاله كلها على السداد ، وموافقة الحكمة والصواب .

هذا هو توحيد الرسل وعدلهم : إثبات الصفات ، والأمر بعبادة الله وحده لا شريك له ، وإثبات القدر والحكم ، والغايات المطلوبة المحمودة بفعله وأمره .

---

(١) آل عمران : ١٨

لا توحيد الجهمية والمعتزلة والقدرية ، الذى هو إنكار الصفات وحقائق الأسماء الحسنى ، وعدلهم الذى هو : التكذيب بالقدر ، أو نفى الحكم والغايات والعواقب الحميدة التى يفعل الله تعالى لأجلها ويأمر . .

وقيامه سبحانه بالقسط فى شهادته يتضمن أمورا :

أحدها : أنه قائم بالقسط فى هذه الشهادة التى هى أعدل شهادة على الإطلاق أبدا ، وإنكارها وجحودها أعظم الظلم على الإطلاق ، فلا أعدل من التوحيد ، ولا أظلم من الشرك ، فهو سبحانه قائم بالعدل فى هذه الشهادة : قولا وفعلا ، حيث شهد بها ، وأخبر وأعلم عباده ، وبين لهم تحقيقها وصحتها ، وألزمهم بمقتضاها ، وحكم بها .

وجعل الثواب والعقاب عليها ، وجعل الأمر والنهى من حقوقها وواجباتها ، فالدين كله من حقوقها ، والثواب كله عليها ، والعقاب كله على تركها .

وهذا هو العدل الذى قام به الله تعالى فى هذه الشهادة ، وأمر بأداء حقوقها ، فأوامره كلها تكميل لها ، ونواهيه كلها صيانة لها عما يهضمها ويضادها ، وثوابه كله عليها ، وعقابه كله على تركها ، وترك حقوقها ، وخلقه السموات والأرض وما بينهما كان بها ولأجلها ، وهى الحق الذى خلقت به ، وضدها هو الباطل والعبث الذى نفاه الله عن نفسه وأخبر : أنه لم يخلق به السموات والأرض ، حتى قال تعالى ، ردا على المشركين المنكرين لهذه الشهادة :

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ)[١] .

وقال الله تعالى :

(حـٰمٓ ، تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ، مَا خَلَقْنَا السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ)[٢] .

---

(١) ص : ٢٧ (٢) (٢) الأحقاف : ١ — ٣

وقال سبحانه وتعالى :

(هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ، وقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ)(١) .

وقال جل جلاله :

(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِى أَنْفُسِهِمْ ؟ مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ)(٢) .

وقال سبحانه :

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ، ما خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)(٣) .

وهذا كثير فى القرآن الكريم :

والحق الذى خلقت به السماوات والأرض ولأجله : هو التوحيد ، وحقوقه من الأمر والنهى ، والثواب والعقاب ، فالشرع والقدر ، والخلق والأمر ، والثواب والعقاب،قائم بالعدل ، والتوحيد صادر عنهما ، وهذاهو الصراط المستقيم الذى عليه ا لله سبحانه وتعالى ، قال تعالى حكاية عن نبيه هود عليه السلام :

(إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ، مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ، إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم)(٤) .

فهو سبحانه على صراط مستقيم فى قوله وفعله ، وهو يقول الحق والصدق ، ويفعل الخير والعدل والإنصاف :

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ، لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)(١) . (وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ ، وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ)(٢) .

فالصراط المستقيم ، الذى عليه ربنا تبارك وتعالى ، هومقتضى التوحيد.

---

(١) يونس : ٥ — (٢) الروم : ٨

(٣) الدخان : ٣٨ ، ٣٩ — (٤) هود : ٥٦

(٥) الأنعام : ١١٥ — (٦) الأحزاب : ٤

والعدل ، قال تعالى :

(وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلًا ، رَجُلَينِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ، وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أينما يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ، هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ؟ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)(١) .

فهذا مثل ضربه الله لنفسه وللصنم .

فهو سبحانه الذى يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم ، والصنم مثل العبد الذى هو كَلٌّ على مولاه ، أينما يوجهه لا يأت بخير .

والمقصود : أن قوله تعالى « قائما بالقسط هو كقوله » إن ربى على صراط مستقيم »

وقوله تعالى : « قائما بالقسط « إما أنه حال من الفاعل فى « شهد الله « والعامل فيها الفعل « والمعنى على هذا : شهد الله حال قيامه بالقسط : أنه لا إله إلا هو .

وإما أنه حال من قوله « هو « والعامل فيها معنى النفى ، أى لا إله إلا هو ، حال كونه قائما بالقسط ، وبين التقديرين فرق ظاهر .

فان التقدير الأول : يتضمن أن المعنى : شهد الله ـــ متكلما بالعدل ، مخبرا به ، آمرا به ، فاعلا له ، مجازيا به ـــ أنه لا إله إلا هو ، فإن العدل يكون فى القول والفعل و « المقسط » هو العادل فى قوله وفعله .

فشهد الله قائما بالعدل ـــ قولا وفعلا ـــ أنه لا إله إلا هو ، وفى ذلك تحقيق لكون هذه الشهادة شهادة عدل وقسط ، وهى أعدل شهادة ، كما أن المشهود به أعدل شيء وأصحه وأحقه .

وذكر ابن السائب وغيره فى سبب نزول الآية ما يشهد بذلك :

---

(١) النحل : ٧٦

وهو أن حبرين من أحبار الشام قدما على النبى ﷺ ، فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه :

ما أشبه هذه المدينة بمدينة النبى الذى يخرج فى آخر الزمان ، فلما دخلا على النبى ﷺ قالا له : أنت محمد ؟ قال : نعم ، وأحمد ؟ قال : نعم ، قالا : نسألك عن شهادة فإن أخبرتنا بها آمنا بك .

قال : سلانى . قالا : أخبرنا عن أعظم شهادة فى كتاب الله ، فنزلت : (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[1] .

وإذا كان القيام بالقسط يكون فى القول والفعل كان المعنى : أن الله سبحانه يشهد وهو قائم بالعدل به ، لا بالظلم ، فإن هذه الشهادة تضمنت قولا وعملا ، كما أنها تضمنت : أنه هو الذى يستحق العبادة وحده دون غيره ، وأن الذين عبدوه وحده : هم المفلحون السعداء ، وأن الذين أشركوا به غيره هم الظالمون الأشقياء .

فإذا شهد قائماً بالعدل ، المتضمن جزاء المخلصين بالجنة ، وجزاء المشركين بالنار : كان هذا من تمام موجب الشهادة وتحقيقها ، وكان قوله « قائما بالقسط » تنبيها على جزاء الشاهد بها والجاحد لها .

وأما التقدير الثاني : وهو أن يكون قوله « قائما » حالا مما بعد « إلا » فالمعنى : أنه لا إلـه إلا هو قائما بالعدل ، فهو وحده المستحق الإلهية ، مع كونه قائما بالقسط .

ومراد ذلك أنه إذا كان قوله « قائما بالقسط » حالا من المشهود به فهو كالصفة له ، فإن الحال صفة فى المعنى لصاحبها ، فإذا وقعت الشهادة على ذى الحال وصاحبها كان كلاهما مشهودا به ، فيكون « الملائكة وأولوا

---

(١) آل عمران : ١٨ .

العلم » قد شهدوا بأنه قائم بالقسط ، كما شهدوا بأنه لا إلـٰه إلا هو .

والتقدير الأول لا يتضمن ذلك ، فإنه كأن التقدير : شهد الله ، قائما بالقسط ، أنه لا إلـٰه إلا هو والملائكة وأولوا العلم يشهدون أنه لا إلـٰه إلا هو : كان القيام بالقسط حالا من اسم « الله » وحده .

وأيضا فكونه قائما بالقسط فيما شهد به أبلغ من كونه حالا من مجرد الشهادة .

فإن قيامه بالقسط مختص به ، كما أنه مختص بالإلهية ، فهو وحده الإله المعبود المستحق للعبادة ، وهو وحده المجازى المثيب المعاقب بالعدل والقسط .

وفي قوله سبحانه : « لا إلـٰه إلا هو » ذكر محمد بن جعفر أنه قال : الأولى وصف وتوحيد والثانية : رسم وتعليم ، أى قولوا « لا إله إلا هو » ومعنى هذا :

أن الأولى تضمنت أن الله سبحانه شهد بها وأخبر بها ، والتالى للقرآن الكريم إنما يخبر عن شهادته هو ، وليس فى ذلك شهادة من التالى نفسه ، فأعاد سبحانه ذكرها مجردة ليقولها التالى ، فيكون شاهدا هو أيضا .

فالأولى : خبر عن الشهادة بالتوحيد ، والثانية : خبر عن نفس التوحيد .

وختم بقوله : « العزيز الحكيم »فتضمنت الآية توحيده وعدله ، وعزته وحكمته .

فالتوحيد : يتضمن ثبوت صفات كماله ، ونعوت جلاله ، وعدم المماثل له فيها وعبادته وحده لا شريك له .

و « العدل » يتضمن وضعه الأشياء فى موضعها ، وتنزيلها منازلها ، وأنه لم يخص شيئا منها إلا بمحض اقتضى ذلك ، وأنه لا يعاقب من يستحق العقوبة ، ولا يمنع من يستحق العطاء ، وإن كان هو الذى جعله مستحقا .

و « العزة » تتضمن كمال قدرته وقوته وقهره سبحانه .

و « الحكمة » تتضمن كمال علمه وخبرته ، وأنه أمر ونهى ، وخلق

وقدر ، لما له فى ذلك من الحكم البالغة ، والغايات الحميدة التى يستحق عليها كمال الحمد له سبحانه وتعالى .

فاسمه « العزيز » يتضمن الملك ، واسمه « الحكيم » يتضمن الحمد ، وأول الآية يتضمن التوحيد ، وذلك حقيقة : « لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير » .

وذلك أفضل ما قاله سيدنا رسول الله ﷺ ، والنبيون من قبله .

أخرج الترمذى بسنده فى سننه عن رسول الله ﷺ أنه قال :

خير ما قلت أنا والنبيون من قبلى : لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير » .

و « الحكيم » الذى إذا أمر بأمر كان حسنا فى نفسه ، وإذا نهى عن شيء كان قبيحا فى نفسه ، وإذا أخبر بخبر كان صدقا ، وإذا فعل فعلا كان صوابا ، وإذا أراد شيئا كان أولى بالإرادة من غيره ، وهذا الوصف على الكمال لا يكون إلا لله وحده سبحانه وتعالى .

فتضمنت هذه الآية وهذه الشهادة :

الدلالة على وحدانيته المنافية للشرك ، وعدله المنافى للظلم ، وعزته المنافية للعجز ، وحكمته المنافية للجهل والعيب .

ففيها الشهادة له بالتوحيد ، والعدل ، والقدرة والعلم والحكمة ، ولهذا كانت أعظم شهادة .

ولا يقوم بهذه الشهادة على وجهها الصحيح من جميع الطوائف إلا أهل السنة ، أما سائر طوائف أهل البدع فإنهم لا يقومون بهذه الشهادة على وجهها الصحيح .

فالفلاسفة أشد الناس إنكارا لمعالمها ، وجحودا لمضمونها ، من أولها إلى آخرها .

وطوائف الاتحادية : هم أبعد خلق الله تعالى عنها من وجه .

وطائفة الجهمية تنكر حقيقتها من وجوه :

منها : « أن الإلٰـه » هو الذى تألهه القلوب إيمانا به ، وتقديرا ومحبة له ، واشتياقا وإنابة إليه ، وعندهم أن الله لا يُحِبُّ ولا يُحَبُّ !

ومنها : أن « الشهادة » كلامه تعالى ، وخبره سبحانه عما شهد به ، وعنـــدهم: لا يقول ولا يتكلم ، ولا يشهد ولا يخبر .

ومنهـا : أن الشهـادة تتضمـن مباينتـه لخلقـه بذاتـه وصفاتـه ، وعنـد فرعونيتهم : أنه لا يباين الخلق لا فى ذاته ، ولا فى صفاته ، وليس فوق العرش إلٰـه يعبد ، ولا رب يصلّى له ويسجد .

وعند حلوليتهم : أنه حال فى كل مكان بذاته ، حتى فى الأمكنة التى يستحى من ذكرها ، فهؤلاء مثبتة الجهمية ، وأولئك نفاتهم .

ومنها : أن قيامه تعالى بالقسط فى أفعاله وأقواله ، وعندهم : أنه لم يقم ولا يقوم به فعل ولا قول ألبتة أصلا ، وأن قوله مخلوق من بعض المخلوقات ، وفعله هو المفعول المنفصل ، وأما أن يكون له فعل يكون به فاعل حقيقة : فلا .

ومنها : أن « القسط » عندهم لا حقيقة له ، بل كل ممكن فهو قسط :

وليس فى مقدوره ما يكون ظلما وقسطا ، بل الظلم عندهم هو المحال الممتنع لذاته الذى لا يدخل تحت القدرة .

ومنها أن العزة هى القوة والقدرة ، وعندهم لا يقوم به صفة ، ولا له صفة وقدرة تسمى قدرة وقوة .

ومنها : أن « الحكمة » هى الغاية التى يفعل لأجلها ، وتكون هى المطلوبة بالفعل ، ويكون وجودها أولى من عدمها ، وهذا عندهم ممتنع فى حقـه سبحانه ، فلا يفعل لحكمة ولا غاية ، بل لا غاية لفعله ولا أمره ، وما ثم إلا محض المشيئة المجردة ، على الحكمة والتعليل .

ومنها : أن الإله هو الذى له الأسماء الحسنى والصفات العلى ، وهو الذى يفعل بقدرته ومشيئته وحكمته ، وهو الموصوف بالصفات والأفعال ، المسمى بالأسماء التى قامت بها حقائقها ومعانيها ، وهذا لا يثبته على الحقيقة إلا اتباع الرسل عليهم الصلاة والسلام وهم أهل العدل الحقيقى ، والتوحيد الخالص الصادق اليقينى .

أما الجهمية والمعتزلة : فتزعم أن ذاته سبحانه لا تحب ، ووجهه لا يُرى ، ولا يُلتـذ بالنظر إليه ، ولا تشتاق القلوب إليه ، فهم فى الحقيقة منكرون الإلهية بهذا الزعم .

والقدرية : تنكر كذلك دخول أفعال الملائكة والجن والإنس وسائر الحيوان تحت قدرته ومشيئته وخلقه ، تعالى الله عن ذلك ، فهم منكرون فى الحقيقة لكمال عزته ومشيئته تعالى .

والجبرية : تنكر حكمته ، كما أنها تنكر كذلك أن يكون له فى أفعاله وأوامره غاية يفعل ويأمر لأجلها ، فهم منكرون فى الخقيقة لحكمته وحده سبحانه وتعالى .

أما أتباع ابن سينا والنصير الطوسى وغيرهم ، فإنهم : ينكرون أن يكون ماهية غير الوجود المطلق ، وأن يكون له وصف ثبوتى زائد على ماهية الوجود ، فهم فى الحقيقة منكرون لذاته وصفاته وأفعاله ، لا يتحاشون من ذلك .

والاتحادية : أدهى وأمر . فإنهم رفعوا القواعد من الأصل ، وقالوا : ما ثم وجود خالق ووجود مخلوق ، بل الخلق المشبه هو عين الحق المنزه ، كل ذلك من عين واحدة ، بل هو العين الواحدة .

هذه الشهادة العظيمة : كل هؤلاء هم بها غير قائمين ، وهى متضمنة لإبطال ما هم عليه ورد زعمهم ، كما تضمنت إبطال ما عليه المشركون ورد افتراءاتهم الكاذبة ، كما هى أيضا مبطلة لقول طائفتى الشرك والتعطيل ، ولا يقوم بهذه الشهادة إلا أهل الإثبات الذين يثبتون لله ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات ، وينفون عنه مماثلة المخلوقات ، ويعبدونه وحده لا يشركون به شيئا .

وإذا كانت شهادته سبحانه تتضمن بيانه تعالى للعباد ، ودلالتهم وتعريفهم بما شهد به ، وإلا فلو شهد شهادة لم يتمكنوا من العلوم بها : لم ينتفعوا بها ، ولم يقم بها الحجة عليهم ، كما أن الشاهد من العباد إذا كانت عنده شهادة ولم يبينها ، بل كتمها ، لم ينتفع بها أحد ، ولم تقم بها حجة ، وإذا كان لا

ينتفع بها إلا ببيانها ، فهو سبحانه وتعالى قد بينها غاية البيان بطرق ثلاثة : السمع ، والبصر ، والعقل .

أما السمع : فيسمع آياته المتلوة القولية ، المتضمنة لإثبات صفات كماله ونعوت جلاله ، وعلوه على عرشه فوق سبع سماوات ، وتكلمه بكتبه ، وتكليمه لمن يشاء من عباده تكليما حقيقة لا مجازا .

وفي هذا البيان الواضح إبطال لقول من قال : إنه لم يرد من عباده ما دلت عليه آياته السمعية ، من إثبات معانيها وحقائقها التي وضعت لها ألفاظها ، فإن هذا ضد البيان والإعلام ، ويعود على مقصود الشهادة بالإبطال والكتمان وقد ذم الله تبارك وتعالى من كتم شهادة عنده من الله . وأخبر أنه من أظلم الظالمين .

فإذا كانت عند العبد شهادة من الله تعالى ، تحقق ما جاء به من رسوله ﷺ ، من إعلام نبوته ، وتوحيد الرسل ، وأن إبراهيم عليه السلام وأهل بيته كانوا على الإسلام كلهم ، ومن كتم هذه الشهادة : كان من أظلم الظالمين ، كما فعله أعداء رسول الله ﷺ ، من اليهود ، الذين كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .

(قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ؟ قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ ، أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لَا أَشْهَد ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ، الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)[1] .

فكيف يظن بالله سبحانه أنه كتم شهادة الحق التي يشهد بها الجهمية ، والمعتزلة ، والمعطلة ، ولا يشهد بها لنفسه ، ثم يشهد لنفسه بما يضادها ويناقضها ، ولا يجامعها بوجه ما ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم .

---

(١) الأنعام : ١٩ ، ٢٠

إن الله سبحانه وتعالى شهد لنفسه بأنه استوى على العرش ، وبأنه القاهر فوق عباده ، وبأن ملائكته يخافونه من فوقهم ، وأن الملائكة تعرج إليه بالأمر ، وتنزل من عنده به ، وأن العمل الصالح يصعد إليه :

(إِليهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)(١)

وأنه يأتى ويجئ ، ويتكلم ، ويرضى ويغضب ، ويحب ويكره ، ويتأذى ، ويفرح ، ويضحك ، وأنه يسمع ويبصر ، وأنه يراه المؤمنون بأبصارهم يوم لقائه .

عن جرير رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون فى رؤيته »(٢) .

إلى غير ذلك مما شهد به لنفسه ، وشهد له به رسله ، وشهدت له الجهمية بعد ذلك ، وقالوا :

شهادتنا أصح ، وأعدل من شهادة النصوص ، فإن النصوص تضمنت كتمان الحق وإظهار خلافه .

فشهادة الله تعالى : تكذب هؤلاء أشد التكذيب ، وتتضمن أن الذى شهد به قد بينه وأوضحه وأظهره ، حتى جعله فى أعلى مراتب الظهور والبيان ، وأنه لو كان الحق فيما يقوله المعطلة والجهمية لم يكن العباد قد انتفعوا بما شهد به سبحانه وتعالى ، فإن الحق فى نفس الأمر — عندهم — لم يشهد به لنفسه ، والذى شهد به لنفسه وأظهره وأوضحه : فليس بحق ، ولا يجوز أن يستفاد منه الحق واليقين .

وعليه فقد ثبت أن الذى شَهِدَ به سبحانه وتعالى ، قد بينه وأوضحه ، وأظهره حتى جعله بحق فى أعلى مراتب الظهور والبيان والوضوح .

ومجمل القول أن معنى كونه قائما بالقسط ، قائما بالعدل ، يجريه سبحانه وتعالى على وفق سنن الاستقامة ، أو مقيما للعدل فيما يُقسم من الأرزاق

(١) فاطر : ١٠ (٢) أخرجه الإمام أحمد ، والإمام البخارى ومسلم وأصحاب السنن .

والآجال ، ويثيب ويعاقب ، وفيما يأمر به عباده من إنصاف بعضهم لبعض ، والعمل على السوية فيما بينهم .

ذلك : أن واجب الوجوب يلزمه الغنى المطلق ، والعلم التام ، والفيض العام ، والحكمة الكاملة ، والرحمة الشاملة ، وعدم الانـقسام بجهـة من الجهات ، وعدم الافتقار بوجه من الوجوه ، إلى شيء من الأشياء ، وعدم النقص فى شيء من الأفعال والأحكام ، إلى غير ذلك من الأسماء الحسنى ، والصفات العليا ، فانه مركوز فى العقل السليم ، أن من هذا شأنه لا يصدر منه شيء إلا على وفق العدالة ، وقضية التسويـة ، ورعايـة الأصلـح عمومـا أو خصوصا ، فكل ما يخيل إلى المكلف ، أو يتصور له ، أنه خارج عن قانون العدالة أو يشبه الجور أو القبح ، وجب أن ينسب ذلك إلى قصور فهمه ، وعدم إحاطته التامة بسلسلة الأسباب والمسببات والمبادىء والغايات .

فانظر أيها القارىء الكريم : فى كيفية خلقة أعضاء الإنسان ، حتى تعرف عدل الله سبحانه وحكمته فيها ، ثم انظر الى اختلاف أحوال الخلق ، فى الحسن والقبح ، والغني والفقر ، والصحة والمرض ، وطول العمر وقصره ، واللذة والألم ، واقطع بأن كل ذلك صواب وعدل .

ثم انظر فى كيفية خلقه العناصر ، وأجرام الأفلاك وسائر الكواكب ، وتقدير كل منها بقدر معين ، وخاصية معينة ، تجد كلها حكمة بليغة ، وعدالة حكيمة ، وانظر إلى تفاوت الخلائق فى العلم والجهل ، والفطانـة والبلادة ، والهداية والغواية ، واقطع بأن كل ذلك قسط وعدل .

فإن الانسان ، بل كل ما سوى الله تعالى ، لم يخلق مستعدا لإدراك تفاصيل كلمات الله سبحانه ، والخوضُ فيما لا يعنيه لا يفيده ، بل لا يسعه ولا ينفعه ، إلا العلم الإجمالى ، بأنه تعالى واحد فى ملكه ، وملكه لا منازع له فيه ولا مضاد له ، ولا مانع لقضائه ولا راد لقدره ، وأن الكل بقضائه وقدره ، وفى كل واحد من مصنوعاته ، ولكل شيء من أفعاله ، حِكَم ومصالح ، لا يحيط بذلك علما إلا موجده وخالقه ، يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد .

هذا هو الدين القويم ، والاعتقاد المستقيم ، والعدول عنه مراء ، والجدال فيه هراء .

فمن نسبه إلى الجور فى فعل من الأفعال فهو الجائر ، لا على غيره ، بل على نفسه ، إذ لا يجوز قطعا ، ولا يصح أصلًا ، أن ينسب ذلك إلى علّام الخفيات ، المطلع على الكليات والجزئيات ، من أزل الآزال إلى أبد الآباد .

ومن زعم أن شيئا من الأشياء خيراً أو شراً فى اعتقاده ، حسناً أو قبيحاً بحسب نظره خارج عن مشيئته وإرادته ، فقد كذب على الله سبحانه ، لأنه يدعى التوحيد ثم يثبت قادرا آخر ، أو خالقا غير الله تعالى ، ولا خالق إلا هو :

(هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؟ لا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)[1]

لهذا كرر مضمون الشهادة فقال : « شهد الله أنه لا إلـٰه إلا هو »

وإذا شهد الله بذلك فقد انتفى الشرك ، وثبت وصح أنه لا إله إلا هو ، فإن الدليل دل على وحدانية الله سبحانه ، ومتى كان ذلك كذلك فقد صح القول بوحدانية الله تعالى .

وفى هذا كله إيقاظ لأمة سيدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، أن يكونوا على وفق شهادة الله تعالى ، وشهادة الملائكة ، وشهادة أولى العلم : لا إلـٰه إلا هو :

والإعلام بأن هذه الكلمة يجب أن يكررها المسلم ما أمكنه فى يومه وغده ، بل وفى كل وقت من الأوقات ، إذا تيسرله ذلك .

وزيادة فى تأكيد انتفاء الشرك ، وإثبات أنه « لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ » ناسب أن نذكر هنا ، أن من أشرك بين الله تعالى ، وبين مخلوق من خلقه فيما يختص بالخالق تعالى من هذه العبادات أو غيرها ، فهو مشرك ، يقول سبحانه :

(وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)[2] .

(١) فاطر : ٣

(٢) النساء : ٣٦ .

وهذا الشرك فى العبادة هو الذى كفَّر الله به المشكرين ، وأباح به دماءهم ونساءهم ، وإلا فهم يعلمون أن الله هو الخالق الرازق المدبر ، ليس له شريك فى ملكه ، ولهذا أتاهم النبى صلى الله عليه وسلم بالتوحيد الخالص ، الذى هو معنى لا إله إلا الله ، الذى مضمونه أن لا يعبد إلا الله لا ملك مقرب ، ولا نبى مرسل ، فضلا عن غيرهما ولكنهم قالوا :

(أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَـٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ)[١] .

وكانوا يجعلون من الحرث والأنعام نصيبا لله ، وللآلهة مثل ذلك ، فإذا صار شيء من الذى لله إلى الذى للآلهة تركوه لها ، وقالوا : الله غنى ، وإذا صار شيء من الذى للآلهة إلى الذى لله تعالى ردوه وقالوا : الله غنى والآلهة فقيرة ، فأنزل الله تبارك وتعالى :

(وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ، فَقَالُوا : هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا ، فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ، وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)[٢] .

وإذا تبين هذا فاعلم أن الشرك ينقسم إلى ثلاثة أقسام ، بالنسبة إلى أنواع التوحيد ، وكل منها قد يكون أكبر وأصغر مطلقا ، وقد يكون أكبر بالنسبة إلى ما هو أصغر منه ، ويكون أصغر بالنسبة إلى ما هو أكبر منه .

القسم الأول : الشرك فى الربوبية وهو نوعان :

أحدهما : شرك التعطيل ، وهو أقبح أنواع الشرك ، كشرك فرعون إذ قال :

(وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ)[٣] .

ومن هذا شرك الفلاسفة[٤] القائلين بقدم العالم وأبديته ، وأنه لم يكن معدوما أصلا ، بل لم يزل ولا يزال ، والحوادث بأسرها مستندة عندهم إلى أسباب ووسائط اقتضت إيجادها ، يسمونها : العقول والنفوس .

---

(١) ص : ٥ (٢) الأنعام : ٣٧ (٣) الشعراء : ٢٣

(٤) ومن لفَّ لفهم وأيَّد مذهبهم من علماء العصر الحديث .

ومن هذا النوع أيضا : شرك طائفة أهل وحدة الوجود ، من الملاحدة ، الذين كسوا الإلحاد حلية الإسلام ، ومزجوه بشيء من الحق حسب زعمهم حتى راج أمرهم على خفافيش البصائر .

ومن هذا شرك من عطَّل أسماء الله تعالى وأوصافه ، من غلاة الجهمية وغيرهم ، ومن لف لفهم ، من أهل الزندقة ، والملل المخالفة والنحل الملفقة .

وثانيهما : شرك من جعل معه إلها آخر ، ولم يعطل أسماءه وصفاته وربوبيته ، كشرك النصارى ، الذى جعلوه ثالث ثلاثة ، وشرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور ، وحوادث الشر إلى الظلمة .

ومن هذا : شرك كثير ممن يشرك بالكواكب العلويات ، ويجعلها مدبرة لأمر هذا العالم ، كما هو مذهب مشركى الصابئة وغيرهم .

القسم الثانى : الشرك فى توحيد الأسماء والصفات ، وهو أسهل مما قبله ، وهو نوعان أيضا :

أحدهما : تشبيه الخالق بالمخلوق ، مثل من يقول : له سمع كسمعى ، وبصر كبصرى ... وهو شرك المشبهة .

الثانى : اشتقاق أسماء للآلهة الباطلة من أسماء الإله الحق ، قال الله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ، وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ، سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[1] .

يقول ابن عباس رضى الله عنهما :

« يلحدون فى أسمائه : يشركون ، وعنه : سموا اللات من الإلـه ، والعزى من العزيز ».

---

(١) الأعراف : ١٨٠

القسم الثالث : الشرك في توحيد الإلهية والعبادة .

يقول الإمام القرطبي رحمه الله ورضي عنه :

« أصل الشرك المحرم اعتقاد شريك لله تعالى في الإلهية ، وهو الشرك الأعظم ، وهو شرك الجاهلية ، ويليه في الرتبة اعتقاد شريك لله تعالى في الفعل ، وهو قول من قال : إن موجودا ما غير الله تعالى ، يستقل بإحداث فعل وإيجاده ، وإن لم يعتقد كونه إلها » اهـ .

وهذا القسم من الشرك نوعان :

أحدهما : أن يجعل لله نداً يدعوه كما يدعو الله ، ويسأله كما يسأل الله ، ويرجوه كما يرجو الله ، ويحبه كما يحب الله ، ويخشاه كما يخشى الله .

وبالجملة : فهو أن يجعل لله نداً يعبده كما يعبد الله تعالى ، وهذا هو الشرك الأكبر ، وهو الذي قال الله فيه :

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾[1] .

وقال سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[2] .

وقال تعالى :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ، قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[3] .

وقال سبحانه :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾[4] .

---

(١) النساء : ٣٦
(٢) النحل : ٣٧
(٣) يونس : ١٩
(٤) السجدة : ٤

والآيات الواردة فى القرآن الكريم ، فى النهى عن هذا الشرك ، وبيان بطلانه كثيرة جدا .

والثانى : الشرك الأصغر ، مثل الرياء ، والتصنع للمخلوق ، وعدم الإخلاص لله تعالى فى العبادة ، بل العمل لحظ النفس تارة ، ولطلب الدنيا تارة ، ولطلب المنزلة والجاه والسلطان عند الخلق تارة أخرى ، فله من عمله نصيب ، ولغيره منه نصيب .

وبعد : فعن معاذ بن جبل رضى الله عنه فيما أخرجه البخارى ومسلم قال :

« كنت رديف النبى صلى الله عليه وسلم على حمار فقال لى : يا معاذ ، أتدرى ما حق الله على العباد ، وما حق العباد على الله ؟ فقلت : الله ورسوله أعلم .

قال : حق الله على العباد ، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا .

فقلت : يارسول الله أفلا أبشر الناس ؟ قال : لا تبشرهم فيتكلوا » .

وفى قوله صلى الله عليه وسلم : « أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا » إلزام للعباد بأن يوحدوه بالعبادة وحده ، ولا يشركوا به شيئا .

وفائدة هذه الجملة : بيان أن التجرد من الشرك لا بد منه فى العبادة ، وإلا فلا يكون العبد آتيا بعبادة الله تعالى ، بل مشرك ، وهذا هو معنى قول من قال : إن العبادة هى التوحيد لأن الخصومة فيه ، وفيه معرفة حق الله على العباد ، وهو عبادته وحده لا شريك له .

قال تعالى :

(قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيهِ أَدْعُو وَإِلَيهِ مَآب)[1]

---

(١) الرعد : ٣٦

وهذه الآية الكريمة هى معنى : لا إله إلا الله ، فإنها تضمنت النفى والإثبات ، كما تضمنته لا إله إلا الله ، ودلت على أنه لا بد فى الإسلام من النفى والإثبات ، فيثبت العبادة لله وحده ، وينفى عبادة ما سواه وهو التوحيد الذى تضمنته سورة (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ) .

وطريقة القرآن الكريم فى مثل هذا أن يقرن النفى بالإثبات ، فينفى عبادة ما سوى الله ويثبت عبادته سبحانه ، وهذا هو حقيقة التوحيد ، والنفى المحض ليس بتوحيد ، وكذلك الإثبات بدون النفى ، فلا يكون التوحيد إلا متضمنا للنفى والإثبات ، وهذا حقيقة لا إله إلا الله .

كما أن من طريقة القرآن الكريم أنه دل على أن الحكمة فى إرسال الرسل هو عبادة الله وحده ، وترك عبادة ما سواه ، وأن أصل دين الأنبياء واحد ، وهو الإخلاص فى العبادة لله سبحانه ، وإن اختلفت شرائعهم ، يقول سبحانه : (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا)[1] .

وفى قوله ﷺ : وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا ، بيان أن الله لا يعذب من يعبده ، ولا يشرك به شيئا ، وأن العبادة هى الإتيان بالأوامر ، والانتهاء عن النواهى ، لأن مجرد عدِّ الإشراك لا يقتضى نفى العذاب ، وقد علم ذلك من القرآن الكريم ، ومن الأحاديث الشريفة ، الواردة فى تهديد الظالمين والعصاة .

يقول الإمام الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى :

« اقتصر على نفى الإشراك ، لأنه يستدعى التوحيد بالاقتضاء ، ويستدعى إثبات الرسالة باللزوم ، إذ من كذَّب رسول الله ﷺ ، فقد كذب الله ، ومن كذب الله تعالى فهو مشرك ، وهو مثل قول القائل :

« من توضأ صحت صلاته ، أى مع سائر الشروط ، فالمراد من مات حال كونه مؤمنا بجميع ما يجب الإيمان به » اهـ .

---

(١) المائدة : ٤٨

وتحقيق التوحيد : هو معرفته والاطلاع على حقيقته ، والقيام بها علما وعملا ، وحقيقة ذلك هو انجذاب الروح إلى الله تعالى ، محبة ، وخوفا ، وإنابة ، وتوكلا ، ودعاء ، وإخلاصا ، وإجلالا ، وهيبة ، وتعظيما وعبادة .

وبالجملة : فلا يكون فى قلبه شىء لغير الله سبحانه ، ولا إرادة لما حرم الله ، ولا كراهة لما أمر الله ، وذلك هو حقيقة لا إله إلا الله ، فإن الإله هو المألوه المعبود وذلك هو حقيقة االشهادتين ، فمن قام بهما على هذا الوجه ، فهو من السبعين ألفا ، الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب ..



الفصل الثالث

« لا إلٰه إلا هو العزيز الحكيم »



لا إله إلا هو العزيز الحكيم

يقول الله تعالى :

(شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ، وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ، لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[1] .

القرآن الكريم كلام الله العزيز ، جزيل العطاء ، كثير الإغداق ، عميم الخيرات والبركات ، لا يحد عطاءه حد ، ولا تقف لمعانيه نهاية ، ولا تنفد لأحكامه أسرار .

لهذه المعانى الراقية ، والحقائق السامية ، كنا وما زلنا فى رحاب هذه الآية الكريمة ، آية إثبات « التوحيد مفتاح دعوة الرسل » التى تفعم دنيا المسلمين بعبير الخلد ، وأنفاس الملائكة .

فبعد أن تحدثنا فى الفصل الأول ، عن شهادة الله سبحانه وتعالى لنفسه بالتوحيد ، وشهادة الملائكة وأولى العلم له بذلك أيضا ، وتحدثنا كذلك فى الفصل الثانى ، أنه سبحانه وتعالى قائم بالقسط ، وبسطنا القول فى بيان ذلك ، فإننا نتحدث فى هذا الفصل الذى نحن الآن بصدده عن تأكيد الله سبحانه لكونه منفرداً بالألوهية ، وقائماً بالعدل بقوله « العزيز الحكيم » وبيان آياته العيانية الخلقية ، والنظر فيها ، والاستدلال بها على توحيده سبحانه .

« فالعزيز » الذى هو اسم من أسمائه سبحانه ، إشارة إلى كمال القدرة .

و « الحكيم » إشارة إلى كمال العلم ، ولا تتم القدرة إلا بالتفرد والاستقلال ، ولا العدالة إلا بالاطلاع على المصالح والأحوال .

لهذا استأنف الله سبحانه وتعالى ، هذه الآية الكريمة ، بجملة بعدها مؤكدة لها فقال :

(إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلَامُ)[2] .

ليكون فى هذه الجملة إيذان بأن المقصود من الدين هو العدل والتوحيد .

---

(١) آل عمران : ١٨ (٢) آل عمران : ١٩

أما التوحيد : فان يعلم أن الله تعالى لا شريك له ولا نظير ، فى الذات ولا فى صفة من الصفات ، كما شهد هو به سبحانه .

وأما العدل : فهو أن يعلم أيضا أن كل ماخلق وأمر المكلف به ، ونهاه عنه ، فإنه عدل وصواب ، وفيه حكم ومصالح ، فيأتمر بذلك وينتهى عنه ، ليكون عبدا منقادا ، معترفا بأنه تعالى ، قائم بالقسط .

وأما آياته العيانية الخلقية ، والنظر فيها ، والاستدلال بها : فإنها تدل على ماتدل عليه آياته القولية السمعية ، وآيات الله سبحانه : هى دلائله وبراهينه التى بها يعرفه العباد ، وبها يعرفون أسماءه وصفاته ، وتوحيده وأمره ونهيه .

فالرسل عليهم الصلاة والسلام يخبرون عنه بكلامه الذى تكلم به ، وهو آياته القولية ، ويستدلون على ذلك بمفعولاته التى تشهد على صحة ذلك ، وفى آياته العيانية ، العقل يجمع بين هذه وهذه ، فيجزم بصحة ما جاءت به الرسل ، فتتفق شهادة السمع والبصر ، والعقل والفطرة ، وهو سبحانه لكمال عدله ورحمته وحكمته ومحبته للعذر ، وإقامته للحجة ، لم يبعث نبيا من الأنبياء إلا ومعه آية تدل على صدقه فيما أخبر به .

قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ ، فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾(٣)

---

(١) الحديد : ٢٥ (٢) النحل : ٤٣ ، ٤٤ (٣) آل عمران : ١٨٤

وقال تعالى : (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ)[١]
وقال تعالى : (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ)[٢] .

حتى إن من أخفى آيات الرسل آيات هود عليه السلام ، حتى قال له قومه : (يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ)[٣] ، ومع هذا فبينته من أظهر البينات ، وقد أشار إليها بقوله :

(إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ ، وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ، مِن دُونِهِ ، فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ، إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ، مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ، إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)[٤] .

فهذا من أعظم الآيات : فإن رجلا واحدا يخاطب أمة عظيمة بهذا الخطاب ، غير جزع ولا فزع ولا خوار ، بل واثق مما قاله جازم به ، قد أشهد الله تعالى على براءته من دينهم ، ومما هم عليه إشهاد واثق به ، معتمد عليه ، معلم لقومه : أنه وليه وناصره ، وأنه غير مسلطهم عليه .

ثم أشهدهم إشهاد مجاهد لهم بالمخالفة ، أنه برىء من دينهم وآلهتهم التي يوالون عليها ، ويعادون من أجلها ، ويبذلون دماءهم وأموالهم فى نصرتها .

ثم أكد عليهم ذلك بالاستهانة بهم ، واحتقارهم وازدرائهم ، وأنهم لو اجتمعوا كلهم على كيده ، وشفاء غيظهم منه ، ثم يعاجلونه ولا يمهلونه لما استطاعوا ، وفى ضمن ذلك : أنهم أضعف وأعجز وأقل من ذلك ، وأنكم لو رميتوه لا نقلبتم بغيظكم مكبوتين مخذولين .

ثم قرر دعوته أحسن تقرير ، وبين أن ربه تعالى وربهم ، الذى نواصيهم بيده هو وليه ووكيله ، القائم بنصره وتأييده ، وأنه على صراط مستقيم ، فلا يخذل من توكل عليه وآمن به ، ولا يشمت به أعداءه ، ولا يكون معهم عليه ، فإن

---

(١) فاطر : ٤
(٢) فاطر : ٢٥
(٣) هود : ٥٣
(٤) هود : ٥٤ ــ ٥٦

صراطه المستقيم الذى هو عليه — فى قوله وفعله — يمنع ذلك ويأباه .

وتحت هذا الخطاب : أن من صراطه المستقيم : أن ينتقم ممن خرج عنه وعمل بخلافه ، وينزل به بأسه ، فإن الصراط المستقيم : هو العدل الذى عليه الله تعالى .

ومنه انتقامه من أهل الشرك والإجرام ، ونصره أولياءه ورسله على أعدائهم ، وأنه يذهب بهم ويستخلف قوما غيرهم ، ولا يضره ذلك شيئا ، وأنه القائم سبحانه على كل شيء حفظا ورعاية وتدبيرا وإحصاء .

فأى آية وبرهان ودليل أحسن من آيات الأنبياء وبراهينهم وأدلتهم ؟ وهى شهادة من الله سبحانه لهم ، بينها لعباده غاية البيان ، وأظهرها لهم غاية الإظهار بقوله وفعله ، الحديث الصحيح الذى قال فيه رسول الله ﷺ :

« ما من نبى من الأنبياء إلا وقد أوتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » .

ومن أسمائه تعالى « المؤمن » وهو — فى أحد التفسرين — المصدق الذى يصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم ، فهو الذى صدق رسله وأنبياءه فيما بلغوا عنه ، وشهد لهم بأنهم صادقون بالدلائل التى دل بها على صدقهم قضاء وخلقا ، فإنه سبحانه أخبر — وخبره الصدق ، وقوله الحق — أنه لا بد أن يرى العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم : أن الوحى الذى بلغته رسله حق ، فقال تعالى :

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)[١] .

بمعنى حتى يتضح لهم أن القرآن حق ، فإنه هو المتقدم فى قوله تعالى :

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ؟)[٢] .

ثم قال سبحانه : (أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ : أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ؟)[٣] .

---

(١) فصّلت : ٥٣ (٢) فصّلت : ٥٢ (٣) فصّلت : ٥٣ .

فشهد سبحانه لرسوله ﷺ بقوله : أن ما جاء به حق ، ووعده أن يرى العباد من آياته الفعلية الخلقية : ما يشهد بذلك أيضا .

ثم ذكر ما هو أعظم من ذلك وأجل ، وهو شهادته سبحانه على كل شيء ، فإن من أسمائه « الشهيد » الذى لا يغيب عنه شيء ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، بل هو مطلع على كل شيء مشاهد له ، عليم بتفاصيله .

وهذا الاستدلال بأسمائه وصفاته ، والأول استدلال بقوله وكلماته ، والاستدلال بالآيات الأفقية والنفسية ، والاستدلال بأفعاله ومخلوقاته .

ورب قائل يقول : قد فهمت الاستدلال بكلماته والاستدلال بمخلوقاته ، فبين لى كيفية الاستدلال بأسمائه وصفاته ، فإن ذلك أمر لا عهد لنا به فى تخاطبنا وكتبنا .

ويجاب على هذا : بأن الله سبحانه وتعالى هو المدلول عليه ، وآياته هى الدليل الواضح ، والبرهان القاطع .

ذلك أن الله سبحانه فى الحقيقة ، هو الدال على نفسه بآياته ، فهو الدليل لعباده فى الحقيقية ، بما نصبه لهم من الدلالات والآيات ، وقد أودع الله تعالى فى الفطر التى لم تتنجس بالتعطيل والجحود : أنه سبحانه الكامل فى أسمائه وصفاته وأنه الموصوف بكل كمال ، المنزه عن كل عيب ونقص .

فالكمال كله ، والجمال والجلال والبهاء ، والعزة والعظمة والكبرياء : كله من لوازم ذاته ، يستحيل أن يكون على غير ذلك ، فإن الحياة كلها له ، والقدرة كلها له ، والسمع والبصر والإرادة ، والمشيئة والرحمة والغنى ، والجود والبر والإحسان ، كله خاص له قائم به ، وما خفى على الخلق من كماله أعظم وأعظم مما عرفوه منه ، بل لا نسبة لما عرفوه من ذلك إلى ما لم يعرفوه .

فان من كمال القدس : اطلاعه على كل شيء ، وشهادته عليه ، بحيث لا يغيب عنه وجه من وجوه تفاصيله ، ولا ذرة من ذراته ، باطنا وظاهرا ، ومن هذا

شأنه : كيف يليق بالعباد أن يشركوا به ، وأن يعبدوا معه غيره ؟ وان يجعلوا معه إلها آخر ؟ .

وكيف يليق بكماله أن يقر من يكذب عليه أعظم الكذب ، ويخبر عنه بخلاف ما لا يطلق عليه ، ثم ينصره على ذلك ويؤيده ، ويعلي كلمته ، ويرفع شأنه ، ويجيب دعوته ، ويهلك عدوه ، ويظهر على يديه من الآيات والبراهين والأدلة ، ما تعجز عن مثله قوى البشر ، وهو مع ذلك كاذب عليه مفتر ، ساعٍ في الأرض بالفساد ؟ .

ومعلوم أن شهادته سبحانه على كل شيء ، وقدرته على كل شيء ، وحكمته وعزته وكماله المقدس يأبى ذلك كل الإباء ، ومن ظن ذلك به ، وجوزه عليه : فهو من أبعد الخلق من معرفته سبحانه ، وإن عرف منه بعض صفاته كصفة القدرة ، وصفة المشيئة .

والقرآن الكريم مملوء من هذا الطريق ، وهي طريق الخاصة ، بل خاصة الخاصة ، وهم الذين يستدلون بالله تعالى على أفعاله ، وما يليق به أن يفعله وما لا يفعله .

وإذا تدبرت القرآن الكريم رأيته ينادى على ذلك ، فيبديه ويعيده من له فهم وقلب واعٍ عن الله سبحانه ، قال الله تعالى :

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ، لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ، فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ)[١] .

أفلا تراه كيف يخبر سبحانه : أن كماله وحكمته وقدرته تأبى أن يُقِرَّ من تقول عليه بعض الأقاويل ؟ .

بل لا بد أن يجعله عبرة لعباده ، كما جرت بذلك سنته من المتقولين عليه .

---

(١) الحاقة : ٤٤ — ٤٧   (٢) الشورى : ٢٤

قال تعالى : (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا ؟ فَإِنْ يَشَأْ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ)(١) .

ثم أخبر خبرا جازما غير معلق ، أنه : (وَيَمْحُو اللهُ الْبَاطِلَ ، وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ)(٢) .

وقال تعالى :

(وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، إِذْ قَالُوا : مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ، قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ، تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ؛ وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللهُ ، ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)(٣) .

فأخبر أن من نفى عنه الإرسال والكلام ولم يقدره حق قدره ، ولا عرفه كما ينبغي ، ولا عظمه كما يستحق ، فكيف من ظن أنه ينصر الكاذب المفترى عليه ، ويؤيده ويظهر على يديه الآيات والأدلة ؟ .

وهذا في القرآن كثير جدا ، يستدل بكماله المقدس وأوصافه وجلاله على صدق رسله ، وعلى وعده ووعيده ويدعو عباده إلى ذلك ، كما يستدل بأسمائه وصفاته على وحدانيته ، وعلى بطلان الشرك ، كما في قوله :

(هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَـٰنُ الرَّحِيمُ ، هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ، الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ، سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ)(٤) .

وأضعاف أضعاف ذلك في القرآن الكريم .

ويستدل سبحانه بأسمائه وصفاته أيضا على بطلان ما نسب إليه من الأحكام والشرائع الباطله وأن كماله المقدس يمنع من شرعها ، كقوله تعالى :

---

(١) الشورى : ٢٤
(٢) الشورى : ٢٤
(٣) الأنعام : ٩١
(٤) الحشر : ٢٢ ، ٢٣

(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا : وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا ، وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا ، قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَالَا تَعْلَمُونَ ؟)(١) .

والله تعالى بعد أن بين ما نهى عنه وما حرمه من الشرك والظلم ، والفواحش ، والقول عليه بلا علم ، عقب بعد ذلك كله بقوله سبحانه :

(كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا)(٢) .

ليعلمك أن ما كان سيئه في نفسه فهو يكرهه ، وكماله تعالى يأبى أن يجعله شرعا له ودينا ، فهو سبحانه يدل عباده بأسمائه وصفاته على ما يفعله ويأمر به ، وما يحبه ويبغضه ، ويثيب عليه ويعاقب عليه ، ولكن هذه الطريق لا يصل إليها إلا خاصة الخاصة ، فلذلك كانت طريقة الجمهور : الدلالات بالآيات المشاهدة ، فإنها أوسع وأسهل تناولا ، والله سبحانه وتعالى يفضل بعض خلقه على بعض ، ويرفع درجات من يشاء ، وهو العليم الحكيم .

فالقرآن العظيم قد اجتمع فيه ما لم يجتمع فى غيره ، فإنه هو الدعوة الصادقة ، والحجة القوية القاطعة ، وهو الدليل والمدلون عليه ، وهو الشاهد والمشهود له ، وهو الحكم والدليل ، وهو الدعوى والبينة قال الله تعالى :

(أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ؟)(٣) .

وقال تعالى لمن طلب آية تدل على صدق رسوله ﷺ :

(أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ؟ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ، قُلْ : كَفَى بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ، يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)(٤) .

---

(١) الأعراف : ٢٨
(٢) الإسراء : ٣٨
(٣) هود : ١٧
(٤) العنكبوت : ٥١ ، ٥٢

فأخبر سبحانه أن الكتاب الذى أنزله على رسوله يكفى عن كل آية ، ففيه الحجة والدلالة على أنه من الله سبحانه ، وأن الله سبحانه أرسل به رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، وفيه بيان ما يوجب لمن اتبعه السعادة ، وينجيه من العذاب فى الدنيا والآخرة .

ثم قال عز وجل :

(قُلْ كَفَى بِاللهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ)[1] .

فإذا كان الله سبحانه وتعالى عالما بجميع الأشياء : كانت شهادته أصدق شهادة وأعدلها ، لأنها شهادة بعلم تام ، محيط بالمشهود به ، فيكون الشاهد به أعدل الشهداء وأصدقهم وهو سبحانه يذكر :

علمه عند شهادته ، وقدرته وملكه عند مجازاته ، وحكمته عند خلقه وأمره ، ورحمته عند ذكر إرسال رسوله ، وحلمه عند ذكر ذنوب عباده ومعاصيهم ، وسمعه عند ذكر دعائهم ، ومسألته وعزته وعلمه عند قضائه وقدره .

فتأمل ورود أسمائه الحسنى فى كتابه ، وارتباطها بالخلق والأمر ، والثواب والعقاب .

ومن هذا قوله تعالى :

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَسْتَ مُرْسَلًا ، قُلْ : كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَينِى وَبَيْنَكُمْ ، وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ)[2] .

---

(١) العنكبوت : ٥٢ (٥٣) الرعد : ٤٣

فاستشهد على رسالته بشهادة الله له ، ولا بد أن تعلم هذه الشهادة ، وتقوم بها الحجة على المكذبين به ، والمعاندين له .

وكذلك قوله سبحانه :

(قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ؟ قُلِ : اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ)(١) .

وكذلك قوله تعالى :

(لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ، وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ، وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا)(٢) .

وكذلك قوله سبحانه :

(يس ، وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ، إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ، عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)(٣) .

وقوله تعالى : (تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيكَ بِالْحَقِّ ، وإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)(٤) .

وقوله سبحانه : (وَاللهُ يَعْلَمُ أَنَّكَ لَرَسُولُه)(٥) .

وقوله تعالى : (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ)(٦) .

فهذا كله شهادة منه سبحانه وتعالى ، لرسوله ﷺ ، وقد أظهرها وبينها وبين صحتها غاية البيان ، بحيث قطع العذر بينه وبين عباده ، وأقام الحجة عليهم .

فكونه سبحانه شاهدا لرسوله ﷺ ، معلوم بسائر أنواع الأدلة ، عقليها ونقليها ، وفطريها وضروريها ونظريها .

---

(١) الأنعام : ١٩
(٢) النساء : ١٦٦
(٣) يس : ١ — ٤
(٤) البقرة : ٢٥٢
(٥) المنافقون : ١
(٦) الفتح : ٢٩

ومن نظر فى ذلك وتأمله : علم أن الله سبحانه وتعالى ، شهد لرسوله ﷺ ، أصدق الشهادة ، وأعدلها وأظهرها ، وصدقه بسائر أنواع التصديق ، بقوله الذى أقام البراهين على صدقه فيه ، وبفعله وإقراره ، وبما فطر عليه عباده : من الإقرار بكماله ، وتنزيهه عن القبائح ، وعما لا يليق به ، وفى كل وقت يحدث من الآيات الدالة على صدق رسوله ﷺ ما يقيم به الحجة ، ويزيل به العذر ، ويحكم له ولأتباعه بما وعدهم به من العزة والنجاة والظفر والتأييد ، ويحكم على أعدائه ومكذبيه بما توعدهم به ، من الخزى والنكال ، والعقوبات المعجلة الدالة على تحقيق العقوبات المؤجلة :

(هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا)[١] .

فيظهره ظهورين : ظهورا بالحجة والبيان ، والدلالة ، وظهورا بالنصر والظفر والغلبة ، والتأييد ، حتى يظهره على مخالفيه ، ويكون منصورا .

وقول الحق سبحانه :

(لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيكَ ، أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ))[٢] .

فيه ما فيه من الإخبار عن علم الله الذى لا يعلمه غيره ، والذى هو من أعظم الشهادة ، بأنه هو الذى أنزله ، كما قال سبحانه فى الآية الكريمة الأخرى :

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ : فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ، وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ ، وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ؟)[٣] .

وليس المراد مجرد الإخبار بأنه أنزله ، وهو معلوم له ، كما يعلم سائر الأشياء ، فإن كل شىء معلوم له من حق وباطل ، وإنما المعنى : انزله مشتملا

---

(١) الفتح : ٢٨ (٢) النساء : ٦٦ (٣) هود : ١٤

على علمه ، فنزوله مشتملا على علمه : هو آية كونه من عنده ، وأنه حق وصدق .

ونظير هذا قوله تعالى :

(قُلْ : أَنْزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ)[١] .

فإنه سبحانه ذكر ذلك تكذيبا وردا على من قال افتراه .

ومن شهادته أيضا سبحانه وتعالى : ما أودعه فى قلوب عباده : من التصديق الجازم ، واليقين الثابت ، والطمانينة بصدق كلامه ووحيه ، فإن العادة تحيل حصول ذلك بما هو من أعظم الكذب والافتراء على الله رب العالمين ، والإخبار عنه ، بخلاف ما هو عليه من أسمائه وصفاته ، بل ذلك يوقع أعظم الريب والشك ، وتدفعه الفطر والعقول السليمة ، كما تدفع الفطر التى فطر عليها الحيوان ، الأغذية الخبيثة الضارة التى لا تغذى .

لأن الله سبحانه فطر القلوب على قبول الحق والانقياد له ، والطمأنينه به ، والسكون إليه ومحبته .

كما فطرها سبحانه على بغض الكذب والباطل والنفور عنه ، والريبة به ، وعدم السكون إليه ولو بقيت الفطر على حالها لما آثرت على الحق سواه ، ولما سكنت إلا إليه ، ولا اطمأنت إلا به ، ولا أحبت غيره ، ولهذا ندب الله عز وجل عباده إلى تدبر القرآن الكريم ، فإن كل من تدبره أوجب له تدبره علما ضروريا ويقينا جازما ، أنه حق وصدق ، بل أحق كل حق ، وأصدق كل صدق ، وأن الذى جاء به أصدق خلق الله وأبرهم ، وأكملهم علما وعملا ، ومعرفة كما قال تعالى :

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ، أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ؟)[٢] .

فلو رفعت الأقفال عن القلوب لباشرتها حقائق القرآن ، واستنارت فيها

---

(١) الفرقان : ٦ (٢) محمد : ٢٤

مصابيح الإيمان ، وعلمه علما ضروريا يكون عندها كسائر الأمور الوجدانية ، من الفرح والألم ، والحب والخوف ، والإيمان بأنه من عند الله تعالى ، تكلم به حقا ، وبلغه رسوله جبريل عنه إلى نبيه ورسوله سيدنا محمد ﷺ صدقا .

فهذا الشاهد فى القلوب من أعظم الشواهد ، وبه احتج هرقل على أبى سفيان حيث قال له :

« فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه ، بعد أن يدخل فيه ؟ قال : لا .

فقال له : وكذلك الإيمان إذا خالطت حلاوته بشاشة القلوب لا يسخطه أحد » .

وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى فى قوله سبحانه :

(بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ)[١] .

وقوله سبحانه :

(وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنْزِلَ إِلَيكَ مِنْ رَبِّكَ : هُوَ الْحَقُّ)[٢] .

وقوله تعالى :

(أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ؟)[٣] .

وقوله سبحانه :

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيهِ مَنْ أَنَابَ)[٤] .

فإن الآية التى يقترحونها لا توجب هداية ، بل الله وحده هو الذى يهدى وهو الذى يضل :

---

(١) العنكبوت : ٤٩ (٢) سبأ : ٦

(٣) الرعد : ١٩ (٤) الرعد : ٢٧

(فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ)(١) .

لهذا نبه الله سبحانه وتعالى على أعظم آية وأجلها ، وهى : طمأنينة قلوب المؤمنين بذكره الذى أنزله ، فقال سبحانه :

(الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)(٢) .

فطمأنينة القلوب الصحيحة ، والفطر السليمة به ، وبكونها إليه : من أعظم الآيات ، إذ يستحيل فى العادة : أن تطمئن القلوب وتسكن إلى الكذب والافتراء والباطل .

فإن قيل : فلم لم يذكر الله سبحانه شهادة رسله مع الملائكة ، فيقول : شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة والرسل ، وهو أعظم شهادة من أولى العلم ؟ .

فيجاب عليه : إن أولى العلم أعم من الرسل والأنبياء فيدخلون هم وأتباعهم .

وإن فى ذكر « أولى العلم » فى هذه الشهادة ، وتعليقها بهم : ما يدل على أنها من موجبات العلم ومقتضياته ، وأن من كان من أولى العلم : فإنه يشهد بهذه الشهادة .

كما يقال : إذا طلع الهلال واتضح ، فإن كل من كان من أهل النظر يراه ، وإذا فاحت رائحة ظاهرة ، فإن من كان من أهل الشم يشم هذه الرائحة ، قال تعالى :

(وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى)(٣) .

أى كل من له رؤية يراها حينئذ عيانا .

ففى هذا بيان لمن لم يشهد له الله سبحانه بهذه الشهادة : أنه من أعظم الجهال ، وإن علم من أمور الدنيا ما لم يعلمه غيره ، فهو من أولى الجهل ،

---

(١) الأنعام : ١٢٥ (٢) الرعد : ٢٨ (٣) النازعات : ٣٦

لا من أولى العلم ، وقد بينا أنه لم يقم بهذه الشهادة ، ويؤديها على وجهها : إلا أتباع الرسل أهل الإثبات ، فهم أولوا العلم وسائر من عداهم : أولوا الجهل ، وإن وسعوا القول وأكثروا الجدال .

ومن هذا أيضا : الشهادة من الله سبحانه لأهل هذه الشهادة : أنهم ، « أولوا العلم» — فشهادته لهم أعدل وأصدق من شهادة الجهمية والمعطلة والفرعونية لهم بأنهم جهال وأنهم حشوية ، وأنهم مشبهة ، وأنهم مجسمة ونوابت ونواصب ، فكفاهم أصدق الصادقين لهم بأنهم من « أولى العلم » إذ شهدوا له بحقيقة ما شهد به لنفسه من غير تحريف ولا تعطيل ، وأثبتوا له حقيقة هذه الشهادة ومضمونها ، وخصومهم نفوا عنه حقائقها ، وأثبتوا له ألفاظها ومجازاتها .

وفى ضمن هذه الشهادة الإلهية : الثناء على أهل العلم الشاهدين بها وتعديلهم ، فإنه سبحانه قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته ، واستشهد بهم ، جلَّ وعلا ، على أجلِّ مشهود به ، وجعلهم حجة على من أنكر هذه الشهادة ، كما يحتج بالبينة على من أنكر الحق ، فالحجة قامت بالرسل على الخلق ، وهؤلاء نواب الرسل وخلفاؤهم ، فى إقامة حجج الله على العباد .

وقد فسرت « شهادة أولى العلم » بالإقرار ، وفسرت بالتبيين والإظهار ، والصحيح أنها تتضمن الأمرين معا ، فشهادتهم إقرار ، وإظهار ، وإعلام ، وهم شهداء الله على الناس يوم القيامة قال الله تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ، لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ، وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ ، وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾[1] .

---

(١) البقرة : ١٤٣

فأخبر سبحانه : أنه جعلهم عدولا خيارا ، ونوه بذكرهم قبل أن يوجدهم ، لما سبق في علمه من اتخاذه لهم شهداء يشهدون على الأمم يوم القيامة .

فمن لم يقم بهذه الشهادة ، علما وعملا ، ومعرفة وإقرارا ، ودعوة وتعليما ، وإرشادا ، فليس من شهداء الله سبحانه .

وقد دل قوله : (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ)[1] على أنه دين جميع أنبيائه ورسله وأتباعهم من أولهم إلى آخرهم ، وأنه لم يكن لله قط ولا يكون له دين سواه .

قال أول الرسل نبي الله نوح عليه السلام لقومه :

(فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)[2] .

وقال إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام :

(رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ)[3] .

(وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ : يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ ، فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)[4] .

وقال يعقوب عليه السلام لبنيه عند الموت :

(مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِي ؟ قَالُوا : نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ ، وَإِسْمَاعِيلَ ، وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)[5] .

وقال موسى عليه السلام لقومه :

(إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ)[6] .

---

(١) آل عمران : ١٩ (٢) يونس : ٦٢ (٣) البقرة : ١٢٨
(٤) البقرة : ١٣٢ (٥) البقرة : ١٣٣ (٦) يونس : ٨٤

وقال تعالى :

(فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ : مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ ، آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)(١) .

وقالت ملكة سبأ :

(رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى ، وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)(٢) .

فالإسلام دين أهل السماوات ، ودين أهل التوحيد من أهل الأرض ، لا يقبل الله من أحد دينا سواه .

يقول سبحانه :

(وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ، وَهُوَ فِى الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)(٣) .

وأديان أهل الأرض ستة ، واحد للرحمن ، وخمسة للشيطان :

فدين الرحمن : هو الإسلام ، والتى للشيطان : اليهودية ، والنصرانية . والمجوسية والصابئة ، ودين المشركين يقول سبحانه :

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ)(٤)

ويقول تعالى : (وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا)(٥) .

وبهذا التبيان الواضح تبين لنا بعض ما تضمنته هذه الآية العظيمة من أسرار التوحيد والمعارف ، وإنما نطق العلماء بما نطقوا به ، وأشار المحققون إلى ما أشاروا إليه من هذا الطريق : لقصد تصحيح التوحيد وبيان أن ما سواه ، من حال أو مقام : فكله مصحوب بالعلل .

أما التوحيد : الحقيقى ، الذى هو مفتاح دعوة الرسل ، فهو الغاية المطلوبة من جميع المقامات والأعمال والأحوال التى غايتها كلها التوحيد

---

(١) آل عمران : ٥٢ (٢) النمل : ٤٤ (٣) آل عمران : ٨٥
(٤) آل عمران : ١٩ (٥) المائدة : ٣

الصادق ، وإنما كلام العلماء والمحققين ، من أهل السلوك فكله لقصد تصحيحه ، وهذا بين من أول المقامات إلى آخرها ، فإنها تبشير الى تصحيحه وتجريده .

ومعنى « وما سواه من حال أو مقام فكله مصحوب بالعلل » المراد منه عند العلماء :

أن تجريد التوحيد لا علة معه ، إذ لو كان معه علة تصحبه لم يجرد ، فتجرده ينفى عنه العلل بالكلية بخلاف ما سواه من المقامات والأحوال ، فإن العلل تصحبها .

وعندهم أيضا : أن علل المقامات لا تزول بتجريد التوحيد ، مثاله : إن علة « مقام التوكل » أن يشهد متوكلا عليه ، ومتوكلا فيه ، ويشهد نفس توكله ، وهذا كله علة فى مقام التوكل ، فإنه لا يصح له مقامه إلا بأن لا يشهد مع الوكيل الحق الذى يتوكل عليه غيره ، ولا يرى توكله عليه سببا لحصول المطلوب ، ولا وسيلة إليه ، وهذه مرتبة خاصة من مراتب الخواص .

وبعد : فقد أخرج الإمام أحمد فى مسنده ، والترمذى فى سننه ، وابن جرير فى تفسيره من طرق ، عن عدى بن حاتم رضى الله عنه :

أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ ، فر إلى الشام ، وكان قد تنصر فى الجاهلية فأسرت أخته وجماعة من قومه ، ثم منَّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها فرجعت إلى أخيها ، فرغبته فى الإسلام ، وفى القدوم على رسول الله ﷺ ، فقدم عدى المدينة ، وكان رئيسا فى قومه طيىء وأبوه حاتم الطائى المشهور بالكرم ، فتحدث الناس بقدومه ، فدخل على رسول الله ﷺ ، وفى عنق عدى صليب من فضة ، وهو يقرأ هذه الآية :

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ)[1]

---

(١) التوبة : ٣٠

قال : قلت : إنهم لم يعبدوهم ، فقال : بلى ،

إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم .

ثم قال رسول الله ﷺ : يا عدى ما تقول ؟

أيضرك أن يقال : الله أكبر ؟ فهل تعلم شيئا أكبر من الله ؟

ما يضرك أن يقال : لا إله إلا الله ؟ فهل تعلم إلـٰها غير الله ؟

ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق .

قال : فلقد رأيت وجهه استبشر ، ثم قال :

إن اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون » .

ويعلق الشهاب على هذا البيان النبوى المعصوم تعليقا نفيسا فيقول :

« وهذا هو تفسير النبى ﷺ ، فينبغى الاقتصار عليه ، لأنه لما أتاه عدى بن حاتم وهو يقرؤها قال له : إنا لم نعبدهم ، فقال :

ألم تتبعوهم فى التحليل والتحريم ؟ فهذه هى العبادة .

والناس يقولون : فلان يعبد فلانا ، إذا أفرط فى طاعته ، فهو استعارة بتشبيه الإطاعة بالعبادة »

وقال الربيع : قلت لأبى العالية :

كيف كانت تلك الربوبية فى بنى إسرائيل ؟ فقال :

إنهم ربما وجدوا فى كتاب الله ما يخالف أقوال الأحبار والرهبان ، فكانوا يأخذون بأقوالهم ، وما كانوا يقبلون حكم كتاب الله تعالى » .

ويخبرنا سيدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، بسمو مكانة هذا الدين ، وعموم انتشاره ، فيقول فيما أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ، عن تميم الدارى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ، ولا وبر ، إلا أدخله هذا الدين ، يعز عزيزا ويذل ذليلا ، عزا يعز الله به الإسلام ، وذلا يذل الله به الكفر » .

وكان تميم الدارى رضى الله عنه يقول :

قد عرفت ذلك فى أهل بيتى ، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والعز ، ولقد أصاب من كان كافرا منهم الذل والصغار والجزية .

وأخرج الإمام أحمد فى مسنده عن عدى بن حاتم قال :

دخلت على رسول الله ﷺ فقال : يا عدى ، أسلم تسلم .

فقلت : إنى من أهل دين ، فقال : أنا أعلم بدينك منك .

فقلت : أنت أعلم بدينى منى ؟ قال نعم .

ألست من الركوسية ــ قوم لهم دين بين النصارى والصابئين ــ وأنت تأكل مرباع ــ كالمعشار بمعنى العشر ــ قومك ؟ قلت : بلى :

قال : فإن هذا لا يحل لك فى دينك ، قال : فلم يعد أن قالها ، فتواضعت كلها .

قال : أما إنى أعلم ما الذى يمنعك عن الإسلام ، تقول : إنما اتبعه ضعفة الناس ، ومن لا قوة له ، وقد رمتهم العرب ، أتعرف الحيرة ؟ قلت : لم أرها وقد سمعت بها .

قال : فوالذى نفسى بيده ليتمن الله هذا الأمر ، حتى تخرج الظعينة من الحيرة ، حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز .

قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : نعم ، كسرى بن هرمز ، وليبدلن المال حتى لا يقبله أحد .

قال عدى بن حاتم : فهذه الظعينة ، تخرج من الحيرة ، فتطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذى نفسى بيده ، لتكونن الثالثة ، لأن رسول الله ﷺ قد قالها » اهـ .

ويقول قتادة بن دعامة السدوسى رحمه الله تعالى :

وكان هذا الحى[١] من العرب أذل الناس ، وأشقاه عيشا ، وأجوعه بطونا ، وأعراه جلودا ، وأثبته ضلالا ، والله ما نعلم قبيلا من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلا منهم ، حتى جاء الله بالإسلام ، فمكن به فى البلاد ، ووسع به الرزق ، وجعلهم به ملوكا على رقاب الناس ، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم ، فاشكروا الله على نعمه ، فإن ربكم منعم يحب الشكر ، وأهل الشكر فى مزيد من الله سبحانه وتعالى .

---

(١) يقصد بالحى المهاجرين .



الباب الثانى

* وإلٰهكم إلٰه واحد
* إن فى خلق السمٰوات والأرض
* لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا



الفصل الأول

« وإلٰهكم إلٰه واحد »



وإلٰهكم إلٰه واحد

يقول الله تعالى :

(وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ)[١]

آية كريمة من قرآن كريم معصوم ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لا يعتريه شك ولا تحيط به ظنون ، ولا يتخلله ريب ، ولا يلحق به تغيير أو فتور .

هذا القرآن المجيد يثبت بهذه الآية المنزهة المقدسة ، وحدانية الله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى ليس له شبيه ولا مثيل ، ولا شريك له ولا نظير .

بل إنه أثبت ويثبت كذلك ، أن الله سبحانه واحد فى ذاته لا قسيم له ، وواحد فى صفاته لا شبيه له ، وواحد فى أفعاله لا شريك له .

وسبب نزول هذه الآية أن كفار قريش قالوا : يا محمد صف لنا ربك وانسبه ، فأنزل الله هذه الآية ، وسورة الإخلاص (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ..)[٢] .

ومعنى الوحدة : الانفراد ، وحقيقة الواحد هو الشيء الذى لا يتبعض ولا ينقسم ، والواحد فى صفة الله أنه واحد لا نظير له ، وليس كمثله شيء .

وقيل : واحد فى ألوهيته وربوبيته ، ليس له شريك ، لأن المشركين أشركوا معه الآلهة فكذبهم الله تعالى بقوله : (وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ) .

فهو لا شريك له فى ألوهيته ، ولا نظير له فى الربوبية .

والتوحيد : هو نفى الشريك والقسيم والشبيه .

فالله تعالى واحد فى أفعاله لا شريك له يشاركه فى مصنوعاته ، وواحد فى ذاته لا قسيم له ، وواحد فى صفاته لا يشبهه شيء من خلقه .

ولا إله إلا هو ، تقرير للوحدانية بنفى غيره من الألوهية وإثباتها له سبحانه وتعالى .

---

(١) البقرة : ١٦٣ (٢) الإخلاص : ١

فهو خبر منه سبحانه وتعالى ، بأنه لا رب للعالمين غيره ، ولا يستوجب على العباد : العبادة سواه ، وأن كل ما سواه فهم خلقه ، والواجب على جميعهم طاعته والانقياد لأمره وترك عبادة ما سواه من الأنداد والآلهة المزعومة ، فإن الألوهية لا تنبغي إلا له ، كما يجب هجر الأوثان والأصنام ، لأن جميع ذلك خلقه ، وعلى جميعهم الديانة له بالوحدانية ، والألوهية فلا تنبغي الألوهية إلا له ، فجميع ما بهم من نعمة في الدنيا فمنه وحده دون ما يعبدونه من الأصنام والأوثان ، وما يشركون معه من الإشراك ، كما أن كل ما يصيرون إليه من نعمة في الآخرة فمنه وحده كذلك ، وأن ما أشركوا معه من الإشراك لا يضر ولا ينفع في عاجل ، ولا في آجل ، ولا في آخرة ، وهذا تنبيه من الله تعالى بالآية التي تتلوها ، وهي موضع استدلال ذوي الألباب منهم على حقيقة ما نبههم عليه من توحيده ، وحججه الواضحة القاطعة لعذرهم ، فقال :

« أيها المشركون إن جهلتم أو شككتم في حقيقة ما أخبرتكم من الخبر من أن إلهكم واحد ، دون ما تدعون ألوهيته من الأنداد والأوثان ، فتدبروا حججي وفكروا فيها ، فإن من حججي خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر ، بما ينفع الناس ، وما أنزلت من السماء من ماء ، فأحييت به الأرض بعد موتها ، وما بثثت فيها من كل دابة ، والسحاب الذي سخرته بين السماء والأرض ، فإن كل ما تعبدونه من الأصنام والآلهة والأنداد وسائر ما تشركون به ، إذا اجتمع جميعه فتظاهر وتعاون ، أو انفرد بعضه دون بعض ، لا يقدر على أن يخلق نظير شيء من خلقي الذي سميت لكم ، فلكم بعبادتكم وما تعبدون من دوني حينئذ عذر ، وإلا فلا عذر لكم في اتخاذ إله سواي ، ولا إله لكم وما تعبدون غيري ، فليتدبر أولوا الألباب إيجاز الله تعالى ، واحتجاجه على جميع أهل الكفر به ، والملحدين في توحيده ، وفي هذه الآية وفي التي بعدها أوجز كلام وأبلغ حجة ، وألطف معنى ، يشرف بهم على معرفة فضل حكمة الله سبحانه .

والواحد في قوله سبحانه (وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ) هو الشيء الذي لا ينقسم

من جهة ما قيل له إنه واحد ، وقد يكون اسما وذلك فى العدد ، وقد يكون صفة كقولك : شخص واحد ، ومعناه أنه لا ينقسم من جهة ما قيل له إنه واحد .

والإنسان الواحد ، يستحيل أن ينقسم من حيث هو إنسان إلى إنسانين ، بل قد ينقسم إلى الأبعاض والأجزاء من الموجودات ، وذلك من جهة أخرى ، وهو لا ينفك عن الوحدة .

والله سبحانه وتعالى شرف بنى البشر غاية التشريف بقوله : (وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) وإن شيوخ طائفة السادة الأكابر من أهل الفضل والعلم قالوا :

علامة من يعده من خاص الخواص أن يقول له : عبدى ، وذلك أتم من هذا بكثير ، لأن قوله :

« وإلهكم » وإضافة نعمته أتم من إضافته إياك إلى نفسه ، لأن إلهيته لك بلا علة ، وكونك له عبد يعوض كل نقصك وآفتك .

ومتى قال لكم « وإلـٰهكم » ؟

هل حين كانت طاعتك وحركاتك وسكناتك ، أو ذاتك وصفاتك؟ لا ، بل قيل ذلك أزل الأزل حين لا حين ، ولا أوان ، ولا رسم ولا حدثان .

« والواحد » من لا مثل له يدانيه ، ولا شكل يلاقيه ، لا قسيم بجانبه ، ولا نديم يؤانسه ، ولا شريك يعاضده ولا معين يساعده ، ولا منازع يعانده ، (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)[1] .

أحدى الحق ، صمدى العين ، ديمومى البقاء ، أبدى العز ، أزلى الذات ..

واحد فى عز سنائه ، فرد فى جلال بهائه ، وتر فى جبروت كبريائه ، قديم فى سلطان عزه ، مجيد فى جمال ملكوته وملكه .

وكل من أطنب فى وصفه أصبح منسوبا إلى العمى ، فلولا أنه الرحمن الرحيم ، لتلاشى العبد إذا تعرض لعرفانه عند أول ساطع من باديات عزه .

---

(١) الشورى : ١١

فهو سبحانه واحد تقرب إلى قلوب الطالبين من أصحاب الاستدلال ، وأرباب العقول بدلالات قدرته ، وأمارات وجوده ، وسمات ربوبيته ، التي هي أقسام أفعاله ، ونبههم على وجود الحكمة ، ودلالات الوحدانية ، بما أثبت فيها من براهين تلطف عن العبارة ، ووجوه من الدلالات تدق عن الإشارة ، فما من عين من العدم محصولة ، سواء من شخص أو رسم أو أثر ، أو سماء أو فضاء أو هواء أو ماء ، أو شمس أو قمر ، أو قطر أو مطر ، أو رمل أو حجر ، أو نجم أو شجر ، إلا وهو على الوحدانية دليل ، ولمن يقصد وجوده سبيل .

« فالواحد الأحد » اسمان من أسمائه سبحانه .

قال تعالى : (وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَـٰنُ الرَّحِيمُ) .

وقال سبحانه :

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) .

وقال تبارك وتعالى : (لَا تَتَّخِذُوا إِلَـٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ)

وقال رسول الله ﷺ في حديث طويل :

« إن رجلا فيمن كان قبلكم لم يعمل خيرا قط إلا التوحيد ، فقال لأهله : إذا مت أحرقوني ، ثم اسحقوني ، ثم ذروني : نصفي في البر ونصفي في البحر في يوم رائح ، ففعلوا ، فقال الله عز وجل للريح : اجمعي ما أخذت ، فإذا هو بين يديه فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : استحياء منك فقال الله تعالى : وأنا غفرت لك (١) .

وحقيقة التوحيد مركب في إثبات توحيد شيء ما ، وفي كمال معرفة توحيده .

(١) والحديث أخرجه نصر بن محمد السمرقندي بإسناده إلى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وهو في الصحيحين .

وكما أن الله تبارك وتعالى واحد ليس له شريك فى ذاته ولا فى صفاته ، وليس له بديل ولا شريك فى أعماله ، وحيث أن الموحدين يعتقدون بأنه كذلك ، فمعرفتهم بالتوحيد تسمى توحيدا .

والواحد حقيقة هو الذى لا قسم له ، ولا يستثنى منه .

هذه حقيقته عند أهل التحقيق .

فقولهم دار واحدة مجاز لأنه يصح استثناء البعض منها .

وقال ابن فورك رحمه الله تعالى :

الواحد فى وصفه عز وجل له ثلاثة معان :

أحدها : أنه لا قسم لذاته ، فإنه غير متبعض ولا متجزىء .

والثانى : أنه لا شبيه له ، تقول العرب : فلان واحد فى عصره ، أى لا نظير له .

والثالث : أنه لا شريك له فى أفعاله ، يقال فلان متوحد بهذا الأمر ، أى لا يشاركه فيه أحد ولا يعاونه .

والأولون قالوا : هذه المعانى الثلاثة مستحقة لله تعالى ، ولكن لفظ التوحيد فيه حقيقة فى نفى القسمة مجاز فى الباقى .

ومن الناس من لا يفرق بين الواحد والأحد فى المعنى ، ومنهم من يفرق فيقول :

الواحد اسم لمفتتح العدد ، يقال واحد ، اثنان ، ثلاثة .

والأحد : اسم لنفى مايذكر معه من العدد ، وقيل : الأحد يذكر مع الجحد ، فيقال : ما جاءنى أحد ، معناه نفى مجىء الواحد ، وما فوقه أيضا ، ويقال جاءنى واحد ، ولا يقال جاءنى أحد .

وقيل : الأحد إنما يذكر فى الإثبات فى وصف الله عز وجل على وجه التخصيص قال تعالى :

(قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) .

ولا يقال هو الرجل الأحد ، ولا رجل أحد ، ولكن يقال فى وصفه وحيد وواحد .

والتوحيد هو الحكم بأنه سبحانه وتعالى واحد ، وذلك الحكم يكون بالقول ، وبالعلم ، وبالإشارة بالأصبع .

والتوحيد : على ثلاثة أنواع :

توحيد الحق سبحانه وتعالى لنفسه ، وهو علمه بأنه واحد ، وإخباره بأنه واحد .

وتوحيد الله فى خلقه : وذلك أمره للإنسان بنطق التوحيد ، وخلق التوحيد فى قلبه ، وتوفيقه له .

وتوحيد الناس لله : وذلك معرفتهم بتوحيده ، والنطق بأنه واحد غير قابل للجمع أو الفرق ، أو قابل للاثنينية .

وأن وحدانيته ليست فى عدد حتى تكون اثنين بجمع واحد للآخر .

وأنه ليس محدودا حتى تكون له ست جهات ، وإثبات الأعداد لا نهاية له .

وأنه ليس له مكان ، وليس فى مكان حتى يمكن إثبات المكان ، والمكان يحتاج إلى مثبت ومبطل ، حكم الفعل والفاعل ، والقديم والمحدث .

وأنه ليس عرضا حتى يحتاج إلى جوهر ،

وأنه ليس بجوهر حتى يحتاج إلى من يوجده من نوعه ،

وأنه ليس بطبع تثبت فيه الحركة والسكون .

وأنه ليس بروح حتى يحتاج إلى هيكل تحل فيه ،

وأنه ليس بجسم مركب من أعضاء .

وأنه لا يحل فى الأشياء وليست الأشياء محلا له .

وأنه ليس متصلا بأى ، لأنه لو كان كذلك لكان جزءا منه .

وأنه بعيد عن النقائص ومنزه عن العيب ،

وأنه لا شبيه له حتى لا يستوى معه خلقه ،

وأنه لا ولد له يجعله أصلا ، وأن ذاته وصفاته لا تتغير ،

وأنه متصف بكل صفات الكمال التى يثبتها له المؤمنون والموحدون ، والتى وصف بها نفسه ،

وأنه منزه عن الصفات التى ينسبها إليه الملحدون ، تعالى الله عما يقول الظالمون ، وأنه حى عالم غافر كريم ، مريد قادر ، سميع بصير ، متكلم باق ، وأن علمه ليس حالاً فيه ، وأن قدرته ليست صلبة فيه ، وأن سمعه وبصره ليسا متجردين عنده ، وأن كلامه ليس منقسما فيه .

وأنه هو بصفاته موجود فى القدم ، وأن الأشياء المحدثة ليست خارجة عن علمه ، وأن كل الكائنات متوقفة على إرادته ، وأن ما سبق فى علمه يكون .

وأنه لا يحيط بعلمه أحد من خلقه ، ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء .

وأنه مطلق فى حكمه ، وأن أحبابه لا يجدون ملجأ إلا التسليم والتفويض له ، وأنه سبحانه وتعالى خالق الخير والشر ، ومقدرهما : (قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ)[1] .

وأنه هو الذى يخاف مقامه ، ويرجى منه الخير

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)[2] .

وأنه بيده الحكم وحكمه عدل :

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[3] .

وأنه لا يمكن لأحد الوصول إليه ، وأن أهل الجنة سيرونه :

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)[4]

---

(١) النساء : ٧٨ (٢) الرحمن : ٤٦ (٣) آل عمران : ٢٦

(٤) القيامة : ٣٢ ، ٣٣

وأن التشبيه غير مقبول فى حقه ،

وأن المقابلة والمواجهة لا تنطبقان على جنابه الأقدس .

وأن أولياءه يتمتعون بمشاهدته فى هذه الدنيا .

وكل من يعلم أنه كذلك ليس أهلا لقطيعه ، وكل من يعلم خلاف ذلك فهو ليس من أهل الدين ، وفى هذا كلام كثير فى الأصول لا داعى لسرده خشية التطويل .

يقول على بن عثمان الجلابى رضى الله عنه :

« إن التوحيد مبنى على إثبات الوحدة لشيء ما ، وأن ذلك الإثبات لا يمكن أن يقرر بغير معرفة ، فأهل السنة أثبتوا توحيد الله بالفهم الحقيقى ، وذلك لشهود دقة العمل ، وغريب الحكمة ، وأن هذه الأشياء لا يمكن أن توجد بنفسها وبدون صانع ، وأنهم أثبتوا براهين وأدلة على حدوث الأشياء ، وأنهم أوجبوا وجود الفاعل الذى خلق هذا العالم من أرض وسماء ، وشمس وقمر، وبر و بحر ، وجبل وصحراء ، وحركات الكائنات وسكناتها ، وعلمها ونطقها ، وحياتها و موتها ، وأنه لا بد لكل هذه الأشياء من صانع لا يستغني عنه .

لذلك فأهل السنة فى نفيهم وجود صانعين أو ثلاثة ، يثبتون لأنفسهم الاكتفاء بصانع واحد ، كامل ، حيى عليم ، قادر ، لا شريك له .

وكما أن الفعل يحتاج إلى فاعل واحد على الأقل ، فوجود فاعلين لفعل واحد يوجب استقلال الواحد عن الآخر .

فمن ذلك أن الفاعل واحد فى الحقيقة بلا جدال ،

ونحن فى هذا الصدد على طرفى نقيض مع أصحاب المذاهب :

الثنوية الذين يقولون : بالنور والظلام .

ومع المجوس ، الذين يعتقدون بيزدان واهريمن ،

ومع الفلاسفة الطبيعيين، الذين يقولون : بالطبع والقوة »

ومع الفلكيين الذين يصدقون بالأفلاك السبعة ،

ومع المعتزلة : الذين يقولون بتعدد الخالقية ، والصناع بدون حد .

وقد وضحت كل هذه الآراء الفاسدة فى كتب السلف الصالح ، فليس هنا مجال بيان نزهات تلك الطوائف .

بهذا كله ثبت أن الحق سبحانه وتعالى واحد ، لأن ذاته سبحانه وتعالى ليست مركبة من اجتماع أمور كثيرة ، وليس فى الوجود ما يشاركه فى كونه واجب الوجود ، وفى كونه مبدأ لوجود جميع الممكنات .

يقول الجبائى : « يوصف الله تعالى بأنه واحد من وجوه أربعة :

لأنه ليس بذى أبعاض ، ولا بذى أجزاء ،

ولأنه منفرد بالقدم ، ولأنه منفرد بالإلهية .

ولأنه منفرد بصفات ذاته ، نحو كونه عالما بنفسه ، وقادرا بنفسه » اهـ .

وأبو هاشم يقتصر على ثلاثة أوجه :

فجعل تفرده بالقدم وبصفات الذات وجها واحدا .

وفى هذه الآية المراد تفرده بالإلهية فقط ، لأنه أضاف التوحيد إلى ذلك ، ولذلك عقبه بقوله (لا إله إلا هو) فهو سبحانه وتعالى واحد فى ذاته لا قسيم له ، وواحد فى صفاته لا شبيه له ، وواحد فى أفعاله لا شريك له ، أما أنه واحد فى ذاته ، فلأن تلك الذات المخصوصة التى هى المشار إليها بقولنا هو الحق سبحانه وتعالى : إما أن تكون حاصلة فى شخص آخر سواه أو لا تكون ، فإن كان الأول كان امتياز ذاته المعينة عن المعنى الآخر ، لا بد و أن يكون بقيد زائد ، فيكون هو فى نفسه مركبا بما به الاشتراك وما به الامتياز ، فيكون ممكنا معلولا مفتقرا وذلك محال .

وإن لم يكن فقد ثبت أنه سبحانه واحد فى ذاته لا قسيم له .

وأما أنه واحد فى صفاته فلأن موصوفيته سبحانه بصفات متميزة عن موصوفية غيره بصفات من وجوه :

أحدها : أن كل ما عداه فان ، لأن حصول صفاته له لا تكون من نفسه ، بل من غيره ، وهو سبحانه يستحق حصول صفاته لنفسه لا لغيره .

وثانيها : أن صفات غيره مختصة بزمان دون زمان ، لأنها حادثة ، وصفات الحق ليست كذلك .

وثالثها : أن صفات الحق غير متناهية بحسب المتعلقات ، فإن علمه متعلق بجميع المعلومات ، وقدرته متعلقة بجميع القدرات ، بل في كل واحد من المعلومات الغير المتناهية معلومات غير متناهية كذلك ، لأنه يعلم فى ذلك الجوهر الفرد أنه كيف كان ويكون حاله بحسب كل واحد من الأحياز المتناهية ، وبحسب كل واحد من الصفات المتناهية ، فهو سبحانه واحد فى صفاته من هذه الجهة .

ورابعها : أنه سبحانه ليست موصوفية ذاته بتلك الصفات بمعنى كونها حالة في ذاته ، وكون ذاته محلا لها ، ولا أيضا بحسب كون ذاته مستكملة بها ، لأن الذات كالمبدأ لتلك الصفات ، فلو كانت الذات مستكملة بالصفات ، لكان المبدأ ناقصا لذاته ، مستكملا بالممكن لذاته ، وهو محال ، بل ذاته مستكملة لذاته ، ومن لوازم ذلك الاستكمال الذاتى تحقق صفات الكمال معه ، إلا أن التقسيم يعود فى نفس الاستكمال فينتهى إلى حيث تقصر العبارة عن الوفاء به .

خامسها : أنه لا خبر عند العقول من كنه صفاته ، كما لا خبر عندها من كنه ذاته ، لأننا لا نعرف من علمه إلا أنه الأمر الذى لأجله ظهر الإحكام والإتقان فى عالم المخلوقات ، وكذا القول فى كونه قادراً وحيا .

وأما أنه سبحانه وتعالى واحد فى أفعاله ، فالأمر ظاهر ، لأن الموجود إما واجب وإما ممكن ، فالواجب هو هو ، والممكن ماعداه ، وكل ما كان ممكنا فإنه يجوز أن لا يوجد ما لم يتصل بالواجب ولا يختلف هذا الحكم باختلاف أقسام الممكنات ، سواء كان مِلكا أو مَلكا ، أو كان فعلا للعباد أو كان غير ذلك ، فثبت أن كل ما عداه فهو مِلكه ومُلكه ، وتحت تصرفه وقهره ، وقدرته واستيلائه ، وعند هذا تدرك شمة من روائح أسرار قضائه وقدره ، ويلوح لك شيء من حقائق قوله :

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)[١]

وقوله سبحانه :

(اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ، ثُمَّ رَزَقَكُمْ ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ، ثُمَّ يحْيِيكُمْ ، هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)[٢] .

وتعرف أن الموجود ليس إلا ما هو هو ، وما هو له ، وإذا وقعت سفينة الفكرة فى هذه اللجة ، فلو سارت إلى الأبد لم تقف ، لأن السير إنما يكون من شيء إلى شيء ، فالشيء الأول متروك ، والشيء الثانى مطلوب ، وهما متغايران ، فأنت خارج عن عالم الفردانية والوحدانية .

أما إذا وصلت إلى برزخ عالم الحدوث والقدم ، فهناك تنقطع الحركات ، وتضمحل العلامات والأمارات ، ولم يبق فى العقول والألباب إلا مجرد أنه هو .

ومعنى إضافته بقوله : (وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ) إن الإله لما كان هو الذى يستحق أن يكون معبودا ، والذى يليق به أن يكون معبودا ، بهذا الوصف ، إنما يتحقق بالنسبة إلى من يتصور منه عبادة الله تعالى ، فإن هذه الإضافة صحيحة بالنسبة إلى كل المكلفين ، وإلى جميع من تصح صيرورته مكلفا تقديرا .

وقوله« وإلـٰهكم » يدل على أن معنى الإله ما يصح ان تدخله الإضافة ، فلو كان معنى الإله القادر ، لصار المعنى : وقادركم قادر واحد ، ومعلوم أنه ركيك ، فدل على أن الإله هو المعبود بحق .

وهذه إشارة لطيفة من أقوال أهل الإشارات ناسب أن نذكرها بنصها ، وهى :

« الأصل فى قولنا : الله ، الإله ، وهو ستة أحرف ، ويبقى بعد التصرف أربعة فى اللفظ :

ألف ، ولامان ، وهاء .

---

(١) القمر : ٤٩ (٢) الروم : ٤٠

فالهمزة من أقصى الحلق ، واللام من طرف اللسان ، والهاء من أقصى الحلق ،

وهذه حال العبد يبتدىء من النكرة والجهالة ، ويترقى قليلا قليلا فى مقامات العبودية ، حتى إذا وصل إلى آخر مراتب الوسع والطاقة ، ودخل فى عالم المكاشف والأنوار ، أخذ يرجع قليلا قليلا ، حتى ينتهى إلى الفناء فى بحر التوحيد ، ولهذا قالوا : النهاية رجوع إلى البداية .

وقوله : (وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ) معناه : أنه واحد فى الإلهية ، لأن ورود لفظ الواحد بعد لفظ الإله ، يدل على أن تلك الوحدة معتبرة فى الإلهية لا فى غيرها ، وبهذا أفاد قوله : التوحيد التام المحقق .

ثم بقى أن نقول إن هناك قوما يجوزون الاتحاد ويقولون :

إن الأرواح البشرية إذا استنارت بأنوار معرفة تلك الحقيقة ، اتحد العاقل بالمعقول ، وعند الاتحاد يصح لذلك العارف أن يقول : « أنا الله » .

إلا أن هذا الزعم الفاسد ، والقول الباطل بالاتحاد ، غير معقول ولا مسلم ، بل هو طيش وهذيان مردود على من زعمه ، أو قال به .

ذلك أن حال الاتحاد إن فنيا أو أحدهما ، فذاك ليس باتحاد ، وإن بقيا فهما اثنان لا واحد. ولما انسد هذا الطريق ، الذى هو أكمل الطرق فى الإشارة ، بقى الطريقان الآخران ، وهو : « أنت » ، و« هو » .

أما أنت فهو للحاضرين فى مقامات المكاشفات والمشاهدات ، لمن فنى عن جميع الحظوظ البشرية على ما أخبر الله سبحانه وتعالى به عن يونس عليه السلام ، أنه بعد أن فنى عن ظلمات عالم الحدوث ، وعن آثار الحدوث ، وصل إلى مقام الشهود فقال :

(فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ)[1] .

وهذا ينبهك على أنه لا سبيل إلى الوصول إلى مقام المشاهدة والمخاطبة

---

(١) الأنبياء : ٨٧

إلا بالغيبة عن كل ما سواه .

وقال سيدنا محمد ﷺ :

« لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » .

وأما (هو) فللغائبين ،

ثم ههنا بحث ، وهو : أن (هو) فى حقه أشرف الأسماء ، ويدل عليه : أن الاسم إما كلى أو جزئى .

وأعنى بالكلى : أن يكون مفهومه بحيث لا يمنع تصوره من وقوع الشركة .

وأعنى بالجزئى : أن يكون نفس تصوره مانعا من الشركة ، وهو اللفظ الدال عليه من حيث أنه ذلك المعين .

فإن كان الأول المشار إليه بذلك الإسلام ليس هو الحق سبحانه ، لأنه لما كان المفهوم من ذلك الإسلام أمرا لا يمنع الشركة ، وذاته المعينة سبحانه وتعالى مانعة من الشركة ، وجب القطع بأن المشار إليه بذلك الإسلام ليس هو الحق سبحانه وتعالى .

ذلك أن جميع الأسماء المشتقة كالرحمن، والرحيم، والحكيم، والعليم والقادر ، لا يتناول ذاته المخصوصة ، ولا يدل عليها بوجه من الوجوه .

وإن كان الثانى فهو المسمى باسم العلم ، والعلم قائم مقام الإشارة ، فالعلم فرع واسم الإشارة أصل ، والأصل أشرف من الفرع .

فقولنا : يا أنت ، يا هو ، أشرف على سائر الأسماء بالكلية ، إلا أن الفرق أن (أنت) لفظ يتناول الحاضر ، و (هو) يتناول الغائب .

وفيه سر آخر وهو أن (هو) إنما يصح التعبير عنه إذا حصل فى العقل صورة ذلك الشيء ، وقولك (هو) يتناول الصورة وهى حاضرة ، فقد عاد القول إلى أن (هو) أيضا لا يتناول إلا الحاضر .

والدليل الثانى على أن « هو » فى حقه أشرف الأسماء :

إن حقيقة الحق منزهة عن جميع أنحاء التراكيب ، والفرد المطلق لا يمكن نعته ، لأن النعت يقتضى المغايرة بين الموصوف والصفة ، وعند حصول الغيرية

لا تبقى الفردانية ، وكذلك أيضا لا يمكن الإخبار عنه ، لأن الإخبار يقتضى مخبرا عنه ومخبرا به ، وذلك ينافى الفردانية ، فثبت أن جميع الأسماء المشتقة قاصرة عن الوصول إلى كنه حقيقة الحق سبحانه .

وأما لفظ (هو) فإنه يصل إلى كنه تلك الحقيقة المفردة المبرأة عن جميع جهات الكثرة ، وهذه اللفظة لوصولها إلى كنه الحقيقة وجب أن تكون أشرف من سائر الألفاظ التى يمتنع وصولها إلى كنه تلك الحقيقة .

والدليل الثالث أن الألفاظ المشتقة دالة على حصول صفة للذات ، ثم ماهيات صفة الحق أيضا غير معلومة إلا بآثارها الظاهرة فى عالم الحدوث ، فلا يعرف من علمه إلا أنه الأمر الذى باعتباره صح منه الإحكام والإتقان ، ومن قدرته إلا أنها الأمر الذى باعتباره صح منه صدور الفعل والترك ، وهذه الصفات لا يمكننا تعلقها إلا عند الالتفات إلى الأحوال المختلفة فى عالم الحدوث .

فالألفاظ المشتقة لا تشير إلى الحق سبحانه وحده ، بل تشير إليه وإلى عالم الحدوث معا ، والناظر إلى شيئين لا يكون مستكملا فى كل واحد منهما ، بل يكون ناقصا قاصرا .

إذن فجميع الأسماء المشتقة لا تفيد كمال الاستغراق فى مقام معرفة الحق ، بل كأنها تصير حجابا بين العبد وبين الاستغراق فى معرفة الله سبحانه .

أما هو فإنه لفظ يدل عليه من حيث هو هو ، لا من حيث عرضت له إضافة أو نسبة بالقياس إلى عالم الحدوث ، فكان لفظ (هو) يوصلك إلى الحق ويقطعك عما سواه ، وما عداه من الأسماء ، فإنه لا يقطعك عما سواه ، فكان لفظ (هو) أشرف الأسماء .

والدليل الرابع : أن البراهين السالفة قد دلت على أن منبع الجلال والعزة هو الذات ، وأن ذاته كما كملت بالصفات ، بل ذاته لكمالها استلزمت صفات الكمال ، ولفظ (هو) يوصلك إلى ينبوع الرحمة والعزة والعلو ، وهو الذات ، وسائر الألفاظ لا توقفك إلا فى مقامات النعوت والصفات ، فكان لفظ (هو)

أشرف الأسماء أيضا .

هذا ما ورد فى الكشف عن أسرار لفظ : هو .

أما« الرحمن الرحيم » فالمراد من تفسيرها :

أن الرحمة فى حقه سبحانه هى النعمة ، وفاعلها هو الراحم ، فإذا أردنا إفادة الكثرة قلنا : رحيم ، وإذا أردنا المبالغة التامة التى ليست إلا له سبحانه وتعالى قلنا : الرحمن .

والله سبحانه وتعالى خص هذا الموضع بذكر هاتين الصفتين ، لأن ذكر الإلهية الفردانية يفيد القهر والعلو ، فعقبهما بذكر هذه المبالغة فى الرحمة ترويحا للقلوب عن هيبة الإلهية وعزة الفردانية ، واشعارا بأن رحمته سبقت غضبه ، وأنه ما خلق إلا للرحمة والإحسان .

ومعنى« الرحمن الرحيم » أنه المولى لجميع النعم ، أصولها وفروعها ، فلا شيء سواه بهذه الصفة ، لأن كل ماسواه إما نعمة وإما منعم عليه ، وهو المنعم على جميع خلقه ، الرحيم بهم .

عن أسماء بنت يزيد قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين :

(وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ ، لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَـٰنُ الرَّحِيمُ) .

وفاتحة آل عمران (الٓمٓ ، اللَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)[1] .

و « الرحمن الرحيم » اسمان مشتقان من الرحمة ، والرحمة صفة أزلية ، وهى إرادة النعمة ، وهما اسمان موضوعان للمبالغة ، ولا فضل بينهما عند أهل التحقيق .

وقد ورد أن الرحمن أشد مبالغة ، وأتم فى الإفادة ، وغير الحق سبحانه لا يسمى بالرحمن على الإطلاق ، والرحيم ينعت به غيره ، وبرحمته عرف العبد أنه الرحمن ، ولولا رحمته لما عرف أنه الرحمن ، وإذا كانت الرحمة إرادة

---

(١) أخرجه أبو داود ، والترمذى ، وقال حديث حسن صحيح .

النعمة ، أو نفس النعمة كما هى عند قوم ، فالنعم فى أنفسها مختلفة ، ومراتبها متفاوتة ، فنعمة هى نعمة الأشباح والظواهر ، ونعمة هى نعمة الأرواح والسرائر .

وعلى طريقة من فرق بينهما من أرباب الأقوال ، وأهل البصائر :

أن الرحمن خاص الاسم عام المعنى ، والرحيم عام الاسم خاص المعنى ، فلأنه الرحمن بما روّح والرحيم بما لوّح ، فالترويح بالمبار ، والتلويح بالأنوار .

والرحمن بكشف تجليه ، والرحيم بلطف توليه .

والرحمن بما أولى من الإيمان ، والرحيم بما أسدى من العرفان .

والرحمن بما أعطى من العرفان ،والرحيم بما تولى من الغفران .

بل الرحمن بما ينعم به من الغفران ، والرحيم بما يمن به من الرضوان .

بل الرحمن بما يكتم به ، والرحيم بما ينعم به من الرؤية والعيان .

بل الرحمن بما يوفق ، والرحيم بما تحقق ، والترقيق للمعاملات ، والتحقيق للمواصلات .

فالمعاملات للقاصدين ، والمواصلات للواجدين ، والرحمن بما يصنع لهم ، والرحيم بما يدفع عنهم ، فالصنع بجميل الرعاية والدفع بحسن العناية .

وكما لا إله إلا هو ، فلا قادر على الإبداع إلا هو ، فهو بإلهيته متوحد ، وبملكه متفرد ،

ملك نفوس العابدين فصرفها فى خدمته ، وملك قلوب العارفين فشرفها بمعرفته ،

وملك نفوس القاصين فتيّمها ، وملك قلوب الواجدين فهيّمها ،

وملك أشباح من عبده فلاطفها بنواله وأفضاله ، وملك أرواح من أحبهم فكاشفها بنعت جلاله ووصف جماله ، وملك زمام أرباب التوحيد فصرفهم حيث شاء على ما شاء ، ووفقهم حيث شاء كما شاء ، ولم يكلهم إليهم لحظة ، ولا ملكهم من أمره سنة ولا خطرة ، وكان لهم عنهم وأفناهم له منهم .

ملك قلوب العابدين إحسانه فطمعوا فى عطائه ، وملك قلوب الموحدين سلطانه فقنعوا ببقائه .

عرف أرباب التوحيد أنه مالكهم فسقط عنهم اختيارهم ، علموا أن العبد لا ملك له ، ومن لا ملك له لا حكم له ، ومن لا حكم له لا اختيار له ، فلا لهم عن طاعته إعراض ، ولا على حكمه اعتراض ، ولا فى اختياره معارضة ، ولا لمخالفته تعرض .

ويستفيض الإمام الغزالى رضى الله عنه استفاضة موفقة فى توضيح معنى « الرحمن الرحيم » فيقول فى تعبير نفيس عميق :

« الرحمن الرحيم » اسمان مشتقان من الرحمة ، والرحمة تستدعى مرحوما ولا مرحوم إلا وهو محتاج ، وهو الذى ينقضى به حاجة المحتاج من غير قصد ، وإرادة ، وعناية ، فالمحتاج لا يسمى رحيما .

والذى يريد قضاء حاجة ولا يقضيها : فإن كان قادرا على قضائها لا يسمى رحيما ، إذ لو تمت الإرادة لوفى بها ، وإن كان عاجزا فقد يسمى رحيما باعتبار ما اعتوره من الرقة ، ولكنه ناقص ، وإنما الرحمة التامة إضافة الخير على المحتاجين وإرادته لهم عناية بهم ، والرحمة العامة هى التى تتناول المستحق وغير المستحق ، ورحمة الله تعالى تامة عامة .

أما تمامها فمن حيث أراد قضاء حاجات المحتاجين وقضاءها.

وأما عمومها فمن حيث شمولها المستحق وغير المستحق ، وهم الدنيا والآخرة ، وتناول الضروريات والحاجات والمزايا الخارجة عنها ، فهو الرحيم المطلق حقا .

والرحمة لا تخلو عن رقة مؤلمة تعترى الرحيم ، فتحركه إلى قضاء حاجة المرحوم ، والله تعالى منزه عنها ، فلعلك تظن أن ذلك نقصان فى معنى الرحمة ، فاعلم أن ذلك كمال وليس بنقصان فى معنى الرحمة .

أما أنه ليس بنقصان فمن حيث أن كمال الرحمة بكمال ثمرتها ، ومهما قضيت حاجة المحتاج بكمالها لم يكن للمرحوم حظ فى تألم الراحم

وتفجعه ، وإنما تألم الراحم لضعف نفسه ونقصانها ، ولا يزيد ضعفها فى غرض المحتاج شيئا بعد أن قضيت كمال حاجته..

وأما أنه كمال فى معنى الرحمة ، فهو أن الرحيم من رقة وتألم يكاد يقصد بفعله دفع الرقة عن نفسه ، فيكون قد نظر لنفسه ، وسعى فى غرض نفسه ، وذلك ينقص عن كمال معنى الرحمة ، بل كمال الرحمة أن يكون نظر إلى مرحوم لأجل المرحوم لا لأجل الاستراحة من ألم الرقة .

والرحمن أخص من الرحيم ، ولذلك لا يسمى به غير الله سبحانه ، والرحيم قد يطلق على غيره ، فهو من هذا الوجه قريب من اسم الله الجارى مجرى العلم ، وإن كان مشتقا من الرحمة قطعا ، ولذلك جمع الله تعالى بينهما فقال :

(قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُو فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ)[1] .

فلزم من هذا الوجه ، ومن حيث منعنا الترادف فى الأسماء المحصاة ، أن يفرق بين معنى الاسمين ، فبالأحرى أن يكون المفهوم من الرحمن نوعا من الرحمة التى هى أبعد من مقدورات العباد ، وهى ما يتعلق بالسعادة الأخروية :

فالرحمن هو العطوف على العباد بالإيجاد أولا ، وبالهداية إلى الإيمان وأسباب السعادة ثانيا ، والإسعاد فى الآخرة ثالثا ، والإنعام بالنظر إلى وجهه الكريم رابعا .

وحظ العبد من اسم الرحمن : أن يرحم عباد الله تعالى الغافلين ، فيصرفهم عن طريق الغفلة إلى طريق المعرفة بالله ، بالوعظ تارة ، والنصح بطريق اللطف دون العنف تارة أخرى ، وأن ينظر إلى العصاة بعين الرحمة لا بعين الإيذاء والقسوة ، وأن يكون كل معصية تجرى فى العالم كمعصية له فى نفسه ، فلا يألو جهدا فى إزالتها بقدر وسعه ، رحمة بذلك العاصى أن يتعرض لسخط الله تعالى ، والبعد عن جواره ، والقرب منه سبحانه .

---

(١) الإسراء : ١١٠

وحظه من اسم الرحيم : أن لا يدع فاقة لمحتاج إلا ويسدها بقدر طاقته ، ولا يترك فقيرا فى جواره وبلده إلا ويقوم بتعهده ، ودفع فقره ما أمكن لذلك سبيلا ، إما بماله ، أو بجاهه ، أو السعي فى حقه بالشفاعة إلى غيره ، فإن عجز عن جميع ذلك ، فيعينه ولوبالدعاء وإظهار الحزن لسبب حاجته ، رقة عليه ، وعطفا ، حتى كأنه مساهم له فى ضره وحاجته .

ثم استطرد رضى الله عنه يقول :

« لعلك تقول : ما معنى كونه تعالى رحيما ، وكونه تعالى أرحم الراحمين ، والرحيم لا يرى مبتلى ولا مسرورا ، ولا معذبا ولا مريضا ، وهو يقدر على إماطة ما بهم من أذى ، إلا ويبادر إلى إماطته ، والله تعالى قادر على كفاية كل بلية ، ودفع كل فقر ، وإماطة كل مرض ، وإزالة كل ضرر ، والدنيا طافحة بالأمراض والمحن والبلايا ، وهو قادر على إزالتها جميعها ، وتارك عباده ممتحنين بالرزايا والمحن ؟

فجوابك : أن الطفل الصغير قد ترق له أمه فتمنعه عن الحجامة ، والأب العاقل يحمله عليها قهرا ، والجاهل يظن أن الرحيم هى الأم دون الأب .

والعاقل يعلم أن إيلام الأب إياه بالحجامة : من كمال رحمته وعطفه ، وتمام شفقته ، وأن الأم عدوة فى صورة صديق وأن الألم القليل إذا كان سببا للذة الكثير لم يكن شرا ، بل كان خيرا .

والرحيم : يريد الخير للمرحوم لا محالة ، وليس فى الوجود شر إلا وفى ضمنه خير ، لو رفع ذلك الشر لبطل الخير الذى فى ضمنه ، وحصل ببطلانه شر أعظم من الشر الذى يتضمنه ، فاليد المتآكلة قطعها شر فى الظاهر ، وفى ضمنها خير جزيل ، وهو سلامة البدن ، ولو ترك قطع اليد لحصل هلاك البدن ، ولكان الشر أعظم ، وقطع اليد لأجل سلامة البدن شر فى ضمنه خير ، ولكن المراد الأول السابق إلى نظر القاطع السلامة التى هى خير محض .

ثم لما كان السبيل قطع اليد لأجله ، وكانت السلامة مطلوبة لذاتها أولا ، والقطع مطلوبا لغيره ثانيا لا لذاته ، فهما داخلان تحت الإرادة ، ولكن أحدهما

مراد لذاته ، والآخر مراد لغيره ، والمراد لذاته قبل المراد لغيره ، ولأجله قال الله تعالىٰ : (سبقت رحمتي غضبي) .

فغضبه إرادته للشر ، والشر بإرادته ، ورحمته إرادته للخير ، والخير بإرادته ، ولكن أراد الخير للخير نفسه ، وأراد الشر لا لذاته ، ولكن لما في ضمنه من الخير ، فالخير مقتضى بالعرض وكل مقدر ، وليس في ذلك ما ينافي الرحمة أصلا .

فإن خطر لك نوع من الشر لا ترى تحته خيرا ، أو خطر لك أنه كان تحصيل ذلك الخير ممكنا لا في ضمن الشر فاتهم عقلك القاصر في أحد الخاطرين .

أما في قولك إن هذا الشر لا خير تحته ، فإن هذا ما تقصر العقول عن معرفته ، ولعلك فيه مثل الصبي الذي يرى الحجامة شرا محضا ، أو مثل الغبي الذي يرى القتل قصاصا محضا ، لأنه ينظر إلى خصوص المقتول ، لأنه في حقه شر محض ، ويذهل عن الخير العام الحاصل للناس كافة ، ولا يدرى أن التوصل بالشر الخاص إلى الخير العام خير محض ، ولا ينبغي للخير أن يهمله .

أو اتهم عقلك في الخاطر الثاني ، وهو قولك إن تحصيل ذلك لا في ضمن ذلك الشر ممكن ، فإن هذا أيضا دقيق غامض فليس كل محال وممكن مما يدرك إمكانه واستحالته بالبديهة ، ولا بالنظر القريب ، بل وربما عرف ذلك بنظر عامل دقيق يكثر عنه الأكثرون ، فاتهم عقلك في هذين الطرفين ولا تشكَّنَّ أصلا في أنه أرحم الراحمين ، وأنه سبقت رحمته غضبه ، ولا تسترب في أن مريد الشر لا للخير غير مستحق لاسم الرحمة » اهـ .

وشيوخ القوم لما سلكوا المسلك القويم ، وبنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة في علم التوحيد ، ومسائله المتعلقة بذات الله سبحانه وتعالى ، وصفاته ، وما يجب له ، وما يجوز ، وما يستحيل في حقه ، وصانوا بهذه القواعد الدقيقة السليمة عقائدهم عن البدع ، ودانوا بما وجدوا عليه السلف

وأهل السنة ، من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل ، وعرفوا ما هو حق القدم ، وتحققوا بما هو نعت الموجود العارى عن العدم ، وأحكموا أصول العقائد بواضح الدلائل ، ولائح الشواهد .

لما بنى أكابر القوم أمرهم على هذه الأصول الصحيحة فى علم التوحيد ، ناسب أن نذكر شيئا من كلامهم ، استدلالا به على صحة اعتقادهم ، وصدق توحيدهم ، ونجاح دعوتهم التى كان منهجهم فى سيرها منهج « التوحيد مفتاح دعوة الرسل » .

ومن تأمل ألفاظهم ، وتفهم صدق كلامهم ، وإسداء نصحهم ، وجد فى مجموع أقاويلهم ومتفرقاتها ، ما يحقق له الثقة الكاملة : أن هؤلاء القوم لم يقصروا فى التحقيق عن شأو ، ولم يعرجوا فى الطلب على تقصير .

وكان من كلامهم الذى قصدنا ذكره فى هذا الشأن رضوان الله تعالى عليهم ، قول أبى محمد الحريرى رحمه الله تعالى :

« من لم يقف على علم التوحيد بشاهد من شواهده ، زلت به قدم الغرور فى مهواة من التلف »

يريد بذلك : أن من ركن إلى التقليد ، ولم يتأمل دلائل التوحيد ، سقط عن سنن النجاة ووقع فى أسر الهلاك .

وقال ذو النون المصرى رضى الله عنه :

« التوحيد أن تعرف أن قدرة الله تعالى فى الأشياء بلا مزاج ، وصنعه للأشياء بلا علاج ، وعلة كل شىء صنعه ولا علة لصنعه ، ومهما تصور فى نفسك شىء فالله عز وجل بخلافه » .

ثم قال رضى الله عنه : التوحيد :

« أن تعلم أن كل ما خطر ببالك مما ترقى إليه كيفيته أو تنتهى إليه كميته ، أو تنتمى إليه ماهيته ، أو تليق بوصفه أنيته ، فالله جل جلاله بخلافه » .

وقال أبو بكر الشبلى رضى الله غنه :

« إنما لا يصح لك توحيد ، لأنه توحد بك ، وتطلبه بك » .

يعني هنا : أنه ينبغي أن يعلم الموحد له والطالب له ، أن توحيده إياه به ، وكذا طلبه إياه به ، ويعلم أن وجوده اياه منه ، فهو المبتلىءبالفضل ، والمتمم له ، تبارك الله رب العالمين .

ثم استطرد رضى الله عنه يقول : الواحد المعروف قبل الحدود قبل الحروف .

وهذا صريح من الشبلى : أن القديم سبحانه لا حد لذاته ، ولا مرادف لكلامه .

وسئل الجنيد رضى الله عنه عن التوحيد الخاص فقال :

« أن يكون العبد شبحا بين يدى الله سبحانه ، تجرى عليه تصاريف تدبيره فى مجارى أحكام قدرته ، فى لجج بحار توحيده ، بالفناء عن نفسه ، وعن دعوة الخلق له ، وعن استجابته بحقائق وجوده ووحدانيته ، فى حقيقة قربه بذهاب حسه وحركته ، لقيام الحق سبحانه له ، فيما أراد منه ، وهو أن يرجع آخر العبد إلى أوله ، فيكون كما كان قبل أن يكون » .

ثم قال رضوان الله تعالى عنه :

« إن أول ما يحتاج إليه العبد من عقد الحكمة : معرفة المصنوع صانعه ، والمحدث كيف كان إحداثه ، فيعرف صفة الخالق من المخلوق ، وصفة القديم من المحدث ، ويذل لدعوته ، ويعترف بوجوب طاعته ، فإن من لم يعرف مالكه لم يعترف بالملك لمن استوجبه » .

ثم قال رضى الله عنه :

« علمك وإقرارك بأن الله فرد فى أزليته ، لا ثانى معه ، ولا شىء يفعل فعله »

ويقول أبو الطيب المراغى رضى الله عنه : « للعقل دلالة ، وللحكمة إشارة ، وللمعرفة شهادة :

فالعقل يدل ، والحكمة تشير ، والمعرفة تشهد ، أن صفاء العبادات لا ينال إلا بصفاء التوحيد »

والمراد : أن للعقل براهين يستدل بها على وحدانية الله سبحانه ، وللحكمة علم بحقائق الأشياء وأوصافها ، وخواصها ، وأحكامها ، وارتباط الأسباب بالمسببات ، والعمل بمقتضى ذلك كله ،

وسئل الجنيد رضى الله عنه عن التوحيد فقال :

« إفراد الموحد بتحقيق وحدانيته وكمال أحديته : أنه الواحد الذى لم يلد ، ولم يولد ، ينفى الأضداد ، والأنداد ، والأشباه ، بلا تشبيه ، ولا تكييف ، ولا تصوير ، ولا تمثيل :

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)[١] .

ثم قال رضى الله عنه :

« متى يتصل من لا شبيه له ولا نظير له ، بمن له شبيه ونظير ؟ هيهات ، هذا ظن عجيب إلا بما لطف اللطيف من حيث لا درك ، ولا وهم ، ولا إحاطة إلا إشارة اليقين ، وتحقيق الإيمان » .

وقال أبو سعيد الخزار رضى الله عنه :

« أول مقام لمن وجد علم التوحيد ، وتحقق بذلك : فناء ذكر الأشياء عن قلبه وانفراده بالله عز وجل » .

وقال أبو الحسن البوشنجى رضى الله عنه :

« التوحيد : أن تعلم أنه غير مشبه للذوات ، ولا منفى الصفات » .

وقال الحسين بن منصور رحمه الله تعالى ورضى عنه :

« ألزم الكل الحدث ، لأن القدم له سبحانه ، فالذى بالجسم ظهوره فالعرض يلزمه ، والذى بالأداة اجتماعه فقواها يمسكه والذى يؤلفه وقت يفرقه وقت ، والذى يقيمه غيره فالضرورة تمسه ، والذى الوهم يظفر به فالتصوير يرتقى إليه ، ومن آواه محل أدركه أين ، ومن كان له جنس طالبه كيف .

---

(١) الشورى : ١١

إنه سبحانه لا يظله فوق ، ولا يقله تحت ، ولا يقابله حد ، ولا يزاحمه عند ، ولا يأخذه خلف ، ولا يحده أمام ، ولم يظهره قبل ، ولم يفنه بعد ، ولم يجمعه كل ، ولم يوجده كان ، ولم يفقده ليس .

وصفه : لا صفة له ، وفعله لا علة له وكونه لا أمد له ، تنزه عن أحوال خلقه ، ليس من خلقه مزاج ، ولا فى فعله علاج ، باينهم بقدمه ، كما باينوه بحدوثهم .

إن قلت : متى فقد سبق الوقت كونه ، وإن قلت : هو ، فالهاء والواو خلقه ، وإن قلت : أين ، فقد تقدم المكان وجوده .

فالحروف آياته ، ووجوده إثباته ، ومعرفته توحيده ، وتوحيده تمييزه من خلقه .

ما تصور فى الأوهام فهو بخلافه ، كيف يحل به ما منه بداه ؟ أو يعود إليه ما هو أنشاه ؟

لا تراه العيون ، ولا تقابله الظنون ، قربه كرامته ، وبعده إهانته ، علوه من غير توقل ، ومجيئه من غير تنقل .

هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، القريب البعيد ، الذى ليس كمثل شيء وهو السميع البصير » .

وعن يوسف بن الحسين رحمه الله قال :

« قام رجل بين يدى ذى النون المصرى فقال : أخبرنى عن التوحيد ما هو ؟ فقال :

هو أن تعلم أن قدرة الله تعالى فى الأشياء بلا مزاج ، وصنعه للأشياء بلا علاج ، وعلة كل شيء صنعه ، ولا علة لصنعه ، وليس فى السموات العلا ، ولا فى الأرضين السفلى ، مدبر غير الله وكل ما تصور فى وهمك فالله بخلاف ذلك » .

وقال الجنيد رضى الله عنه :

« سئل بعض العلماء عن التوحيد فقال : هو اليقين فقال السائل ، بين لى

ما هو ؟

فقال : هو معرفتك أن حركات الخلق وسكونهم فعل الله عز وجل ، وحده لا شريك له ، فإذا فعلت ذلك فقد وحدته » .

وسئل أبو على الروذبارى عن التوحيد فقال :

« التوحيد استقامة القلب بإثبات مفارقة التعطيل ، وإنكار التشبيه ، والتوحيد فى كلمة واحدة كل ما تصوره الأوهام والأفكار ، فالله سبحانه وتعالى بخلافه لقوله تعالى :

(لَيسَ كَمِثْلِهِ شَىءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) » .

وقال طاهر بن إسماعيل الرازى رضى الله عنه :

« قيل ليحيى بن معاذ : أخبرنى عن الله عز وجل : فقال له واحد .

فقيل له : كيف هو ؟ فقال : مالك قادر .

فقيل له : أين هو ؟ فقال : هو بالمرصاد .

فقال السائل : لم أسألك عن هذا .

فقال : ما كان غير هذا كان صفة المخلوق ، فأما صفته سبحانه ، فما أخبرتك عنه »

ويتفاعل الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه ، تفاعل الموحدين الصادقين فيقول :

« من زعم أن الله فى شيء ، أو من شيء ، أو على شيء ، فقد أشرك . إذ لو كان على شيء لكان محمولا ، ولو كان فى شيء لكان محصورا ، ولو كان من شيء لكان محدثا » .

وسئل سهل بن عبد الله التسترى عن ذات الله عز وجل ، فقال رضى الله عنه :

« ذات الله تعالى موصوفا بالعلم ، غير مدركة بالإحاطة ، ولا مرئية بالأبصار فى دار الدنيا ، وهى موجودة بحقائق الإيمان من غير حد ولا إحاطة

ولا حلول ، تراه العيون فى العقبى ظاهرا فى ملكه وقدرته ، قد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته ، ودلهم عليه بآياته ، فالقلوب تعرفه ، والعقول لا تدركه ، ينظر اليه المؤمنون بالأبصار من غير إحاطة ، ولا إدراك نهاية » .

وقال يوسف بن الحسين رضى الله عنه :

« توحيد الخاصة أن يكون بصره ، ووجده ، وقلبه ، كأنه قائم بين يدى الله تعالى ، يجرى عليه تصاريف تدبيره ، وأحكام قدرته ، فى بحار توحيده بالفناء عن نفسه ، وذهاب حسه ، بقيام الحق سبحانه ، له فى مراده منه ، فيكون كما هو قبل أن يكون فى جريان حكمه سبحانه عليه .

وهذه نماذج طيبه من كلام سلف الأمة وأكابر أهل الإخلاص والتوحيد والفضل ، أجملناها آخر هذا الفصل لتكون نبراساً ودليلا واضحا على صدق إيمانهم ، وإظهار أمارات توحيدهم ، لكى يتأسى بأقوالهم من أراد الحق وقصد السبيل القويم فى توحيده لله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى ليس له شريك ولا ولد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

وبعد : فيقول الإمام القشيرى رضى الله عنه :

« إن الحق سبحانه وتعالى ، موجود ، قديم ، واحد ، حكيم ، قادر ، عليم ، قاهر ، رحيم ، مريد ، سميع ، رفيع ، متكلم ، بصير ، متكبر ، قدير ، حىّ ، باق ، صمد .

وأنه عالم بعلم ، قادر بقدرة ، مريد بإرادة ، سميع بسمع ، بصير ببصر ، متكلم بكلام ، حىّ بحياة ، باق ببقاء .

وله يدان هما صفتان ، يخلق بهما ما يشاء ، سبحانه ، على التخصيص .

وله الوجه ، وصفات ذاته مختصه بذاته ، لا يقال هى هو ، ولا هى أغيار له ، بل هى صفات أزلية ، ونعوت سرمدية ، وأنه إحدى الذات ، ليس يشبه شيئا من المصنوعات ، ولا يشبه شىء من المخلوقات ،

ليس بجسم ولا جوهر ، ولا عرض ، ولا صفات أعراض ، ولا يتصور فى الأوهام ، ولا يتقدر فى العقول ، ولا له جهة ولا مكان ، ولا يجرى عليه وقت ولا

زمان ، ولا يجوز فى وصفه زيادة ولا نقصان ، ولا يخصه هيئة وقد ، ولا يقطعه نهاية وحد ، ولا يحله حادث ، ولا يحمله على الفعل باعث ، ولا يجوز عليه لون ولا كون ، ولا ينصره مدد ولا عون ، ولا يخرج عن قدرته مقدور ، ولا ينفك عن حكمه مفطور ، ولا يعزب عن علمه معلوم ، ولا هو على فعله كيف يصنع وما يصنع ملوم .

لا يقال له : أين ؟ ولا حيث ، ولا كيف .

ولا يستفتح له وجود فيقال : متى كان ؟

ولا ينتهى له بقاء ، فيقال : استوفى الأجل والزمان ،

ولا يقال : لم فعل ما فعل ؟ إذ لا علة لأفعاله .

ولا يقال : ما هو ؟ إذ لا جنس له فيتميز بأمارة عن أشكاله .

يرى لا عن مقابلة ، ويرى غيره لا عن مماقلة ، ويصنع لا عن مباشرة ولا مزاولة .

له الأسماء الحسنى ، والصفات العلا ، يفعل ما يريد ، ويذل لحكمه العبيد .

لا يجرى فى سلطانه إلا مايشاء ، ولا يحصل فى ملكه غير ما سبق به القضاء .

ما علم أنه يكون من المحادثات أراد أن يكون ، وما علم أنه لا يكون مما جاز أن يكون ، أراد أن لا يكون .

خالق أكساب العباد : خيرها وشرها ، ومبدع ما فى العالم من الأعيان والآثار ، قلها وكثرها ، ومرسل الرسل إلى الأمم غير وجوب عليه .

ومتعبد الأنام على لسان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، بما لا سبيل لأحد باللوم والاعتراض عليه ، ومؤيد نبينا محمد ﷺ بالمعجزات الظاهرة ، والآيات الباهرة ، بما أزاح به العذر ، وأوضح به اليقين والنكر ، وحافظ بيضة الإسلام بعد وفاته ﷺ ، بخلفائه الراشدين .

ثم حارس الحق وناصره بما يوضحه من حججَ الدين على ألسنة أوليائه المقربين .

عصم الأمة الحنيفة عن الاجتماع على الضلالة ، وحسم مادة الباطل بما نصب من الدلالة ، وأنجز ما وعد من نصرة الدين بقوله سبحانه :

(لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَو كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)[1] .

---

(١) الصف : ٩

الفصل الثانى

إن فى خلق السموات والأرض



إن فى خلق السموات والأرض

يقول الله تعالى :

(إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ ، وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ، وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَينَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَومٍ يَعْقِلُونَ)[١] .

تجلت عظمة الله ، وتعالت قدرته ، وعظمت إرادته ، وقويت حكمته ، وعز جاهه الأسنى ، وجل جلاله الأقدس ، فى ارتفاع السموات ولطافتها ، واتساعها ، وكواكبها السيارة ، والثوابت ، ودوران فلكها .

وتنزلت رحمات الخالق القوى القاهر ، وعمت أيادى الفاطر الرازق ، فى انخفاض الأرض وكثافتها ، ونصب جبالها وعمق بحارها ، وبسط قفارها ووهادها ، وكثرة عمرانها ، وتذليل سبلها ، وتعميم خيراتها ، وما فيها من فوائد ومنافع .

وتوالت آلاء الله ، وظهرت آيات قدرته فى اختلاف الليل والنهار ، وتعاقبهما ، وكون كل منهما خلفا للآخر ، فيجىء أحدهما ثم يذهب ، ويخلفه الآخر ويعقبه ، لا يتأخر عنه لحظة ، واختلاف كل منهما فى أنفسهما ، ازديادا وانتقاصا بحيث يزيد من هذا فى هذا ، ومن هذا فى ذاك .

وجل جلال الحق إذ جعل الفلك تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وسخر البحر بحمل السفن من جانب إلى آخر ، لمعايش الناس ، والانتفاع بما عند أهل إقليم لغيره .

ونزل لطف العليم الخبير بخلقه ، ينشر رحمته ، بما أنزل من السماء من

---

(١) البقرة : ١٦٤

ماء ، فأحيا به الأرض ، بعد موتها ، بأنواع النبات والأزهار ، وما عليها من الأشجار ، وبث فيها من كل دابة من العقلاء وغيرهم ، وصرف الرياح بتقليبها في مهابها ، قبولا ودبورا ، وجنوبا وشمالا ، وفي أحوالها ، حارة وباردة ، وعاصفة ولينة ، فتارة ترسل مبشرة بين يدى السحاب ، وطورا تسوقه ، وآونه تجمعه ، ووقتا تفرقه ،وحينا تصرفه ، دون أن يهوى السحاب المسخر إلى جهة السفل مع ثقله بحمله بخار الماء ، حيث لم يكن لها ممسك محسوس ، ولا يعلو ولا ينقشع .

كل هذا يثبت بالدليل القاطع ، والا ستدلال الواضح ، وحدانية الله سبحانه وتعالى .

كما أنه يثبت ويوضح كذلك مابين هذه الآية الكريمة التى نحن الآن بصددها ، وبين الآية السابقة لها من وجه الارتباط الوثيق :

ذلك : أن مقام الوحدانية لما كان لا يصح إلا بتمام العلم وكمال القدرة ، نصب الله تعالى الأدلة من العلويات والسفليات وهو أرضهما ، والمتوسطات على ذلك ، تبصيرا للجهال ، وتذكيرا للعلماء ، فقال سبحانه :

(إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَومٍ يَعْقِلُونَ) (١) .

وبيان الاستدلال على إثبات التوحيد الذى هو مفتاح دعوة الرسل ، بهذه الآية الكريمة ، أن الله تعالى ، لما حكم بالفردانية والوحدانية ، ذكر ثمانية أنواع من الدلائل التى يمكن أن يستدل بها على وجوده سبحانه أولا ، وعلى توحيده وبراءته عن الأضداد والأنداد ثانيا .

ولا نزاع في الاستدلال على الخالق بالمخلوق ، لكن لا من جهة عينه ، بل من جهة خلق الله إياه ، وهذه الجهة هى التى صيرته آية من آيات الله التى

---

(١) البقرة :

يستدل بها على وجوده سبحانه .

وقد عدد الله تبارك وتعالى فى هذه الآية ثمانى آيات ، والكلام فى هذه الآيات الثمانية من الدلائل الواضحة الدالة على إثبات وحدانيته سبحانه ، والتى منها :

الاستدلال بأحوال السموات الذى يتضح لنا فى تفسير قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ، الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً)[١] .

فقد ذكر الله سبحانه وتعالى هنا فى هذه الآية الكريمة ، خمسة أنواع من الدلائل :

اثنين من الأنفس ، وثلاثة من الآفاق .

فبدأ أولا بقوله (خلقكم) .

وثانيا : بالآباء والأمهات ، وهو قوله (وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ) .

وثالثا : بكون الأرض فراشا .

ورابعا : بكون السماء بناء .

وخامسا : بالأمور الحاصلة من مجموع السماء والأرض ، وهو قوله : (وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ) .

ولهذا الترتيب أسباب هامة كثيرة :

الأول : أن أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه ، وعلم الإنسان بأحوال نفسه أظهر من علمه بأحوال غيره ، وإذا كان الغرض من الاستدلال إفادة العلم ، فكل ما كان أظهر دلالة كان أقوى إفادة ، وكان أولى بالذكر ، فلهذا السبب قدم ذكر نفس الإنسان ، ثم ثناه بآبائه وأمهاته ، ثم ثلث بذكر الأرض ، لأن الأرض أقرب إلى الإنسان من السماء ، والإنسان أعرف بحال الأرض منه بأحوال السماء .

---

(١) البقرة : ٢١ ، ٢٢

وقدم ذكر السماء على نزول الماء من السماء ، وخروج الثمرات بسببه ، لأنه ذلك كالأمر المتولد من السماء والأرض والأثر متأخر عن المؤثر ، فلهذا السبب أخر الله سبحانه ذكره عن ذكر الأرض والسماء .

والثاني : هو أن خلق المكلفين أحياء قادرين ، أصل لجميع النعم ، وأما خلق الأرض والسماء والماء فذاك إنما ينتفع به بشروط حصول الخلق والحياة والقدرة والشهوة ، لهذا قدم ذكر الأصول على الفروع .

الثالث : أن كل مافى الأرض والسماء من دلائل الصانع ، فهو حاصل في الإنسان ، وقد حصل فى الإنسان من الدلائل مالم يحصل فيهما ، لأن الإنسان حصل فيه الحياة والقدرة والشهوةوالعقل ، وكل ذلك مما لا يقدر عليه أحد سوى الله تعالى ، فلما كانت وجوه الدلائل له ههنا أتم كان أولى بالتقديم .

أما ما أودعه الله تعالى فى الأرض من دلائل واضحات وآيات بينات ، لتدل على الواحد الصانع ، الفاعل المختار ، فإنك لو نظرت إلى الأرض ، لعرفت أنها مستقرة بلا علاقة فوقها ولا دعامة تحتها .

أما أنها لا علاقة فوقها فمشاهد ، على أنها لو كانت معلقة لاحتاجت العلاقة إلى علاقة أخرى ، وهكذا حتى لا إلى نهاية .

وبهذا الوجه ثبت أنه لا دعامة تحتها ، فعلمنا أنـه لا بد من ممسك يمسكها بقدرته واختياره ، ولهذا قال الله تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ، وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)[١] .

ومن الآيات الدالات على أنه الواحد الصانع ، ما أودعه الله تعالى من صفات الأرض وسائر المنافع التى لا تحصى ، والتى منها :

---

(١) فاطر : ٤١

أن الأشياء المتولدة من الأرض : فيها من المعادن ، والنبات ، والحيوان ، والآثار العلوية والسفلية مما لا يعلم تفاصيلها إلا الله تعالى .

ومنها : أن يتخمر الرطب بها فيحصل التماسك فى أبدان المركبات .

ومنها : أن اختلاف بقاع الأرض : كان منها أرض رخوة ، وصلبة ، ورمله ، وسبخه ، وحرة ، وهى قوله تعالى :

(وَفِى الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ، وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)[١] .

وقال تعالى :

(وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا)[٢] .

ومنها : اختلاف ألوانها فأحمر ، وأبيض ، وأسود ، ورمادى اللون ، وغيره ، على ما قال تعالى :

(وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ)[٣] .

ومنها : انصداعها بالنبات ، قال تعالى :

(وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ)[٤] .

ومنها : كونها خازنة للماء المنزل من السماء وإليه الإشارة بقوله تعالى :

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِى الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ)[٥] .

وقوله سبحانه :

---

(١) الرعد : ٤ (٢) الأعراف : ٥٨ (٣) فاطر : ٢٧
(٤) الطارق : ١٢ (٥) المؤمنون : ١٨

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ)[١] .

ومنها : العيون والأنهار العظام التى فيها ، وإليه الإشارة بقوله :

(وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا)[٢] .

ومنها : ما فيها من المعادن والفلزات ، وإليه الإشارة بقوله تعالى :

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ)[٣] .

ثم بين بعد ذلك تمام البيان ، فقال سبحانه :

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)[٤] .

ومنها : الخبء الذى تخرجه الأرض من الحب والنوى قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ، يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ)[٥] .

وقال تعالى : (يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)[٦] .

ثم إن الأرض لها طبع الكرم لأنك تدفع إليها حبة واحدة ، وهى تردها عليك سبعمائة :

(كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ)[٧] .

ومنها : حياتها بعد موتها : قال تعالى :

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا)[٨] .

وقال سبحانه :

---

(١) الملك : ٣٠ — (٢) الرعد : ٣

(٣) الحجر : ١٩ — (٤) الحجر : ٢١

(٥) الأنعام : ٩٥ — (٦) النمل : ٢٥

(٧) البقرة : ٢٦١ — (٨) السجدة : ٢٧

(وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ)(١) .

ومنها : ما عليها من الدواب المختلفة الألوان والصور والخلق ، وإليه الإشارة بقوله تعالى :

(خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ)(٢) .

ومنها : ما فيها من النبات المختلف ألوانه وأنواعه ومنافعه ، وإليه الإشارة بقوله :

(وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)(٣) .

فاختلاف ألوانها دلالة ، واختلاف طعومها دلالة ، واختلاف روائحها دلالة ، فمنها قوت البشر ، ومنها قوت البهائم ، كما قال :

(كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى)(٤) .

أما مطعوم البشر ، فمنها الطعام ، ومنها الإدام ، ومنها الدواء ، ومنها الفاكهة ، ومنها الأنواع المختلفة فى الحلاوة والحموضة ، قال تعالى :

(وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ)(٥) .

وأيضا فمنها كسوة البشر ، لأن الكسوة إما نباتية ، وهى القطن والكتّان ، وإما حيوانية وهى الشعر والصوف والإبرسيم والجلود ، وهى من الحيوانات التى بثها الله تعالى فى الأرض ، فالمطعوم من الأرض ، والملبوس من الأرض .

ثم قال تعالى : (وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)(٦) وفيه إشارة إلى منافع كثيرة لا يعلمها إلا الله تعالى .

ثم إنه سبحانه وتعالى جعل الأرض ساترة لقبائحك بعد مماتك ، فقال سبحانه :

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا)(٧) .

---

(١) يس : ٣٣ — (٢) لقمان : ١٠ — (٣) ق : ٧

(٤) طه : ٥٤ — (٥) فصلت : ١٠ — (٦) النحل : ٨

(٧) المرسلات : ٢٥ ، ٢٦

قال تعالى : (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ، وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى)[١] .

ثم إنه سبحانه وتعالى جمع هذه المنافع العظيمة للسموات والأرض فقال : (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)[٢] .

ومنها : ما فيها من الأحجار المختلفة ، ففى صغارها ما يصلح للزينة فتجعل فصوصا للخواتم ، وفى كبارها ما يتخذ للأبنية ، فانظر إلى الحجر الذى تستخرج النار منه مع كثرته ، وانظر إلى الياقوت الأحمر مع عزته ، ثم انظر إلى كثرة النفع بذلك الحقير ، وقلة النفع بهذا الشريف .

ومنها : ما أودع الله تعالى فيها من المعادن الشريفة ، كالذهب والفضة ، ثم تأمل أن البشر استخرجوا الحرف الدقيقة ، والصنائع الجليلة ، واستخرجوا السمكة من قعر البحر ، واستنزلوا الطير من أوج الهواء ، ثم عجزوا عن إيجاد الذهب والفضة .

والسبب فيه أنه لا فائدة فى وجودهما إلا الثمنية ، وهذه الفائدة لا تحصل إلا عند العزة ، فالقادر على إيجادها يبطل هذه الحكمة ، فلذلك ضرب الله دونها بابا مسدودا ، إظهارا لهذه الحكمة وإبقاء لهذه النعمة ، ولذلك فإن ما لا مضرة على الخلق فيه مكنهم منه فصاروا متمكنين من اتخاذ الشبة من النحاس ، والزجاج من الرمل ، وإذا تأمل العاقل فى هذه اللطائف والعجائب اضطر فى افتقار هذه التدابير إلى صانع حكيم مقتدر عليم سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

ومنها : كثرة ما يوجد على الجبال والأراضى من الأشجار التى تصلح للبناء ، والسقف ، ثم الحطب وما أشد الحاجة إليه .

وقد نبه الله تعالى على دلائل الأرض ومنافعها بألفاظ لا يبلغها البلغاء ويعجز عنها الفصحاء فقال :

---

(١) طه : ٥٥ (٢) لقمان : ٢٠

(وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَارًا ، وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ)[١] .

وأما الأنهار فمنها العظيمة كالنيل ، وسيحون ، وجيحون ، والفرات ، ومنها الصغار ، وهى كثيرة ، وكلها تحمل مياها عذبة للسقى والزراعة وسائر الفوائد .

هذه عجالة يسيرة استقصيناها إجمالا لما وهبه الله تعالى للأرض من منافع وفوائد : تذكرة وعبرة لأهل القلوب والبصائر ، خاصة وأن الله سبحانه وتعالى ، ذكر أمر السموات والأرض فى كتابه الكريم فى مواضع كثيرة ، ولا شك أن إكثار ذكر الله تعالى للسموات والأرض ، يدل على عظم شأنهما ، وعلى أن له سبحانه وتعالى فيهما أسرارا عظيمة ، وحكما بالغة لا يصل إليها أفهام الخلق ولا عقولهم .

وبما أننا بسطنا القول عن منافع الأرض وما أودعها الله من فوائد ، وأن هذه المنافع وتلكم الفوائد ، آيات واضحة من آيات الله تعالى ، التى تدل على وحدانيته سبحانه وتعالى ، فإننا نتحدث الآن عن فضائل السموات وفوائدها وذلك من وجوه :

منها : أن الله تعالى زينها بسبعة أشياء :

بالمصابيح ، قال تعالى : (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ)[٢] .

وبالشمس وبالقمر ، فقال سبحانه :

(وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا)[٣] .

وبالعرش ، يقول سبحانه : (رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)[٤] .

وبالكرسى ، يقول تعالى : (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ)[٥] .

وباللوح ، يقول تعالى : (فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ)[٦] .

---

(١) الرعد : ٣ — (٢) الملك : ٥ — (٣) نوح : ١٦

(٤) التوبة : ١٢٩ — (٥) البقرة : ٢٥٥ — (٦) البروج : ٢٢

وبالقلم ، يقول سبحانه : (نُونْ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)[١] .

فهذه سبعة : ثلاثة منها ظاهرة ، وأربعة خفية : ثبتت بالدلائل السمعية من الآيات والأخبار .

ومنها : أنه تعالى سمى السموات بأسماء تدل على عظم شأنها :

سماء ، وسقفا محفوظا ، وسبعا طباقا ، وسبعا شدادا ، ثم ذكر عاقبة أمرها فقال :

((وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ)[٢] ؛ (وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ)[٣] ؛ (يَوْمَ نَطْوِى السَّمَاءَ)[٤] ؛ (يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ)[٥] ؛ (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَورًا)[٦] ؛ (فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ)[٧] .

وذكر مبدأها فى آيتين فقال سبحانه :

(ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ)[٨] .

وقال تعالى :

(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا)[٩] .

فهذا الاستقصاء الشديد فى كيفية حدوثهما وفنائهما ، يدل على أنه سبحانه خلقهما لحكمة بالغة على ما قال سبحانه :

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا)[١٠] .

---

(١) القلم : ١ — (٢) المرسلات : ٩ — (٣) التكوير : ١١
(٤) الأنبياء : ١٠٤ — (٥) المعارج : ٨ — (٦) الطور : ٩
(٧) الرحمن : ٣٧ — (٨) فصلت : ١١ — (٩) الأنبياء : ٣٠
(١٠) ص : ٢٧

ومنها : أنه تعالى جعل السماء قبلة الدعاء : فالأيدى ترفع إليها ، والوجوه تتوجه نحوها ، وهى منزل الأنوار ومحل الصفاء والأضواء والطهارة والعصمة عن الخلل والفساد .

ومنها : كما قال بعض العلماء :

السماوات والأرضون على صفتين ، فالسماوات مؤثرة غير متأثرة ، والأرضون غير مؤثرة ، والمؤثر أشرف من القابل ، فلهذا السبب قدم ذكر السماء على الأرض فى الأكثر ، وأيضا ففى أكثر الأمر ذكر السموات بلفظ الجمع ، والأرض بلفظ الواحد ، فإنه لا بد من السموات الكثيرة ليحصل بسببها الاتصالات المختلفة للكواكب وتغير مطارح الشعاعات ، وأما الأرض فقابلة ، فكانت الأرض الواحدة كافية .

ومنها : تفكر فى لون السماء وما فيه من صواب التدبير ، فإن هذا اللون أشد الألوان موافقة للبصر وتقوية له ، حتى أن الأطباء يأمرون من أصابه وجع العين بالنظر إلى الزرقة ، فانظر كيف جعل الله تعالى أديم السماء ملونا بهذا اللون الأزرق ، لتنتفع به الأبصار الناظرة إليها ، فهو سبحانه وتعالى جعل لونها أنفع الألوان ، وهو المستنير ، وشكلها أفضل الأشكال ، وهو المستدير ، ولهذا قال سبحانه :

(أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوقَهُمْ كَيفَ بَنَينَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ)[١] .

وفى بيان فضائل السماء وبيان فضائل ما فيها ، وهى الشمس والقمر والنجوم نقول :

أما الشمس فتفكر فى طلوعها وغروبها ، فلولا ذلك لبطل أمر العالم كله ، فكيف كان الناس يسعون فى معايشهم ، ثم المنفعة فى طلوع الشمس ظاهرة ، ولكن تأمل النفع فى غروبها ، فلولا غروبها لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع احتياجهم إلى الهدوء والاستقرار لتحصل الراحة وانبعاث القوة الهاضمة ،

---

(١) ق : ٦

وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء على ما قال تعالى :

(هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَومٍ يَسْمَعُونَ)[١] .

وأيضا فلولا الغروب لكان الحرص يحملهم على المداومة على العمل على ما قال :

(وَجَعَلْنَا اللَّيلَ لِبَاسًا ، وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا)[٢] .

ثالثا : أنه لولا الغروب لكانت الأرض تحمى بشروق الشمس عليها حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ، ويهلك ما عليها من نبات على ما قال سبحانه :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَو شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا)[٣] .

فصارت الشمس بحكمة الحق سبحانه وتعالى ، تطلع فى وقت ، وتغيب فى وقت ، بمنزلة سراج يدفع لأهل بيت بمقدار حاجتهم ، ثم يرفع عنهم ليستقروا ويستريحوا ، فصار النور والظلمة على تضادهما متعاونين متظاهرين على ما فيه صلاح العالم ، هذا كله فى طلوع الشمس وغروبها .

أما ارتفاع الشمس وانحطاطها فقد جعله الله تعالى سببا لإقامة الفصول الأربعة ، ففى الشتاء تغور الحرارة فى الشجر والنبات ، فيتولد منه مواد الثمار ، ويلطف الهواء ، ويكثر السحاب والمطر ، ويقوى أبدان الحيوانات بسبب احتقان الحرارة الغريزية فى البواطن .

وفى الربيع تتحرك الطبائع ، وتظهر المواد المتولدة فى الشتاء ، فيطلع النبات ، وينور الشجر ، ويهيج الحيوان للفساد .

وفى الصيف يحتدم الهواء فتنضج الثمار ، وتنحل فضول الأبدان ، ويجف وجه الأرض ، ويتهيأ للبناء والعمارات .

---

(١) يونس : ٦٧ (٢) النبأ : ١٠ ، ١١ (٣) الفرقان : ٤٥

وفي الخريف يظهر اليبس والبر فتنتقل الأبدان قليلا قليلا إلى الشتاء ، فإنه إن وقع الانتقال دفعة واحدة هلكت الأبدان وفسدت ،

وأما حركة الشمس فتأمل فى منافعها ، فإنها لو كانت واقفة فى موضع واحد لا شتدت السخونة فى ذلك الموضع واشتد البرد فى سائر المواضع ، لكنها تطلع فى أول النهار من الشرق ، فتقع على ما يحاذيها من المغرب ، ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة ، حتى تنتهى إلى الغروب ، فتشرق على الجوانب الشرقية فلا يبقى موضع مكشوف إلا ويأخذ حظا من شعاع الشمس .

وأما منافع ميلها فى حركتها عن خط الاستواء ، فنقول :

لو لم يكن للكواكب حركة فى الميل لكان التأثير مخصوصا ببقعة واحدة فكان سائر الجوانب يخلو عن المنافع الحاصلة منه ، وكان الذى يقرب منه متشابه الأحوال ، وكانت القوة هناك لكيفية واحدة .

فسبحان الخالق المدبر بالحكمة البالغة والقدرة الغير المتناهية .

أما القمر ، وهو المسمى بآية الليل : فإنه سبحانه وتعالى جعل طلوعه وغيبيته مصلحة ، وجعل طلوعه فى وقت مصلحة ، وغروبه فى وقت آخر مصلحة ، أما غروبه ففيه نفع لمن هرب من عدوه فيستره الليل يخفيه فلا يلحقه طالب فينجو ولولا الظلام لأدركه العدو .

وأما طلوعه ففيه نفع لمن ضل عنه شيء أخفاه الظلام وأظهره القمر .

أما النجوم ففيها منافع كثيرة نذكر منها على طريق المثال :

المنفعة الأولى : كونها رجوما للشياطين ، والثانية معرفة القبلة بها ، والثالثة أن يهتدى بها المسافر فى البر والبحر ، قال تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾[1] .

ثم النجوم على ثلاثة أقسام : غاربة لا تطلع كالكواكب الجنوبية ، وطالعة

---

(١) الأنعام : ٩٧

لا تغرب كالشمالية ،ومنها ما يغرب تارة ويطلع أخرى ، وأيضا منها ثوابت ، ومنها سيارات ، ومنها شرقية ، ومنها غربية والكلام فيها طويل .

أما الذى تدعيه الفلاسفة من معرفة الأجرام والأبعاد ، فدع عنك بحرا ضل فيه السوابح .

قال تعالى : (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)(١) .

وقال سبحانه : (وَمَاأُوتِيتُمْمِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)(٢) .

وقال تعالى :

(قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)(٣) .

وقال تعالى :

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ)(٤) .

فقد عجز الخلق عن معرفة ذواتهم وصفاتهم ، فكيف يقدرون على معرفة أبعد الأشياء عنهم ، والعرب مع بعدهم عن معرفة الحقائق عرفوا ذلك .

وفى شرح كون السماء بناء ، قال الجاحظ :

« إذا تأملت فى هذا العالم وجدته كالبيت المعد ، فيه كل ما يحتاج إليه ، فالسماء مرفوعة كالسقف ، والأرض ممدودة كالبساط ، والنجوم منورة كالمصابيح والإنسان كمالك البيت المتصرف فيه ، وضروب النبات مهيأة لمنافعه ، وضروب الحيوانات مصرفة فى مصالحه ، فهذه جملة واضحة دالة على أن العالم مخلوق بتدبير كامل ، وتقدير شامل ، وحكمة بالغة ، وقدرة غير متناهية » .

أما قوله تعالى : (وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ)(٥)فإن الله تعالى لما خلق الأرض وكانت كالصدف والدرة المرفوعة جعل

---

(١) الجن : ٢٦ ، ٢٧ — (٢) الإسراء : ٨٥ — (٣) الأنعام : ٥٠

(٤) الكهف : ٥١ — (٥) البقرة : ٢٢

فيها آدم وأولاده ، ثم علم الله أصناف حاجاتهم فكأنه قال :

يا آدم لا أحوجك إلى شيء غير هذه الأرض التى هى لك كالأم فقال :

(أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ، ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ، وَعِنَبًا وَقَضْبًا ، وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ، وَحَدَائِقَ غُلْبًا ، وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ، مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ)[1] .

فانظر يا عبدى إن أعز الأشياء عندك كالذهب والفضة ، ولو أنى خلقت الأرض من الذهب والفضة هل كان يحصل منها هذه المنافع ؟ ثم إنى جعلت هذه الأشياء فى هذه الدنيا مع أنها سجن ، فكيف الحال فى الجنة ،

فالحاصل أن الأرض أمك بل أشفق من الأم ، لأن الأم تسقيك لونا واحداً من اللبن ، والأرض تطعمك كذا وكذا لونا من الأطعمة ، ثم قال :

(مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ)[2] معناه نردكم إلى هذه الأم ، وهذا ليس بوعيد ، لأن المرء لا يوعد بأمه ، وذلك لأن مكانك من الأم التى ولدتك أضيق من مكانك من الأرض ، ثم إنك كنت فى بطن الأم تسعة أشهر فما مسك جوع ولا عطش ، فكيف إذا دخلت بطن الأم الكبرى ، ولكن الشرط أن تدخل بطن هذه الأم الكبرى ، كما كنت فى بطن الأم الصغرى ، لأنك حين كنت فى بطن الأم الصغرى ما كانت لك زلة ، فضلا عن أن تكون لك كبيرة ، بل كنت مطيعا لله ، بحيث دعاك مرة إلى الخروج إلى الدنيا ، فخرجت إليها بالرأس طاعة منك لربك ، واليوم يدعوك سبعين مرة إلى الصلاة فلا تجيبه برجلك .

واعلم أنه سبحانه وتعالى ، لما ذكر الأرض والسماء ، بين ما بينهما من شبه عقد النكاح ، بإنزال الماء من السماء على الأرض ، والإخراج به من بطنها أشباه النسل الحاصل من الحيوان ، ومن أنواع الثمار لبنى آدم ليتفكروا فى

---

(١) عبس : ٢٥ — ٣٢

(٢) طه : ٥٥

أنفسهم وفى أحوال ما فوقهم وما تحتهم ، ويعرفوا أن شيئا من هذه الأشياء لا يقدر على تكوينها وتخليقها إلا من كان مخالفا لها فى الذات والصفات ، وذلك هو الصانع الحكيم سبحانه وتعالى .

لهذا كله نبه الله سبحانه وتعالى ، على نفى الند له ، وإبطال الشرك به والضد معه ، فقال سبحانه :

(فَلَا تَجْعَلُوا لِلهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)[1] .

وفى هذه ترد سؤالات :

السؤال الأول : بم تعلق قوله تعالى : « فلا تجعلوا » والجواب فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن يتعلق بالأمر ، أى اعبدوا ، فلا تجعلوا لله أندادا ، فإن أصل العبادة أساسها التوحيد .

وثانيها : بلعل ، والمعنى خلقكم لكى تتقوا وتخافوا عقابه ، فلا تثبتوا له ندا ، فإن الند من أعظم موجبات العقاب .

وثالثها : بقوله (الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا) بمعنى أنه هو الذى خلق لكم هذه الدلائل الباهرة ، فلا تتخذوا له شركاء .

السؤال الثانى : ما الند ؟ والجواب : أنه المثل المنازع، ونادت الرجل نافرته من ند بـ ندودا نفر كأن كل واحد من الندين يناد صاحبه ، أى ينافره ويعانده ، فإن قيل إنهم لم يقولوا إن الأصنام تنازع الله ، قلنا : لما عبدوها وسموها آلهة أشبهت حالهم حال من يعتقد أنها آلهة قادرة على منازعته ، فقيل لهم ذلك على سبيل التهكم ، وكما تهكم بلفظ الند شنع عليهم بأنهم جعلوا أندادا كثيرة لمن لا يصلح أن يكون له ند قط .

السؤال الثالث : ما معنى (وأنتم تعلمون) ومعناه : أنكم لكمال عقولكم تعلمون أن هذه الأشياء لا يصح جعلها أندادا لله فلا تقولوا ذلك ، فإن القول

---

(١) البقرة : ٢٢

القبيح ممن علم قبحه يكون أقبح .

وليس فى العالم أحد يثبت لله شريكا يساويه فى الوجود ، والقدرة والعلم والحكمة ، وهذا مما لم يوجد إلى الآن ، لكن الثنوية يثبتون إلٰهين : أحدهما حليم يفعل الخير ، والثانى سفيه يفعل الشر ، وأما اتخاذ معبود سوى الله تعالى ففى الذاهبين إلى ذلك كثرة .

الفريق الأول عبدة الكواكب وهم الصابئة ، فإنهم يقولون إن الله تعالى خلق هذه الكواكب ، وهذه الكواكب هى المدبرات لهذا العالم ، فيجب علينا أن نعبد الكواكب ، والكواكب تعبد الله تعالى ،

والفريق الثانى : النصارى الذين يعبدون المسيح عليه السلام .

والفريق الثالث : عبدة الأوثان ، فإنه لا دين أقدم من دين عبدة الأوثان ، وذلك لأن أقدم الأنبياء الذين نقل إلينا تاريخهم هو نوح عليه السلام ، وهو إنما جاء بالرد عليهم على ما أخبر الله تعالى عن قومه فى قوله :

(وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا)[١] .

فعلمنا أن هذه المقالة كانت موجودة قبل نوح عليه السلام ، وهى باقية إلى الآن ، بل أكثر أهل العالم مستمرون على هذه المقالة .

والدين والمذهب الذى هذا شأنه يستحيل أن يكون بحيث يعرف فساده بالضرورة لكن العلم بأن هذا الحجر المنحوت فى هذه الساعة ليس هو الذى خلقنى وخلق السموات والأرض علم ضرورى فيستحيل إطباق الجمع العظيم عليه ، فوجب أن يكون لعبدة الأوثان غرض آخر سوى ذلك ، والعلماء ذكروا فيه وجوها .

أحدها : ما ذكره أبو معشر البلخى[٢] فى بعض مصنفاته :

---

(١) نوح : ٢٣

(٢) وهو أبو معشر جعفر بن محمد المنجم البلخى .

أن كثيرا من أهل الصين والهند كانوا يقولون بالله وملائكته ويعتقدون أن الله تعالى جسم ، وذو صورة كأحسن ما يكون من الصور ، وهكذا حال الملائكة أيضا في صورهم الحسنة ، وأنهم كلهم قد احتجبوا عنا بالسماء ، وأن الواجب عليهم أن يصوغوا تماثيل أنيقة المنظر حسنة الرؤيا ، على الهيئة التى كانوا يعتقدونها من صور الإله والملائكة ، فيعكفون على عبادتها قاصدين طلب الزلفى إلى الله تعالى وملائكته .

فإن صح ما ذكره أبو معشر فالسبب فى عبادة الأوثان : اعتقاد الشبه .

وثانيها : ما ذكره العلماء وهو :

أن الناس رأوا تغيرات أحوال هذا العالم مربوطة بتغيرات أحوال الكواكب ، فإن قرب الشمس وبعدها عن سمت الرأس تحدث الفصول المختلفة والأحوال المتباينة .

ثم أنهم رصدوا أحوال سائر الكواكب ، فاعتقدوا ارتباط السعادة والنحوسة فى الدنيا بكيفية وقوعها فى طوالع الناس ، فلما اعتقدوا ذلك بالغوا فى تعظيمها ،

فمنهم : من اعتقد أنها أشياء واجبة الوجود لذواتها ، وهى التى خلقت هذه العوالم ،

ومنهم : من اعتقد أنها مخلوقة للإله الأكبر لكنها خالقة لهذا العالم ، فالأولون اعتقدوا أنها فى الإله فى الحقيقة ،

والفريق الثانى أنها هى الوسائط بين الله تعالى وبين البشر ، فلا جرم اشتغلوا بعبادتها والخضوع لها ،

ثم لما رأوا الكواكب مستترة فى أكثر الأوقات عن الأبصار اتخذوا لها أصناما ، وأقبلوا على عبادتها ، قاصدين بتلك العبادات تلك الأجرام العالية ، ومتقربين إلى أشباحها الغائبة ، ثم لما طالت المدة ألغوا ذكر الكواكب ، وتجردوا لعبادة تلك التماثيل ، فهؤلاء فى الحقيقة عبدة الكواكب .

وثالثها : أن أصحاب الأحكام كانوا يعينون أوقاتا فى السنين المتطاولة ،

ويزعمون أن من اتخذ طلسما فى ذلك الوقت على وجه خاص ، فإنه ينتفع به فى أحوال مخصوصه نحو السعادة والخصب ودفع الآفات ، وكانوا إذا اتخذوا ذلك الطلسم عظموه لاعتقادهم أنهم ينتفعون به ، فلما بالغوا فى ذلك التعظيم صار ذلك كالعبادة ، ولما طالت مدة ذلك الفعل نسبوا مبدأ الأمر واشتغلوا بعبادتها على الجهالة بأصل الأمر .

ورابعها : أنه متى مات منهم رجل كبير يعتقدون فيه أنه مجاب الدعوة ومقبول الشفاعة عند الله تعالى ، اتخذوا صنما على صورته يعبدونه على اعتقاد أن ذلك الإنسان يكون شفيعا لهم يوم القيامة عند الله تعالى ، على ماأخبر الله تعالى عنهم ، بهذه المقالة فى قوله سبحانه :

(هَؤُلَاءِ هُمْ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ)[1] .

وخامسها : لعلهم اتخذوا محاريب لصلواتهم وطاعاتهم ، يسجدون إليها لا لها ، كما نسجد نحن إلى القبلة لا للقبلة ، ولما استمرت هذه الحالة ظن الجهال من القوم أنه يجب عبادتها .

وسادسها : لعلهم كانوا من المجسمة ، فاعتقدوا جواز حلول اللهِ فيها فعبدوها على هذا التأويل ،

هذه هى الوجوه التى يمكن حمل هذه المقالة عليها ، حتى ليصير بحيث يعلم بطلانه بضرورة العقل .

والله سبحانه وتعالى إنما نبه على كون الأرض والسماء مخلوقتين بما بينا أن الأرض والسماء يشاركان سائر الأجسام فى الجسمية ، فلا بد وأن يكون اختصاص كل واحد منهما بما اختص به من الأشكال والصفات والأخبار بتخصيص مخصص .

أما قول من ذهب إلى عبادة الأوثان بناء على اعتقاد الشبه ، فلما دللنا بهذه الدلالة على نفى الجسمية فقد بطل قوله .

---

(١) يونس : ١٨

أما القول بأن هذه الكواكب هى المدبرة لهذا العالم ، فلما أقمنا الدلالة على أن كل جسم يفتقر فى اتصافه بكل ما اتصف به إلى الفاعل المختار ، بطل كونها آلهة ، وثبت أنها عبيد لا أرباب ،

أما قول أصحاب الطلسمات فقد بطل أيضا ، لأن تأثير الطلسمات إنما يكون بواسطة قوى الكواكب فلما دللنا على حدوث الكواكب ثبت قولنا وبطل قولهم .

وأما قول من قال : فليس فى العقل ما يوجبه أو يحيله ، لكن الشرع لما منع منه وجب الامتناع عنه ،

وأما القول الأخير فهو أيضا بناء على التشبيه ، فثبت بما قدمنا أن إقامة الدلالة على افتقار العالم إلى الصانع المختار المنزه عن الجسمية يبطل القول بعبادة الأوثان على كل التأويلات .

ونعود الآن مرة أخرى إلى بيان الاستدلال بأحوال الأرض على وجود الصانع ، فإن الاستدلال بأحوال الأرض على وجود الصانع ، أسهل من الاستدلال بأحوال السموات على ذلك ، لأن الخصم يدعى أن اتصاف السموات بمقاديرها ، وأحيازها ، وأوضاعها ، أمر واجب لذاته ، ممتنع التغيير ، فيستغنى عن المؤثر ، فيحتاج فى إبطال ذلك إلى إقامة الدلالة على تماثيل الأجسام الأرضية ، فإنا نشاهد تغيرها فى جميع صفاتها فى ألوانها وطعومها وطباعها ، ونشاهد أن كل واحد من أجزاء الجبال والصخور الصم يمكن كسرها وإزالتها عن مواضعها وجعل العالى سافلا والسافل عاليا ، وإذا كان الأمر كذلك ثبت ان اختصاص كل واحد من أجزاء الأرض بما هو عليه من المكان والحيز والممارسة والقرب من بعض الأجسام والبعد من بعضها ممكن التغيير والتبدل ، وإذا ثبت أن اتصاف تلك الأجرام بصفاتها أمر جائز وجب افتقارها فى ذلك الاختصاص إلى مدبر قديم عليم سبحانه وتعالى عن قول الظالمين ، وإذا عرفت مأخذ الكلام سهل عليك التفريع الذى بسطنا القول فيه من قبل .

ومن الدلائل الواضحة على وجود الصانع كذلك اختلاف الليل والنهار .

والمراد باختلاف الليل والنهار تعاقبهما فى الذهاب والمجىء ، ومنه يقال : فلان يختلف إلى فلان ، إذا كان يذهب إليه ويجىء من عنده ، فذهابه يخلف مجيئه ومجيئه يخلف ذهابه ، وكل شىء يجىء بعد شىء آخر فهو خلفه ، وبهذا فسر قوله تعالى :

(وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً)(١) .

واختلاف الليل والنهار يعتبر فى الطول والقصر والنور والظلمة والزيادة والنقصان .

والليل والنهار كما يختلفان بالطول والقصر فى الزمان أو الأزمنة ، فهما يختلفان بالأمكنة ، فإن عند من يقول : الأرض كرة فكل ساعة عينتها فتلك الساعة فى موضع من الأرض صبح ، وفى موضع آخر ظهر ، وفى موضع ثالث عصر ، وفى رابع مغرب ، وفى خامس عشاء وهكذا ..

هذا إذا اعتبرنا البلاد المخالفة فى الأطوال ، أما البلاد المختلفة بالعرض ، فلكل بلد تكون عرضه الشمالى أكثر كانت أيامه الصيفية أطول ولياليه الصيفية أقصر ، وأيامه الشتوية بالضد من ذلك ، فهذه الأحوال المختلفة فى الأيام والليالى بحسب اختلاف أطوال البلدان وعرضها ، أمر مختلف عجيب .

ولقد ذكر الله تعالى ، أمر الليل والنهار فى كتابه فى عدة مواضع ، فقال فى بيان كونه مالك الملك :

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ، تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ ، وَتُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ)(٢) .

---

(١) الفرقان : ٦٢

(٢) آل عمران : ٢٦ ، ٢٧

وقال في القصص التي حكاها :

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ؟ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ، وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)[١] .

وفى سورة الروم قال تعالى :

(وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)[٢] .

وفي سورة لقمان قال سبحانه :

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)[٣] .

وفى الملائكة :

(يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ، وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ)[٤] .

وفى سورة يس قال جلّ ذكره :

(وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ)[٥] .

وفى سورة الزمر :

(يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى)[٦] .

---

(١) القصص : ٧١ — ٧٣ (٢) آية : ٢٣ (٣) آية : ٢٩

(٤) فاطر : ١٣ (٥) آية ٣٧ (٦) آية : ٥

وفى سورة حم غافر :

(اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا)[1]

وفى سورة عم :

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ، وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا)[2] .

والآيات من هذا الجنس كثيرة وتحقيق الكلام أن يقال :

إن اختلاف أحوال الليل والنهار يدل على الصانع من وجوه :

منها : أن اختلاف أحوال الليل والنهار مرتبط بحركات الشمس ، وهى من الآيات العظام .

ومنها أن ما يحصل بسبب طول الأيام تارة ، وطول الليالى أخرى من اختلاف الفصول ، وهو الربيع والصيف والخريف والشتاء وهو من الآيات العظام .

ومنها : أن انتظام أحوال العباد بسبب طلب الكسب والمعيشة فى الأيام وطلب النوم والراحة فى الليالى من الآيات العظام .

ومنها : أن كون الليل والنهار متعاونين على تحصيل مصالح الخلق مع ما بينهما من التضاد والتنافى من الآيات العظام ، فإن مقتضى التضاد بين الشيئين أن يتفاسدا لا أن يتعاونا على تحصيل المصالح .

ومنها : أن إقبال الخلق فى أول الليل على النوم يشبه موت الخلائق أولا عند النفخة الأولى فى الصور ، ويقظتهم عند طلوع الشمس شبيهة بعود الحياة إليهم عند النفخة الثانية ، وهذا أيضا من الآيات العظام المنبهة على الآيات العظام .

ومنها : أن انشقاق ظلمة الليل بظهور الصبح المستطيل ، فيه من الآيات العظام ، كأنه جدول ماء صاف ، يسيل فى بحر كدر بحيث لا يتكدر الصافى بالكدر ، ولا الكدر بالصافى ، وهو المراد بقوله تعالى :

---

(١) آية : ٦١ (٢) آية : ١٠ ، ١١

﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾[١] .

ومنها : أن تقدير الليل والنهار بالمقدار المعتدل الموافق للمصالح من الآيات العظام كما بينا ،

ومنها : أن ظهور الضوء فى الهواء ، حصل بقدرة الله تعالى ابتداء عند طلوع الشمس ، من حيث أنه تعالى أجرى عادته بخلق ضوء فى الهواء عند طلوع الشمس ، والشمس توجب حصول الضوء فى الجرم المقابل له ، واختصاص الشمس بهذه الخاصية دون سائر الأجسام ، مع كون الأجسام بأسرها متماثلة ، يدل على وجود الصانع سبحانه وتعالى :

ومن الدلائل الواضحة على وجود الصانع سبحانه قوله تعالى :

﴿ وَالْفُلْكِ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ﴾[٢] الآية .

وفى كيفية الاستدلال بجريان الفلك فى البحر على وجود الصانع سبحانه مسائل :

أحدها : أن السفن وإن كانت من تركيب الناس إلا أنه تعالى هو الذى خلق الآلات التى بها يمكن تركيب هذه السفن ، فلولا خلقه لها لما أمكن ذلك .

وثانيها : لولا الرياح المعينة على تحريكها لما تكامل النفع بها .

وثالثها : لولا هذه الرياح وعدم عصفها لما بقيت ولما سلمت .

ورابعها : لولا تقوية قلوب من يركب هذه السفن لما تم الغرض ، فصيرها الله تعالى من هذه الوجوه مصلحة للعباد ، وطريقا لمنافعهم وتجاراتهم .

وخامسها : أنه سبحانه خص كل طرف من أطراف العالم بشىء معين ، وأحوج الكل إلى الكل ، فصار ذلك داعيا يدعوهم إلى اقتحامهم هذه الأخطار فى هذه الأسفار ، ولولا أنه تعالى خص كل طرف بشىء وأحوج الكل إليه ، لما ركبوا هذه السفن ، فالحامل ينتفع به لأنه يربح ، والمحمول إليه ينتفع بما حمل إليه .

---

(١) الأنعام : ٩٦ (٢) البقرة : ١٩٤

وسادسها : تسخير الله البحر ، لحمل الفلك ، مع قوة سلطان البحر إذا هاج ، وعظم الهول فيه إذا أرسل الله الرياح ، فاضطربت أمواجه وتقلبت مياهه .

وسابعها : أن الأودية العظام ، مثل : جيحون ، وسيحون ، تنصب أبدا إلى بحيرة خوارزم على صغرها ، ثم إن بحيرة خوارزم لا تزداد ألبتة ولا تمتد ، فالحق سبحانه وتعالى ، هو العالم بكيفية حال هذه المياه العظيمة التى تنصب فيها .

وثامنها : مافى البحار من الحيوانات العظيمة ، والله تعالى يخلص السفن منها ، ويوصلها إلى سواحل السلامة ، وبر الأمن والاطمئنان .

وتاسعها : ما فى البحار من هذا الأمر العجيب ، وهو قوله تعالى :
(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ، بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ)[1] .

وقال سبحانه : (هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ)[2] .

ثم إنه تعالى بقدرته يحفظ البعض عن الاختلاط بالبعض ، وكل ذلك مما يرشد العقول والألباب إلى افتقارها إلى مدبر يدبرها ومقدر يحفظها .

وقوله تعالى فى صفة الفلك : (بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ) دل دلالة قاطعة على إباحة ركوبها ، وعلى إباحة الاكتساب والتجارة وعلى الانتفاع بالذات .

وقوله تعالى : (وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)[3] .

دل دلالة قوية على وجود الصانع ، لأن تلك الأجسام وما قام بها من صفات الرقة ، والرطوبة ، والعذوبة ، لا يقدر أحد على خلقها إلا الله تعالى .

يقول سبحانه :

---

(١) الرحمن ١٩ ، ٢٠ (٢) فاطر : ١٧ (٣) البقرة : ١٩٤

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ)(١) .

ولأنه تعالى جعل الماء سببا لحياة الإنسان ولمنافعه الكثيرة عبر عنه بقوله سبحانه :

(أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ، أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ)(٢) .

وقال سبحانه : (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)(٣) .

ولأنه تعالى كما جعله سببا لحياة الإنسان ، جعله سببا لرزقه قال تعالى :

(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ)(٤) .

ولأن السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة ، التى تسيل منها الأودية العظام تبقى معلقة فى جو السماء ، وذلك من الآيات العظام .

ولأن نزولها عند التضرع واحتياج الخلق إليه مقدار النفع من الآيات العظام ..

قال تعالى ، حكاية عن نوح عليه السلام :

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا)(٥) .

ولأنه قال سبحانه : (فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ)(٦) .

وقال سبحانه :

(وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)(٧) .

أما قوله : (فأحيا به الأرض بعد موتها) فاعلم أن الحياة من جهات متعددة :

أحدها : ظهور النبات الذى هو الكلأ والعشب وما شكلهما ، مما لولاه لما عاشت دواب الأرض .

(١) الملك : ٣٠ (٢) الواقعة : ٦٨ ، ٦٩ (٣) الأنبياء : ٣٠

(٤) الذاريات : ٢٢ (٥) نوح : ١١ (٦) فاطر : ٩ (٧) الحج : ٥

وثانيها : أنه لولاه لما حصلت الأقوات للعباد .

وثالثها : أنه تعالى ينبت كل شيء بقدر الحاجة ، لأنه تعالى ضمن أرزاق الحيوانات ، بقوله :

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)[١] .

ورابعها : أنه يوجد فيه من الألوان والطعوم والروائح وما يصلح للملابس ، لأن ذلك كله مما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه .

وخامسها : يحصل للأرض بسبب النبات حسن ونضرة ورواء ورونق فذلك هو الحياة .

والله تعالى وصف ذلك بالإحياء بعد الموت على طريق المجاز ، لأن الحياة لا تصلح أن تطلق إلا على من يدرك ، ويصح أن يعلم ، وكذلك الموت ، إلا أن الجسم إذا صار حيا حصل فيه أنواع من الحسن والنضرة والبهاء ، والنشور والنماء ، فأطلق لفظ الحياة على حصول هذه الأشياء ، وهذا من فصيح الكلام الذى على اختصاره يجمع المعانى الكثيرة .

وإحياء الأرض بعد موتها يدل على الصانع من وجوه :

أحدها : نفس الزرع ، لأن ذلك ليس فى مقدور أحد على الحد الذى يخرج عليه .

وثانيها : اختلاف ألوانها على وجه لا يكاد بحق أن يحصى .

وثالثها : اختلاف طعوم ما يظهر على الزرع والشجر .

ورابعها : استمرار العادات بظهور ذلك فى أوقاتها المخصوصة .

ومن الآيات الدالة على وجود الصانع كذلك قوله تعالى : (وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ) .

ونظيره جميع الآيات الدالة على خلقة الإنسان ، وسائر الحيوانات ، كقوله سبحانه : (وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً)[٢] .

---

(١) هود : ٦ (٢) النساء : ١

وحدوث الحيوانات قد يكون بالتوليد ، وقد يكون بالتوالد ، وعلى التقديرين فلا بد فيهما من الصانع الحكيم ، ولنبين ذلك فى الإنسان ، ثم فى سائر الحيوانات كذلك .

أما الإنسان فالذى يدل على افتقاره فى حدوثه إلى وجود الصانع وجوه :

أحدها : ثبت أن رجلا قال عند عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : أنى أتعجب من أمر الشطرنج ، فإن رُقعته ذراع فى ذراع ، ولو لعب الإنسان ألف ألف مرة ، فإنه لا يتفق مرتان على وجه واحد .

فقال عمر بن الخطاب : ههنا ما هو أعجب منه ، وهو أن مقدار الوجه شبر فى شبر ، ثم إن موضع الأعضاء التى فيه كالحاجبين والعينين والأنف والفم ، لا يتغير أبدا ، ثم إنك لا ترى شخصين فى الشرق والغرب يشتبهان ، فما أعظم تلك القدرة والحكمة التى ظهرت فى هذه الرقعة الصغيرة وهذه الاختلافات التى لا حد لها .

وثانيها : أن الإنسان متولد من النطفة ، فالمؤثر فى تصوير النطفة وتشكيلها ، قوة موجودة فى النطفة ، أو غير موجودة فيها .

فإن كانت القوة المصورة فيها ، فتلك القوة إما أن تكون لها شعور وإدراك وعلم وحكمة حتى تمكنت من هذا التصوير العجيب ، وإما أن لا تكون تلك القوة كذلك ، بل يكون تأثيرها بمجرد الطبع والعلية ، والأول ظاهر الفساد ، لأن الإنسان حال استكماله أكثر علما وقدرة ، ثم إنه حال كماله لو أراد أن يغير شعرة عن كيفيتها لا يقدر على ذلك ، فحال ما كان فى نهاية الضعف كيف يقدر على ذلك .

وأما إن كانت تلك القوة مؤثرة بالطبع فهذا المعنى ، إما أن يكون جسما متشابها لأجزاء فى نفسه ، أو يكون مختلف الأجزاء ، فإن كان متشابه الأجزاء فالقوة الطبيعية إذا عملت فى المادة البسيطة لا بد وأن يصدر منه فعل متشابه ، وهذا هو الكرة ، فكان ينبغى أن يكون الإنسان على صورة كرة ، وتكون جميع الأجزاء المفترضة فى تلك الكرة متشابهة فى الطبع ، وهذا هو

الذى يستدلون به على أن البسائط لا بد وأن تكون كرات ، فثبت أنه لا بد للنطفة فى انقلابها لحما ودما وإنسانا ، من مدبر ومقدر لأعضائها وقواها وتراكيبها ، وما ذاك إلا الصانع الموجود الواحد ، سبحانه وتعالى .

وثالثها : الاستدلال بأحوال تشريح أبدان الحيوانات والعجائب الواقعة فى تركيبها وتأليفها ، وإيراد ذلك فى هذا الموضع كالمعتذر لكثرتها ، واستقصاء الناس فى شرحها فى الكتب المعمولة فى هذا الفن .

ورابعها : ما ثبت عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال :

سبحان من بصر بشحم ، وأسمع بعظم ، وأنطق بلحم ،

ومن عجائب الأمر فى هذا التركيب أن أهل الطبائع قالوا :

أعلى العناصر يجب أن يكون هو النار ، لأنها حارة يابسة وأدون منها فى اللطافة : الهواء ، ثم الماء ، والأرض لا بد وأن تكون تحت الكل لثقلها وكثافتها ويبسها .

ثم إنهم قلبوا هذه القضية فى تركيب بدن الإنسان ، لأن أعلى الأعضاء منه عظم القحف والعظم بارد يابس على طبيعة الأرض ، وتحته الدماغ وهو بارد رطب على طبع الماء ، وتحته النفس وهو حار رطب على طبع الهواء ، وتحت الكل : القلب ، وهو حار يابس على طبع النار .

فسبحان من بيده قلب الطبائع يرتبها كيف يشاء ويركبها كيف أراد .

ومما ذكر فى هذا الفصل أن كل صانع يأتى بنقش لطيف فإنه يصونه عن التراب كى لا يكدره ، وعن الماء كى لا يمحوه ، وعن الهواء كى لا يزيل طراوته ، وعن النار كيلا تحرقه .

ثم أنه سبحانه وتعالى وضع نقش خلقته على هذه الأشياء ، فقال سبحانه :

(إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ)[1] .

---

(١) آل عمران : ٥٩

وقال تعالى : (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ)[١] .

وقال في الهواء : (فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا)[٢] .

وقال أيضا : (وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي)[٣] .

وقال تعالى : (وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي)[٤] .

وقال في النار : (وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ)[٥] .

وهذا يدل على أن صنعه بخلاف صنع كل أحد .

وخامسها : انظر إلى الطفل بعد انفصاله من الأم ، فإنك لو وضعت على فمه وأنفه ثوبا يقطع نفسه لمات في الحال ، ثم إنه بقي في الرحم الضيق مدة مديدة ، مع تعذر النفس هناك ولم يمت ، ثم إنه بعد الانفصال يكون من أضعف الأشياء وأبعدها عن الفهم ، بحيث لا يميز بين الماء والنار ، وبين المؤذي والملذ ، وبين الأم وبين غيرها .

ثم إن الإنسان وإن كان في أول أمره من أبعد الأشياء عن الفهم ، فإنه بعد استكماله أجمل الحيوانات في الفهم والعقل والإدراك ، ليعلم أن ذلك من عطاء القادر الحكيم ، فإنه لو كان الأمر بالطبع لكان كل من كان أذكى في أول الخلقة ، كان أكثر فهما وقت الاستكمال ، فلما لم يكن الأمر كذلك ، بل كان من الضد منه علمنا أن كل ذلك من عطاء الله الخالق الحكيم .

وسادسها : اختلاف الألسنة واختلاف طبائعهم ، واختلاف أمزجتهم من أقوى الدلائل على وجود الصانع سبحانه ، فإننا نرى الحيوانات البرية والبحرية مثلا شديدة المشابهة بعضها بالبعض ، ونرى الناس مختلفين جدا في الصورة ، ولولا ذلك لاختلفت المعيشة ، ولاشتبه كل أحد بأحد ، فما كان يتميز البعض عن البعض وفي ذلك فساد المعيشة واستقصاء الكلام في هذا

---

(١) الأنعام : ٣٠ (٢) الأنبياء : ٩١ (٣) المائدة : ١١٠

(٤) الحجر : ٢٩ (٥) الرحمن : ١٥

النوع لا مطمع فيه لأنه بحر لا ساحل له فلنكتفى بهذا القدر خشية التطويل .

ومن الدلائل الواضحة على وجود الصانع : تصريف الرياح .

ووجه الاستدلال بها أنها مخلوقة على وجه يقبل التصريف ، وهو الرقة واللطافة ، ثم إنه سبحانه يصرفها على وجه يقع به النفع العظيم فى الإنسان ، والحيوان والنبات ، وذلك من وجوه :

أحدها : أنها ملذة النفس الذى لو انقطع ساعة عن الحيوان لمات ، وقيل إن كل ما كانت الحاجة إليه أشد ، كان وجدانه أسهل ، ولما كان احتياج الإنسان إلى الهواء أعظم الحاجات ، حتى لو انقطع عنه لحظة لمات ، كان وجدانه لا شك أسهل من وجدان كل شيء .

وبعد الهواء الماء فأن الحاجة إلى الماء أيضا شديدة دون الحاجة إلى الهواء ،لهذا سهل أيضا وجدان الماء ولكن وجدان الهواء أسهل ، لأن الماء لابد فيه من تكلف الاغتراف بخلاف الهواء ، فإن الآلات المهيأة لجذبه حاضرة أبدا .

ثم بعد الماء الحاجة إلى الطعام شديدة ، ولكن دون الحاجة إلى الماء ، ولهذا كان تحصيل الطعام أصعب من تحصيل الماء .

وبعد الطعام الحاجة إلى تحصيل المعاجين ، والأدوية النادرة قليلة ، فلهذا عزت هذه الأشياء .

وبعد المعاجين الحاجة إلى أنواع الجواهر من اليواقيت والزبرجد نادرة جدا ، فلا غرابة أن كانت نهاية العزة .

فثبت أن كل ما كان الاحتياج إليه أشد ، كان وجدانه أسهل ، وكل ما كان الاحتياج إليه أقل ، كان وجدانه أصعب ، وما ذاك إلا رحمة منه سبحانه وتعالى على العباد .

ولما كانت الحاجة إلى رحمة الله تعالى أعظم ، فنرجو أن يكون وجدانها أسهل من وجدان كل شيء .

وثانيها : لولا تحرك الرياح لما جرت الفلك ، وذلك مما لا يقدر عليه أحد إلا الله سبحانه فلو أراد كل من في العالم أن يقلب الريح من الشمال إلى الجنوب ، أو كان الهواء ساكنا أن يحركه لتعذر .

والرياح أربع : الشمال وهو من نقطة الشمال ، والجنوب وهو من نقطة الجنوب ، والصبا وهي شرقية ، والدبور وهي مغربية .

وتسمى الصبا قبولا ، لأنها استقبلت الدبور ، وما بين كل واحد من هذه المهاب في نكباء .

وكل واحدة من هذه الرياح مثل الأخرى في دلالتها على الوحدانية ، وأما من وحد فأنه يريد به الجنس ، كقولهم ، أهلك الناس الدينار والدرهم ، وإذا أريد بالريح الجنس كانت قراءة من وحد كقراءة من جمع .

وأما ما ورد في الحديث من أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا هب الريح قال :

(اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا) فإنه يدل على أن مواضع الرحمة أولى ، قال تعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ)[١] وإنما يبشر بالرحمة .

وقال في موضع الأفراد :

(وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيهِمْ الرِّيحَ الْعَقِيمَ)[٢] .

وقد يختص اللفظ في القرآن بشيء فيكون أمارة له ، فمن ذلك أن عامة ما جاء في التنزيل من قوله تعالى :

(وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ)[٣] .

وما كان من لفظ أدراك فإنه مفسر لمبهم غير معين كقوله سبحانه : (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ)[٤] ، وقوله تعالى : (وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ)[٥] .

---

(١) الروم : ٤٦ (٢) الذاريات : ٤١ (٣) الشورى : ١٧
(٤) القارعة : ٣ (٥) القارعة : ١٠

ومن الدلائل الشاهدة على وجود الصانع ووحدانيته سبحانه وتعالى قوله تعالى :

(وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)[١] .

سمى السحاب سحابا لانسحابه فى الهواء ، ومعنى التسخير التذليل ، وإنما سماه مسخرا لأن طبع الماء ثقل يقتضى النزول ، فكان بقاؤه فى جو الهواء على اختلاف الطبع ، فلا بد من قاسر قاهر يقهره على ذلك ، فلذلك سماه بالمسخر .

كما سماه مسخرا كذلك لأن هذا السحاب لو دام لعظم ضرره ، ومن حيث أنه يستر ضوء الشمس ، ويكثر الأمطار والابتلال ، ولو انقطع لعظم ضرره ، لأنه يقتضى القحط ، وعدم إنبات العشب والزراعة ، فكان تقديره بالمقدار المعلق هو المصلحة ، فهو كالمسخر لله سبحانه ، يأتى به فى وقت الحاجة ، ويرده عند زوال الحاجة .

وسماه مسخرا أيضا لأن السحاب لا يقف فى موضع معين ، بل يسوقه الله تعالى بواسطة تحريك الرياح إلى حيث أراد وشاء .

وبهذه الدلائل ثبت الاستدلال على وجود الصانع سبحانه :

وأما قوله تعالى : (لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) فبيانه :

أن قوله (لآيات) لفظ جمع ، فيحتمل أن يكون ذلك راجعا إلى الكل ، أى مجموع هذه الأشياء آيات ، ويحتمل أن يكون راجعا إلى كل واحد مما تقدم ذكره ، فكأنه تعالى بين أن فى كل واحد مما ذكرنا آيات وأدلة تدل على أن كل واحد من هذه الأمور الثمانية يدل على وجود الصانع سبحانه وتعالى من وجوه كثيرة .

وأن كل واحد من هذه الآيات يدل كذلك على مدلولات كثيرة .

فهى من حيث أنها لم تكن موجودة ثم وجدت دلت على وجود المؤثر ،

---

(١) البقرة : ١٩٤

وعلى كونه قادرا ، لأنه لو كان المؤثر موجبا لدام الأثر بدوامه ، فما كان يحصل التغيير .

ومن حيث أنها وقعت على وجه الإحكام والإتقان دلت على علم الصانع .

ومن حيث أن حدوثها اختص بوقت دون وقت ، دلت على إرادة الصانع .

ومن حيث أنها وقعت على وجه الاتساق والانتظام من غير ظهور الفساد فيها ، دلت على وحدانية الصانع ، على ما قال تعالى :

(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا)[1] .

وكما أنها تدل على وجود الصانع وصفاته ، فكذلك تدل على وجوب طاعته وشكره علينا ، عند من يقول بوجوب شكر المنعم عقلا ، لأن كثرة النعم توجب الخلوص فى الشكر .

وكما أن كل واحد من هذه الدلائل الثمانية يدل على ذلك فإن كل واحد منها أيضا أجسام عظيمة ، فهى مركبة من الأجزاء التى لا تتجزأ ، فذلك الجزء الذى يتقاصر الحس والوهم والخيال عن إدراكه قد حصل فيه جميع هذه الدلائل ، فإن ذلك الجزء من حيث أنه حادث ، كان حدوثه لا محالة مختصا بوقت معين ، ولا بد وأن يكون مختصا بصفة معينة مع أنه يجوز فى العقل وقوعه على خلاف هذه الأمور ، وذلك يدل على الافتقار إلى الصانع الموصوف بالصفات المذكورة .

وإذا كان كل واحد من أجزاء هذه الأجسام ومن صفاتها شاهدا على وجود الصانع ، فلا غرابة أن قال : إنها آيات .

وحاصل القول أن الموجود إما قديم وإما محدث ، أما القديم فهو الله سبحانه وتعالى ، وأما المحدث فكل ما عداه .

وإذا كان فى كل محدث دلالة على وجود الصانع كان كل ما عداه على وجوده مقرًّا بوحدانيته معترفا بلسان الحال بإلٰهيته ، وهذا هو المراد من قوله سبحانه :

---

(١) الأنبياء : ٢٢

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)[١]

أما قوله تعالى : (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) فإنما خص الآيات بهم لأنهم الذين يتمكنون من النظر فيه ، والاستدلال به ، على ما يلزمهم من توحيد ربهم ، وعدله ، وحكمه ، ليقوموا بشكره ، وما يلزم من عبادته وطاعته .

فإن النعم على قسمين : نعم دنيوية ونعم دينية ، وهذه الأمور الثمانية التي عدَّها الله تعالى نِعماً دنيوية في الظاهر ، فإذا تفكر العاقل فيها ، واستدل بها على معرفة الصانع صارت نعما دينية ، ولكن الانتفاع بها من حيث أنها نعم دينية لا يكمل إلا عند سلامة العقول وانتفاع بصر الباطن ، ولذلك قال سبحانه : (لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) .

يقول القاضي عبد الجبار : الآية تدل على أمور :

أحدها : أنه لو كان الحق يدرك بالتقليد واتباع الآباء والجرى على الإلف والعادة ، لما صح ذلك .

وثانيها : لو كانت المعارف ضرورية وحاصلة بالإلهام ، لما صح وصف هذه الأمور بأنها آيات ، لأن المعلوم بالضرورة لا يحتاج في معرفتهِ إلى الآيات .

وثالثها : أن سائر الأجسام والأعراض وإن كانت تدل على الصانع فهو تعالى خص هذه الثمانية بالذكر ، لأنها جامعة بين كونها دلائل ، وبين كونها نعما للمكلفين على أوفر حظ وأكبر نصيب ، ومتى كانت الدلائل كذلك كانت أنجح في القلوب وأشد تأثيرا في الخواطر .

ولهذا قال الله سبحانه وتعالى لما قرر التوحيد بهذه الدلائل القاهرة القاطعة ، أردف ذلك بتقبيح ما يضاد التوحيد ، لأن تقبيح ضد الشيء مما يؤكد حسن الشيء ، ولذلك قالوا :

النعمة مجهولة ، فإذا فقدت عرفت ، والناس لا يعرفون قدر الصحة ، فإذا

---

(١) الإسراء : ٤٤

مرضوا ثم عادت الصحة إليهم ، عرفوا قدرها ، وكذلك القول فى جميع النعم ، فلهذا السبب أردف الله تبارك وتعالى الآية الدالة على التوحيد ، بهذه الآية الكريمة ، فقال سبحانه :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ ، وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ العَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعًا ، وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾(١) .

بهذا كله دلَّت الآية الكريمة : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾.. .. على وجود الصانع ووحدانيته ، بالدلائل العقلية ، وأن التقليد ليس طريقا إلى تحصيل هذا الغرض النبيل .

وإلى الله سبحانه الرغبة فى أن ينوِّر بدرَّة من لمعات أنوارها صدورنا وأسرارنا ، ويروِّح بها عقولنا وأرواحنا ، حتى نتخلص من ضيق عالم الحدوث إلى فسحة معارج القدم ، ونرقى من حضيض ظلمة البشرية إلى سمٰوات الأنوار القدسية ، وما ذلك على الله بعزيز .

ومجمل القول فى إثبات التوحيد الذى هو مفتاح دعوة الرسل ، بهذه الاستدلالات التى اشتملت عليها الآيات الكريمة السابقة ، هو :

كيف ينكرون وجود الله ،وتوحيده، ورحمانيته ، ورحيميته ، وقد دلَّت عليها دلائل العلويات والسفليات وعوارضهما والمتوسطات ؟

أما دلالة السماء والأرض على وجود الإله فلأنهما حادثان ، لأن لهما أجزاء يفتقران إليها ، فلا بد لهما من محدث ليس بعض أجزائهما ، لأنه دخله التركيب الحادث ، والقديم لا يكون محلا للحوادث ، والمحدث لا بد أن يكون قديما قطعا للتسلسل .

وأما دلالة السماء والأرض على التوحيد ، فلأن إلـٰه السمٰوات لو كان غير إله الأرض لما ترتبط منافع أحدهما بالآخر .

---

(١) البقرة : ١٩٥

وأما دلالتهما على الرحمتين لأنه عز وجل جعل فى الأرض مواد قابلة للصور المختلفة وأفاضها واحدة بعد أخرى بتحريك السمـٰوات .

وأما دلالة اختلاف الليل والنهار على وجود الإلـٰه فلحدوثهما من حركات السموات ، ولا بد لها من محرك فإن كان حادثا فلا بد من محدث .

وعلى التوحيد ، فلأن إلـٰه الليل لو كان غير إلـٰه النهار ، لأمكن كل واحد أن يأتى بما هو له فى وقت إتيان الآخر بما هو له ، فيلزم اجتماعهما وهو محال ، فإن امتنع لزم عجز أحدهما أو كليهما .

وأما دلالة اختلافهما على الرحمتين : فلأن الاعتدال الذى به انتظام أمر الحيوانات إنما يكون من تعاقبهما ، إذ دوام الليل مبرد للعالم فى الغاية ، ودوام النهار مسخن له فى الغاية .

وأما دلالة الفلك على وجود الإلـٰه : فلأنها أثقل من الماء فحقها الرسوب فيها ، فإمساكها فوق الماء من الله سبحانه ، ودخول الهواء فيها ، وإن كان من الأسباب ، فلا يتم عند امتلاء الفلك بالأمتعة الكثيرة ، إذ يقل الهواء جدا فيضعف أثره فى إمساك هذا الثقيل جدا ، فلا ينبغى أن ينسب إلا إلى الله تعالى من أول الأمر .

وأما دلالة الفلك على التوحيد : فلأن إلـٰه الفلك لو كان غير إله البحر ، لربما منع أحدهما الآخر من التصرف فى ملكه ، وهو يفضى إلى اختلال نظام العالم لاختلاف المنافع المنوطة بالفلك .

وأما دلالته على الرحمتين : فلأنه رحم المسافرين بالتجارات ، والمسافر إليهم بالأمتعة التى يحتاجون إليها .

وأما دلالة إنزال الماء على وجود الإلـٰه : فلأنه أثقل من الهواء ، فوجوده فى مركزه لا يكون إلا من الله تعالى .

أما دلالته على التوحيد : فلأن إلـٰه الماء لو كان غير إلـٰه الهواء ، لمنع من التصرف فى ملكه .

وأما دلالته على الرحمتين : فلأنه أحيا به الأرض معاشا للحيوانات ، وبث به

الدواب تكميلا لمنافع الإنسان .

وأما دلالة تصريف الرياح على وجود الإلـٰه ، فلأنها حادثة تحدث هذه مرة ، وهذه أخرى ، وقد يعدم الكل ، فلا بد من محدث ، فإن كان حادثا افتقر إلى قديم .

وأما دلالته على التوحيد : فلأنه لو كان لكل ريح إلـٰه لأمكن لكل أن يأتى بما له ، فيلزم اجتماع الرياح المختلفة وهو مخِلّ بالنظام .

وأما دلالته على الرحمتين ، فلأنها تحرك الفلك والسحب وتنمى الأشجار والثمار .

وأما دلالة السحاب على وجود الإلـٰه ، فلأنه لو كان ثقيلا لنزل ، ولو كان خفيفا لصعد ، لكنه يصعد تارة وينزل أخرى ، فهو من الله تعالى .

وأما على التوحيد ، فلأن إلـٰه السحاب لو كان غير إلـٰه السحاب الآخر ، لأمكن لكل واحد أن يجعل سحابه فى مكان سحاب الآخر ، فيلزم تداخل الأجسام أو العجز .

وأما دلالته على الرحمتين : فلأن منها الأمطار وله وجوه أخر من الدلالات وفوائد غير محصورة .

وبعد : فيقول سبحانه :

(اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَـارَ ، وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّار)[1] .

والاستدلال بهذه الآية الكريمة أن الله تبارك وتعالى لما بين وصف أحوال

---

(١) إبراهيم : ٣٢ — ٣٤

السعداء ، وأحوال الأشقياء ، وكانت العمدة العظمى ، والمنزلة الكبرى ، فى حصول السعادات ، معرفة الله تعالى ، بذاته وصفاته ، وفى حصول الشقاوة فقدان هذه المعرفة ، ختم الله تعالى وصف أحوال السعداء والأشقياء بالدلائل الدالة على وجود الصانع ، وكمال علمه وقدرته ، فذكر سبحانه فى هذه الآية عشرة أنواع من الدلائل :

أولها وثانيها : خلق السموات والأرض ، وإليهما الإشارة بقوله تعالى : (اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ) .

وثالثها قوله : (وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ) .

ورابعها قوله : (وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ) .

وخامسها قوله : (وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ) .

وسادسها وسابعها قوله : (وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) .

وعاشرها قوله : (وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ) .

وهذه الدلائل العشرة ، مرَّ ذكرها وتفسيرها ، ولنذكر من فوائدها :

أنه تعالى بدأ بذكر خلق السموات والأرض ، لأنهما هما الأصلان اللذان يتفرع عليهما سائر الأدلة المذكورة بعد ذلك ، فإنه قال تعالى بعده :

(وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ) .

فلولا السماء لم يصح إنزال الماء منها ، ولولا الأرض لم يوجد ما يستقر الماء فيه ، فظهر أنه لا بد من وجودهما حتى يحصل هذا المقصود وهذا المطلوب .

غير أن الكثير من الناس ممن تأخر منهم ، جهلوا معنى التوحيد ، وحملوا ما ورد من نصوص ما لا يطاق مما لا يتصوره عقل ، ولا يصدقه من يخش الله

ويتقه ، حتى قيض الله سبحانه من أسلافنا من قام ببيان التوحيد الذى دعت إليه الرسل ، ونهت عن تقليد واتباع ما كان عليه أهل الشرك ، وبيان أن الدعوة إلى توحيد الله تعالى ووحدانيته سبحانه ، من أهم الأمور وأوجبها ، لمن وفقه الله سبحانه لفهمه ، وأعطاه القدرة على نشر الدعوة إليه ، والجهاد المستمر ضد من خالفه ، وأشرك بالله فى عبادته ، وألحد فى توحيده ووحدانيته ، مما ألزمنا أن نورد من الاستدلالات القاطعة ، بإثبات توحيد الله تعالى ، ونفى الشريك عنه سبحانه ، ما أفعمنا به من تراث أسلافنا الخالد ، فى هذا المقام رضوان الله تعالى عليهم .

وخير ما نختتم به هذا الفصل لما له من مناسبة دقيقة ، ما ثبت فى الحديث الصحيح :

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال :

جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ، إنا نجد أن الله يحمل السموات على أصبع ، والأرضين على أصبع ، والشجر على أصبع ، والماء على أصبع ، والثرى على أصبع ، وسائر الخلق على أصبع ، فيقول : أنا الملك .

فضحك النبى ﷺ ، حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر ، ثم قرأ رسول الله ﷺ :

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[١] .

والاستدلال بهذا الحديث على إثبات التوحيد لله الذى هو مفتاح دعوة الرسل ، هو :

---

(١) الزمر : ٦٧

أن الله تعالى لما احتج بالخلق والتقدير على حدوث السموات والأرض قال بعده :

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) .

قال هذا ردا لقول القائلين بقدم السموات والأرض ، لأنهم لما قالوا بذلك ، أثبتوا بزعمهم الباطل أن لله شريكا فى كونه قديما أزليا ، فنزه الله نفسه عن ذلك ، وبين أنه لا قديم إلا هو .

وبهذا البيان ظهر أن الفائدة المطلوبة من قوله :

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) :

إبطال قول من يقول : إن الأصنام تشفع للكفار فى دفع العقاب عنهم .

وإبطال قول من يقول : الأجسام قديمة ، والسموات والأرض أزلية .

فنزه الله سبحانه وتعالى نفسه ، عن أن يشاركه غيره فى الأزلية والقدم .



الفصل الثالث

« لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا »



لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا

قال الله تعالى :

(أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ، لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ، لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ، أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ، وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)(١) .

التشبيه بين الله سبحانه وبين خلقه منفى عنه ، وصفات القدم لله مستحقة له ، وما هو من خصائص الحدثان وسمات الخلق فيقدس الحق سبحانه عن جميع ذلك .

فلا تشبه ذات القديم بذوات المخلوقين ، ولا صفاته بصفاتهم ، ولا حكمه بحكمهم .

ذلك : أنه لا قسيم لذاته سبحانه جوازا أو وجوبا ، ولا شبيه ولا شريك ، ومن لم يتحقق بهذه الجملة قطعا ، وبشهادة البراهين له تفصيلا ، فهو فى دركات الشرك واقع ، وعن حقائق التوحيد بمعزل ، قال تعالى فى صفة الكفار :

(قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ)(٢) .

فالعلة لمن أراد المعرفة متاحة ، وأدلة الخلق على وحدانيته لائحة .

والله سبحانه وتعالى أخبر بمضمون هذه الآية : أنه لا إله إلا هو ، وأنه

---

(١) الأنبياء : ٢١ — ٢٥ (٢) (٢) النحل : ٢٢

لا ينبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له ، فإنه مالك كل شيء وخالقه وربه القادر على إحيائه وإماتته .

كما أخبر سبحانه وتعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ، فقال عز وجل :

(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا) .

وقال سبحانه وتعالى :

(مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ)[1] .

وقد أوضح هذا المعنى الجليل صاحب رسالة التوحيد إيضاحا ما عليه من مزيد فقال :

« مما يجب له تعالى صفة الوحدة : ذاتا ، ووصفا ، ووجودا ، وفعلا .

أما الوحدة الذاتية فقد أثبتناها بنفي التركيب في ذاته خارجا وعقلا .

وأما الوحدة في الصفة : بمعنى أنه لا يساويه في صفاته الثابتة له موجود ، فأما أن الصفة تابعة لمرتبة الوجود ، وليس في الموجودات ما يساوي واجب الوجود في مرتبة الوجود ، فلا يساويه فيما يتبع الوجود من الصفات .

وأما الوحدة في الوجود في الفعل ، بمعنى التفرد بوجوب الوجود ، وما يتبعه من إيجاد الممكنات فهي ثابتة ، لأنه لو تعدد واجب الوجود لكان لكل من الواجبين تعين يخالف تعين الآخر بالضرورة ، وإلا لم يحصل معنى التعدد .

وكلما اختلفت التعينات اختلفت الصفات الثابتة للذوات المتعينة ، لأن الصفة إنما تتعين وتنال تحققها الخاص بها ، بتعين ما ثبت له بالبداهة ، فيختلف العلم والإرادة باختلاف الذوات الواجبة ، إذ يكون لكل واحدة منها علم وإرادة يباينان علم الأخرى وإرادتها ، ويكون لكل واحدة علم وإرادة يلائمان ذاتها وتعينها الخاص بها .

---

(١) المؤمنون : ٩١

هذا التخالف ذاتي ، لأن علم الواجب وإرادته لازمان لذاته من ذاته ، لا لأمر خارج ، فلا سبيل إلى التغير والتبدل فيهما .

وفعل الواجب إنما يصدر عنه على حسب علمه وحكم إرادته ، فيكون فعل كل صادرا على حكم يخالف الآخر مخالفة ذاتية ،

فلو تعدد الواجبون لتخالفت أفعالهم بتخالف علومهم وإرادتهم ، وهو خلاف يستحيل معه الوفاق ، وكل واحد بمقتضى وجوب وجوده وما يتبعه من الصفات ، له السلطة على الإيجاد فى عامة الممكنات ، فكل له التصرف فى كل منها على حسب علمه وإرادته ، ولا مرجع لنفاذ إحدى القدرتين دون الأخرى ، فتتضارب أفعالهم حسب التضارب فى علومهم وإرادتهم ، فيفسد نظام الكون ، بل يستحيل أن يكون له نظام ، بل يستحيل وجود ممكن من الممكنات ، لأن كل ممكن لا بد أن يتعلق به الإيجاد على حسب العلوم والإرادات المختلفة ، فيلزم أن يكون للشيء الواحد وجودات متعددة وهو محال .

فلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، لكن الفساد ممتنع بالبداهة ، فهو جل شأنه واحد فى ذاته ، وصفاته ، لا شريك له فى وجوده ولا فى أفعاله .

يقول الإمام الغزالى رضى الله عنه :

« إن هذه الآية : لا أبين منها فى برهان التوحيد ، وأنه لا مزيد على بيان القرآن » .

والفساد المذكور فى هذه الآية إما بمعنى خروج السماء والأرض عن هذا النظام المشاهد من بقاء الأنواع وترتيب الآثار كما هو الظاهر .

وإما بمعنى عدم تكوينهما فى الأصل كما قالوا .

ثم إن كل من يخاطب بها يعرف أن منشأ الفساد هو تعدد الإله ، فهى بعبارتها تنفى آلهة متعددة غير الواحد تعالى ، وبدلالتها تنفى تعدد الآلهة .

وقوله تعالى : (فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) أى من وجود شريك له فيهما .

والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، من ثبوت الوحدانية بالدليل القاطع ، فسبحوه سبحانه التسبيح اللائق به ، ونزهوه عما يفترون .

وفيه تعجب ممن يشرك مع المعبود الأعظم البارىء لأعظم المكونات ، وهو العرش ، غيره ، ممن لا يقدر على شيء أصلا .

وقوله سبحانه : (أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ)[١] .

بمعنى يبعثون الموتى ويخرجونهم من العدم إلى الوجود .

والمقصود منه : أنهم اتخذوا آلهة من الأرض هم مع حقارتهم وجماديتهم ينشرون الموتى كلا ، فإن ما اتخذوها آلهة بمعزل من ذلك ، فكيف جعلوها لله ندا ، وعبدوها معه ؟ .

يقول الزمخشري رحمه الله تعالى :

فإن قلت : كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة تنشر ، وما كانوا يدعون ذلك لآلهتهم ؟

كيف وهم أبعد شيء عن هذه الدعوى ؟ وذلك أنهم كانوا مع إقرارهم لله عز وجل بأنه خالق السموات والأرض :

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ)[٢] .

وبأنه القادر على المقدورات كلها ، وعلى النشأة الأولى ، فإنهم مع ذلك كله ، منكرين للبعث ويقولون : (مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ)[٣] وكان عندهم من قبيل المحال الخارج عن قدرة القادر القديم ، فكيف يدعونه للجماد الذي لا يوصف بالقدرة رأسا ؟ .

قلت : لأنهم لما اشتغلوا بعبادتها ولا بد للعبادة من فائدة هي الثواب فإقدامهم على عبادتها يوجب عليهم الإقرار بكونهم قادرين على الحشر والنشر والثواب والعقاب ، فذكر ذلك على سبيل التهكم بهم والتجهيل لهم .

والمراد : إذا كانوا غير قادرين على أن يحيوا ويميتوا ، ويضروا وينفعوا ، فأي

---

(١) الأنبياء : ٢١ (٢) لقمان : ٢٥ (٣) يس : ٧٨

عقل يجوِّز اتخاذهم آلهة ؟

فيكون المنكر عليهم صريح الدعوى ولازمها ، وهو أبلغ فى الإنكار .

ثم استطرد يقول :

وفيه باب من التهكم بهم والتوبيخ والتجهيل ، والإشعار بأن ما استبعدوه من الله لا يصح استبعاده ، لأن الإلهية لما صحت صح معها الاقتدار على الإبداء والإعادة » .

وقوله (من الأرض) كقولك فلان من مكة أو من المدينة ، تريد مكى أو مدنى ، إذ معنى نسبتها إلى الأرض الإيذان بأنها الأصنام التى تعبد فى الأرض ، لأن الآلهة على ضربين أرضية وسماوية ويجوز أن يراد آلهة من جنس الأرض لأنها إما أن تكون منحوتة من بعض الحجارة أو معمولة من بعض جواهر الأرض .

والنكتة فى (هم ينشرون) معنى الخصوصية ، كأن قيل : أم اتخذوا آلهة من الأرض لا يقدر على الإنشار إلا هم وحدهم .

فسر قوله تعالى : « من الأرض » هو تحقير الأصنام بأنها أرضية سفلية ، وجوز إرادة التخصيص لأنها إما أن تنحت من بعض الحجارة أو تعمل من بعض جواهر الأرض ، وإنما خصص الإنكار بها لأن ما هو أرضى مصنوع بأيديهم فكيف يدعى ألوهيته ؟ ثم بين تعالى بطلان تعدد الإلهية بإقامة البرهان على انتفائه ، بل على استحالته ، بقوله سبحانه :

(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا) .

وقوله تعالى : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا) قال أهل النحو : إلا ههنا بمعنى غير ، أى لو كان يتولاهما ويدبر أمورهما شىء غير الواحد الذى هو فاطرهما لفسدتا ، ولا يجوز أن يكون بمعنى الاستثناء لأنا لو حملناه على الاستثناء لكان المعنى لو كان فيهما آلهة ليس معهم الله لفسدتا وهذا يوجب بطريق المفهوم ، أنه لو كان فيهما آلهة معهم الله أن يحصل الفساد ، وذلك

باطل لأنه لو كان فيهما آلهة فسواء لم يكن الله معهم أو كان ، فالفساد لازم ، ولما بطل حمله على الاستثناء ثبت أن ما ذكرناه هو المراد .

وقال المتكلمون : القول بوجود إلـٰهين يفضى إلى المحال ، فوجب أن يكون القول بوجود إلـٰهين محالا ، وإنما قلنا : إنه يفضى إلى المحال ، لأنا لو فرضنا وجود إلـٰهين فلا بد وأن يكون واحد منهما قادرا على كل المقدورات ، ولو كان كذلك لكان كل واحد منهما قادرا على تحريك زيد وتسكينه ، فلو فرضنا أن أحدهما أراد تحريكه والآخر تسكينه ، فإما أن يقع المرادان وهو محال لا ستحالة الجمع بين الضدين ، أو لا يقع واحد منهما وهو محال أيضا ، لأن المانع من وجود مراد كل واحد منهما مراد الآخر ، فلا يمتنع مراد هذا إلا عند وجود مراد ذلك وبالعكس ، فلو امتنعا معا لوجدا معا وذلك محال ، أو يقع مراد أحدهما دون الثانى وذلك محال أيضا .

ولهذا اقتضت حكمته ، عز جاهه ، وجل ثناؤه ، وقدست أسماؤه ، وتنزهت صفاته ،ألا يكون له فى ملكه شريك ، ولا لسلطانه معين أو ظهير ، يقول سبحانه :

﴿ وَقَالَ اللهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَـٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّاىَ فَارْهَبُونِ ، وَلَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ ، وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ، ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ، لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾(١) .

ففى هذه الآيات الكريمة أعلمنا الله سبحانه أنه لما بين فى الآية الأولى السابقة لهذه الآيات أن كل ما سوى الله تعالى ، سواء كان من عالم الأرواح أو من عالم الأجسام ، فهو منقاد خاضع لجلال الله تعالى وعظمته وكبريائه ، أتبعه فى هذه الآيات الكريمة بالنهى عن الشرك ، وبالأمر بأن كل ما سواه فهو ملكه وملكه وأنه غنى عن الكل فقال :

---

(١) النحل : ٥١ — ٥٥

(لَا تَتَّخِذُوا إِلَـٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ) .

ولقائل أن يقول : إن إلهين لا بد وأن يكونا اثنين ، فما الفائدة من قوله (إلهين اثنين) والجواب : كما قال صاحب النظم :

فيه تقديم وتأخير ، والتقدير : لا تتخذوا اثنين إلهين .

والذى يغلب على الظن : أن الشيء إذا كان مستنكرا مستقبحا ، فمن أراد المبالغة فى التنفير عنه عبر عنه بعبارات كثيرة ليصير توالى تلك العبارات سببا لوقوف العقل على ما فيه من القبح .

لهذا فإن القول بوجود الإلهين قول مستقبح فى العقول ، ولهذا المعنى فإن أحدا من العقلاء لم يقل بوجود إلهين متساويين فى الوجوب والقدم وصفات الكمال .

فقوله سبحانه : (لَا تَتَّخِذُوا إِلَـٰهَيْنِ اثْنَيْنِ) المقصود من تكريره تأكيد التنفير عنه ، وتكميل وقوف العقل على ما فيه من القبح .

وأن قوله (إلهين) لفظ واحد يدل على أمرين : ثبوت الإله وثبوت التعدد ، فإذا قيل : لا تتخذوا إلهين لم يعرف من هذا اللفظ أن النهى وقع عن إثبات الإله ، أو عن إثبات التعدد ، أو عن مجموعها ، فلما قال : (لا تتخذوا إلهين اثنين) ثبت أن قوله (لا تتخذوا إلهين) نهى عن إثبات التعدد فقط .

وكذلك أيضا أن الاثنينية منافية للإلهية ، وتقرير ذلك :

أنا لو فرضنا موجودين ، يكون كل واحد منهما واجبا لذاته ، لكانا مشتركين فى الواجب الذاتى ومتباينين بالتعين ، وما به المشاركة غير ما به المباينة ، فكل واحد منهما مركب من جزأين ، وكل مركب فهو ممكن ، فثبت أن القول بأن واجب الوجود أكثر من واحد ينفى القول بكونهما واجبى الوجود .

وليس هذا فحسب بل إنا لو فرضنا إلـٰهين وحاول أحدهما تحريك جسم ، والآخر أراد تسكينه — كما سبق أن أشرنا ، امتنع كون أحدهما أولى بالفعل من الثانى ، لأن الحركة الواحدة ، والسكون الواحد ، لا يقبل القسمة أصلا ، ولا

اتفاق أصلا ، وإذا كان كذلك امتنع أن تكون القدرة على أحدهما أكمل من القدرة على الثاني ، وإذا ثبت هذا امتنع كون إحدى القدرتين أولى بالتأثير من الثانية ، والذى ترتب على هذا : فإما أن يحصل مراد كل واحد منهما وهو محال ، أو لا يحصل مراد كل واحد منهما وهو محال أيضا .

فحينئذ يكون كل واحد منهما عاجزا والعاجز لا يكون إلها ، فثبت أن كونهما اثنين ينفى كون كل واحد منهما إلها .

ودليل آخر : وهو أن أحدهما إما أن يقوى على مخالفة الآخر ، أو لا يقوى عليه ، فإن لم يقو عليه فهو ضعيف وإن قوى عليّه فذاك الآخر ، وإن لم يقو على الدفع فهو ضعيف ، وإن قوى عليه فالأول المغلوب ضعيف ، فثبت أن الاثنينية والإلهية متضادتان .

فقوله (لَا تَتَّخِذُوا إِلَـٰهَيْنِ اثْنَيْنِ) المقصود منه ، التنبيه على حصول المنافاة والمضادة ، بين الإلهية وبين الاثنينية ، والله سبحانه وتعالى لما ذكر هذا الكلام قال (إِنَّمَا هُو إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ) والمعنى :

أنه لما دلت الدلائل السابقة على أنه لا بد للعالم من الإله ، وثبت أن القول بوجود الإلهين مجال ، ثبت أنه لا إله إلا الواحد الأحد الفرد الصمد .

ولهذا قال بعده (فَإِيَّایَ فَارْهَبُون) وهذا رجوع من الغيبة إلى الحضور .

لأنه لما ثبت أن الإله واحد ، وثبت كذلك أن المتكلم بهذا الكلام إله ، فحينئذ ثبت أنه لا إله للعالم إلا المتكلم بهذا الكلام ، فحينئذ يحسن منه أن يعدل من الغيبة إلى الحضور ، ويقول :(فَإِيَّایَ فَارْهَبُون) .

وفيه دقيقة أخرى : وهى أن قوله (فَإِيَّایَ فَارْهَبُون) يفيد الحصر ، وهو أن لا يرهب الخلق إلا منه ، وأن لا يرغبوا إلا فى فضله وإحسانه ، وكرمه وجوده ، لأن الموجود إما قديم وإما محدث ، أما القديم الذى هو الإله فهو واحد ، وأما ما سواه فمحدث ، وإنما حدث بتخليق ذلك القديم وبإيجاده، وإذا كان ذلك كذلك فلا رغبة إلا إليه ، ولا رهبة إلا منه ، فبفضله تندفع الحاجات ، وبتكوينه وبتخليقه تنقطع الضرورات :

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ)[١] .

ثم قال بعده « وله ما فى السموات والأرض » وهذا حق ، لأنه لما كان الإله واحدا والواجب لذاته واحدا ، كان كل ما سواه حاصلا بتخليقه وتكوينه وإيجاده ، فثبت بهذا البرهان صحة قوله :

(وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) .

واحتج بعض العلماء بهذه الآية على أن أفعال العباد مخلوقة لله ، وليس المراد من كونها لله تعالى أنها مفعولة لله لأجله ولغرض طاعته ، لأن فيها المباحات والمحظورات التى يؤتى بها لغرض الشهوة واللذة ، لا لغرض الطاعة ، فوجب أن يكون المراد من قولنا إنها لله أنها واقعة بتكوينه وتخليقه .

ثم قال سبحانه بعده (وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا) والمراد من الدين ههنا الطاعة ، والواصب الدائم[٢] .

قال ابن قتيبة رحمه الله تعالى :

ليس من أحد يدان له ويطاع ، إلا انقطع ذلك بسبب فى حال الحياة أو بالموت إلا الحق سبحانه ، فإن طاعته واجبة أبدا .

ويقول الفخر الرازى فى تفسيره الكبير :

« الدين قد يعنى به الانقياد ، يقال : يا من دانت له الرقاب ، أى انقادت ، فقوله (وله الدين واصبا) أى انقياد كل ما سواه له لازم أبدا ، لأن انقياد غيره معلل بأن غيره ممكن لذاته ، والممكن لذاته يلزمه أن يكون محتاجا إلى السبب فى طرفى الوجود والعدم ، والماهيات يلزمها الإمكان لزوما ذاتيا ، وإلا مكان يلزمه الاحتياج إلى المؤثر لزوما ذاتيا .

---

(١) يونس : ١٠٧

(٢) يقال وصب الشيء يصب وصوبا إذا دام ، قال تعالى : (ولهم عذاب واصب) ويقال : واظب على الشيء وواصب عليه إذا داوم ، ومفازة واصبة أى بعيدة لا غاية لها ، ويقال للعليل واصب ، ليكون ذلك المرض لازما له .

ينتج أن الماهيات يلزمها الاحتياج إلى المؤثر لزوما ذاتيا ، فهذه الماهيات موصوفة بالانقياد لله تعالى اتصافا دائما ، واجبا لازما ممتنع التغير .

ثم استطرد يقول : وفى الآية دقيقة لطيفة وهى :

أن العقلاء اتفقوا على أن الممكن حال حدوثه محتاج إلى السبب المرجح ، واختلفوا فى الممكن حال بقائه هل هو محتاج إلى السبب ؟

قال المحققون : إنه محتاج لأن علة الحاجة هى الإمكان ، والإمكان من لوازم الماهية فيكون حاصلا للماهية حال حدوثها وحال بقائها ، فتكون علة الحاجة حال حدوث الممكن وحال بقائه ، فوجب أن تكون الحاجة حاصلة حال حدوثها وحال بقائها .

وإذا عرف هذا فقوله (وَلَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) معناه : أن كل ما سوى الحق فإنه محتاج فى انقلابه من العدم إلى الوجود ، أو من الوجود إلى العدم ، إلى مرجح ومخصص ، وقوله (وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا) معناه أن هذا الانقياد وهذا الاحتياج حاصل دائما أبدا ، وهو إشارة إلى ما ذكرناه من أن الممكن حال بقائه لا يستغنى عن المرجح والمخصص ، وهذه دقائق من أسرار العلوم الإلهية ، مودعة فى هذه الألفاظ الفائضة من عالم الوحى والنبوة » اهـ .

ثم قال الله تعالى (أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ)والمعنى : أنكم بعد ما عرفتم أن إله العالم واحد ، وعرفتم أن كل ما سواه محتاج إليه فى وقت حدوثه ، ومحتاج إليه أيضا فى وقت دوامه وبقائه ، فبعد العلم بهذه الأصول كيف يعقل أن يكون للإنسان منكم رغبة فى غير الله تعالى ، أو رهبة عن غير الله تعالى ؟

فلهذا المعنى قال على سبيل التعجب (أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ)ثم قال بعدها . (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ) .

ولبيان إسناد هذه النعم إلى الله سبحانه ، فإن الله تعالى لما بين بالآية الأولى أن الواجب على العاقل أن لا يتقى غير الله ، بين فى هذه الآية أنه يجب عليه أن لا يشكر أحدا إلا الله تعالى ، لأن الشكر إنما يلزم على النعمة ، وكل نعمة ، حصلت للإنسان فهى من الله تعالى ، لقوله (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ)

فثبت بهذا أن العاقل يجب عليه أن لا يخاف أحدا إلا الله وأن لا يشكر أحدا إلا الله تعالى .

وبهذه الآية الكريمة احتج من قال إن الإيمان حصل بخلق الله تعالى فقال : الإيمان نعمة ، وكل نعمة فهى من الله تعالى لقوله : (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ) والإيمان من الله .

وإنما قال : إن الإيمان نعمة ، لأن المسلمين مطبقون على قولهم : الحمد لله على نعمة الإيمان ، وأيضا فالنعمة عبارة عن كل ما يكون منتفعا به ، وأعظم الأشياء فى النفع هو الإيمان ، فثبت أن الإيمان نعمة .

وكل نعمة من الله تعالى ، لقوله تعالى (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ) وهذه اللفظة تفيد العموم ، وأيضا مما يدل على أن كل نعمة فهى من الله ، أن كل ما كان موجودا فهو إما واجب لذاته ، وإما ممكن لذاته ، والواجب لذاته ليس إلا الله تعالى ، والممكن لذاته لا يوجد إلا المرجح ، وذلك المرجح إن كان واجبا لذاته كان حصول ذلك الممكن بإيجاد الله تعالى ، وإن كان ممكنا لذاته عاد التقسيم الأول فيه ، ولا يذهب إلى التسلسل ، بل ينتهى إلى إيجاد الواجب لذاته ، فثبت بهذا البيان أن كل نعمة فهى من الله تعالى .

والنعم إما دينية ، وإما دنيوية :

أما النعم الدينية فهى إما معرفة الحق لذاته ، وإما معرفة الخير لأجل العمل به .

وأما النعم الدنيوية فهى إما نفسانية ، وإما بدنية ، وإما خارجية وكل واحد من هذه الثلاثة جنس تحت أنواع خارجة عن الحصر والتحديد ، كما قال : وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا) .

ثم قال تعالى (ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ) قال ابن عباس رضى الله عنهما : يريد الأسقام والأمراض والحاجة

(فَإِلَيهِ تَجْأَرُونَ) ترفعون أصواتكم بالاستغاثة ، وتتضرعون إليه بالدعاء .

ومعنى ذلك أنه تعالى بين أن جميع النعم من الله تعالى ، ثم إذا اتفق لأحد مضرة توجب زوال شيء من تلك النعم فإلى الله يجأر ، ولا يستغيث أحد إلا الله

تعالى ، لعلمه بأنه لا مفزع للخلق إلا هو ، فكأنه تعالى قال لهم فأين أنتم عن هذه الطريقة فى حال الرخاء والسلامة ولهذا قال بعده :

(ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ) .

فبين تعالى أن عند كشف الضر وسلامة الأحوال يفترقون ، ففريق منهم يبقى على مثل ما كان عليه عند الضر فى أن لا يفزع إلا إلى الله تعالى ، وفريق منهم عند ذلك يتغيرون فيشركون بالله غيره ، وهذا جهل وضلال ، لأنه لما شهدت فطرته الأصلية ، وخلقته الغريزية عند نزول البلاء والضراء ، والآفات والمخافات ، علم أن لا مفزع إلا إلى الواحد ، ولا مستغاث إلا الواحد ، فعند زوال البلاء والضراء وجب أن يبقى على ذلك الاعتقاد ، فأما أنه عند نزول البلاء يقر بأنه لا مستغاث إلا الله تعالى ، وعند زوال البلاء يثبت الأضداد والشركاء ، فهذا جهل عظيم وضلال كامل ، ونظير هذه الآية قوله تعالى :

(فَلَمَّا نَجَّاهمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ، لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ)[1]

والمقصود منه أنهم أشركوا بالله غيره فى كشف ذلك الضر عنهم ، وغرضهم من ذلك الإشراك أن ينكروا كون ذلك الإنعام من الله تعالى ، ألا ترى أن العليل إذا اشتد وجعه تضرع إلى الله تعالى ، فى إزالة ذلك الوجع ، فإذا زال أحال زواله على الدواء والعلاج الفلانى ، وهذا أكثر أحوال الخلق .

والمراد بقوله (بما آتيناهم) : إنه عبارة عن كشف الضر وإزالة المكروه ، أو المراد به القرآن وما جاء به سيدنا محمد ﷺ من النبوة والشرائع .

ولذلك توعدهم الله بعد ذلك فقال (فتمتعوا) وهذا لفظ أمر ، والمراد منه التهديد ،

ثم قال تعالى « فسوف تعلمون » عاقبة أمركم وما ينزل بكم من العذاب .

وهذه حجة تامة فى مسألة التوحيد ، لأن القول بوجود الإلهين يفضى إلى امتناع وقوع المقدور لواحد منهما ، وإذا كان كذلك وجب أن لا يقع ذلك

---

(١) العنكبوت : ٦٥

أصلا ، وحينئذ يلزم وقوع الفساد قطعا ، أو نقول : لو قدرنا إلهين ، فإما أن يتفقا او يختلفا ، فإن اتفقا على الشيء الواحد مقدور لهما ومراد لهما فيلزم وقوعه بهما وهو محال ، وإن اختلفا : فإما أن يقع المرادان أو لا يقع واحد منهما ، أو يقع أحدهما دون الآخر ، والكل محال ، فثبت أن الفساد لازم على كل التقديرات .

لهذا : فاعلم أنك لما وقفت على حقيقة هذه الدلالة ، عرفت أن جميع ما في هذا العالم العلوى والسفلى من المحدثات والمخلوقات ، فهو دليل وحدانية الله تعالى ، بل وجود كل واحد من الجواهر والأغراض دليل تام على التوحيد من الوجه الذى بيناه .

وهذه الدلالة قد ذكرها الله تعالى فى مواضع من كتابه ،

ثم إن ههنا أدلة أخرى على وحدانية الله تعالى ، نذكر منها على سبيل المثال ، أننا لو فرضنا موجودين واجبى الوجود لذاتيهما فلا بد وأن يشتركا فى الوجود ، ولا بد وأن يمتاز كل واحد منهما عن الآخر بنفسه ، وما به المشاركة غير ما به الممايزة ، فيكون كل واحد منهما مركبا مما به يشارك الآخر ، ومما به امتاز عنه ، وكل مركب فهو مفتقر إلى جزئه وجزؤه غيره ، فكل مركب فهو مفتقر إلى غيره ، وكل مفتقر إلى غيره ممكن لذاته ، فواجب الوجوب لذاته ، ممكن الوجود لذاته ، وهذا خلف ، فإذن واجب الوجود ليس إلا الواحد وكل ما عداه فهو ممكن مفتقر إليه ، وكل مفتقر فى وجوده إلى الغير فهو محدث فكل ما سوى الله تعالى محدث .

وهذه الدلائل تعد بحق لا شك فيه تفسيرا لهذه الآية الكريمة كما سبق أن أوضحنا .

أما الدلائل السمعية التى تدل على وحدانيته سبحانه ، وهى كلها وجوه ظنية إقناعية معتمدة ، فمنها قوله تعالى :

(هُوَ الْأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ)[1]

---

(١) الحديد : ٤٣

فالأول هو التفرد السابق ، لأن الله سبحانه وتعالى ، لما وصف نفسه بكونه أولا وجب أن يكون فردا سابقا فوجب أن لا يكون له شريك .

ومنها قوله تعالى :

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ، وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)[1] .

فالنص يقتضى أن لا يكون أحد سواه عالما بالغيب ، ولو كان له شريك لكان عالما بالغيب وهو خلاف النص الوارد فى قرآنه .

ومنها : أن الله تعالى صرح بكلمة (لا إله إلا هو) فى سبعة وثلاثين موضعا من كتابه ، وصرح بالوحدانية فى مواضع كثيرة نحو قوله سبحانه (وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ) .

وقوله تعالى (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) وكل ذلك صريح فى الباب .

ومنها : قوله تعالى : (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)[2] فإنه سبحانه وتعالى حكم بهلاك كل ما سواه ومن عدم بعد وجوده لا يكون قديما ، ومن لا يكون قديما لا يكون إلـٰها .

ومنها : قوله تعالى : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا)[3] وهو كقوله تعالى : (وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ)[4] وقوله سبحانه :(إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا)[5] .

ومنها : قوله تعالى : (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ)[6]

وقال فى آية أخرى :

---

(١) الأنعام : ٥٨ — (٢) القصص : ٨٨ — (٣) الأنبياء : ٢٢

(٤) المؤمنون : ٩١ — (٥) الإسراء : ٤٢ — (٦) يونس : ١٠٧

(قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَّا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ)(١) .

ومنها : قوله تعالى :

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ)(٢) .

وهذا الحصر يدل على نفي الشريك له سبحانه .

ومنها : قوله تعالى (اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ)(٣) .

فلو وجد الشريك لم يكن خالقا فلم يكن فيه فائدة .

واعلم أن كل مسألة لا تتوقف معرفة صدق الرسل عليها فإنه يمكن إثباتها بالسمع ، والوحدانية لا تتوقف معرفة صدق الرسل عليها ، فلا جرم يمكن إثباتها بالدلائل السمعية .

أما من طعن في دلالة التمانع فإنه فسر الآية بأن المراد : لو كان في السماء والأرض آلهة تقول بإلهيتها عبدة الأوثان لزم فساد العالم ، لأنها جمادات لا تقدر على تدبير العالم ، فيلزم فساد العالم ، لعجزها عن تدبير العالم .

قالوا : وهذا أولى ، لأنه تعالى حكى عنهم قوله :

(أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ)(٤) .

ثم ذكر الدلالة على فساد هذا ، فوجب أن يختص الدليل به .

والله سبحانه وتعالى لما أقام الدلالة القاطعة على توحيده ، بقوله : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » قدس نفسه ونزه ذاته عن الشريك والمثيل ، فقال بعده :

(فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)(٥)

---

(١) الزمر : ٣٨ (٢) الأنعام : ٤٦ (٣) الزمر : ٦٢
(٤) الأنبياء : ٢ (٥) الأنبياء : ٢٢

فهو المنزه لأجل هذه الأدلة عن وصفهم بأن معه إلها ، وهذا تنبيه على أن الاشتغال بالتسبيح إنما ينفع بعد إقامة الدلالة على كونه تعالى منزها ، وعلى أن طريقة التقليد طريقة مهجورة ومرفوضة .

وهذه المناظرة وإن كانت وقعت مع عبدة الأصنام ، إلا أن الدليل الذى ذكره الله تعالى ، يعم جميع المخالفين ، ومن بين المخالفين عبدة الأصنام ، ولهذا فإنه تعالى بعد أن ذكر الدليل العام نبه على نكتة خاصة بعبدة الأصنام ، وهى أنه كيف يجوز للعاقل أن يجعل الجماد الذى لا يعقل ولا يحس شريكا فى الإلهية لخالق العرش العظيم ، وموجد السموات والأرضين ، ومدبر الخلائق ، من النور والظلمة ، واللوح والقلم ، والذات والصفات ، والجماد والنبات وأنواع الحيوانات أجمعين .

ولكن على الزغم من هذا كله فإن الثنوية والمجوس وهم الذين أثبتوا بزعمهم الضال الشريك لله تعالى قالوا :

رأينا فى العالم خيرا وشرا ، ولذة وألما ، وحياة وموتا ، وصحة وسقما ، وغنى وفقرا ، وفاعل الخير خير ، وفاعل الشر شرير ، ويستحيل أن يكون الفاعل الواحد خيرا وشريرا معا ، فلا بد من فاعلين ليكون أحدهما فاعلا للخير والآخر فاعلا للشر .

ويرجع حاصل هذه الشبهة عندهم إلى أن مدبر العالم لو كان واحدا لما خص هذا بالحياة ، والصحة والغنى ، وخص ذلك بالموت والألم والفقر ، فيرجع حاصله إلى طلب اللمية فى أفعال الله تعالى ، فلما كان مدار أمر القائلين بالشريك على طلب اللمية ، لا جرم أنه سبحانه وتعالى ، بعد أن ذكر الدليل على التوحيد ذكر ما هو النكتة الأصلية فى الجواب عن شبهة القائلين بالشريك ، لأن الترتيب الجيد فى المناظرة أن يقع الابتداء بذكر الدليل المثبت للمطلوب ، ثم يذكر بعده ما هو الجواب عن شبهة الخصم ، ولهذا قال سبحانه وتعالى بعد هذه الآية :

(أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ)[١] استعظاما لكفرهم وبيانا لقبح وصفهم لله ، وجعلهم له شريكا ، فتحداهم وعنتهم بقوله :

(هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ) على ذلك ، إما من جهة العقل ، أو من جهة النقل

وعلة ذلك أنه سبحانه لما ذكر دليل التوحيد أولا ، وقرر الأصل الذى عليه تخرج شبهات القائلين بالتثنية ثانيا ، أخذ يطالبهم بذكر شبهتهم ثالثا .

وقوله تعالى (هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي)[٢] المراد منه :

أن الكتب المنزلة على من تقدمنى من الأنبياء : وهى التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والصحف ، ليس فى شىء منها ما يدل على أنى أذنت بأن تتخذوا إلـٰها من دونى ، بل ليس فيها إلا :

(إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)[٣]

كما قال بعد هذا :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)[٤]

يقول سعيد بن جبير وقتادة ومقاتل والسدى رضى الله تعالى عنهم :

« إن قوله » وذكر من قبلى صفة للقرآن ، فإنه كما يشتمل على أحوال هذه الأمة فكذا يشتمل على أحوال الأمم الماضية .

والمعنى المراد : قل لهم هذا الكتاب الذى جئتكم به ، قد اشتمل على بيان أحوال من معى من المخالفين والموافقين ، وعلى بيان أحوال من قبلى من المخالفين والموافقين ، فاختاروا لأنفسكم ، كأن الغرض منه التهديد .

وقوله تعالى : (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ)[٥]

---

(١) الأنبياء : ٢٤
(٢) الأنبياء : ٢٤
(٣) طه : ١٤
(٤) الأنبياء : ٢٥
(٥) الأنبياء : ٢٤

ثم قرر سبحانه وتعالى آيات التوحيد فقال :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُون)[١] .

فإن هذه الآية مقررة لما سبقها من آيات التوحيد .

أما قوله تعالى :

(وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ، لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ . وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَـٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)[٢] .

فاعلم أنه سبحانه وتعالى ، لما بين بالدلائل الباهرة ، كونه منزها عن الشريك ، والضد والند ، أردف ذلك ببراءته عن اتخاذ الولد فقال :

(وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا) .

وهذه الآية نزلت فى خزاعة حيث قالوا : الملائكة بنات الله ، وأضافوا إلى ذلك ، أنه تعالى صاهر الجن على ما حكى الله تعالى عنهم فقال :

(وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا)[٣] .

ثم إنه سبحانه وتعالى نزه نفسه عن ذلك بقوله سبحانه ، لأن الولد لا بد وأن يكون شبيها بالوالد ، فلو كان لله ولد لأشبهه من بعض الوجوه ، ثم لا بد وأن يخالفه من وجه آخر ، وما به المشاركة غير ما به الممايزة ، فيقع التركيب فى ذات الله سبحانه وتعالى ، وكل مركب ممكن ، فاتخاذه للولد يدل على كونه ممكنا غير واجب ، وذلك يخرجه عن حد الإلهية ، ويدخله فى حد العبودية ،

---

(١) الأنبياء : ٢٥ (٢) الأنبياء : ٢٦ — ٢٩ (٣) الصافات : ١٥٨

ولذلك نزه نفسه عنه .

أما قوله (بَلْ عِبَادٌ مكْرَمُونَ) فإن الله سبحانه لما نزه نفسه عن الولد أخبر عنهم بأنهم عباد ، والعبودية تنافى الولادة ، وبالتالى فإنهم مكرمون مفضلون على سائر العباد .

(لَا يَسْبِقُونَهُ) لا يقولون شيئا حتى يقوله ، فلا يسبق قولهم قوله ، وكما أن قولهم تابع لقوله ، فعملهم أيضا كذلك مبنى على أمره لا يعملون عملا ما لم يؤمروا به .

ثم إنه سبحانه ذكر ما يجرى مجرى السبب لهذه الطاعة فقال :

(يَعْلَمُ مَا بَينَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) .

والمعنى أنهم لما علموا كونه سبحانه عالما بجميع المعلومات ، علموا كونه عالما بظواهرهم وبواطنهم ، فكان ذلك داعيا لهم إلى نهاية الخضوع وكمال العبودية ، وأنهم يتقلبون تحت قدرته فى ملكوته وهو محيط بهم ، وإذا كانت هذه حالتهم ، فكيف يستحقون العبادة ؟ وكيف يتقدمون بين يدى الله تعالى ، فيشفعون لمن لم يأذن الله تعالى له ؟ كلا ، ثم كلا .

لهذا كشف الله سبحانه وتعالى عن هذا المعنى فقال : (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى) والمعنى أنهم لا يشفعون إلا لمن هو مرضى عنه عند الله سبحانه ، ولهذا عقب على هذا فقال :

(وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) أى مشفقون خائفون لا يأمنون مكره .

عن سيدنا رسول الله ﷺ ، كما جاء فى الصحيح :

« أنه رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج ساقطا كالحلس من خشية الله تعالى » .

ونظيره قوله تعالى : (لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَـٰنُ)[1]

---

(١) النبأ : ٣٨

أما قوله تعالى : (وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَـٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ) فالمعنى أن كل من يقول من الملائكة ذلك القول فإنا نجازى ذلك القائل بهذا الجزاء ، وهذا لا يدل على أنهم قالوا ذلك أو ما قالوه وهو قريب من قوله تعالى :
(لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ)(١) .

وهذه الصفات تدل على العبودية ، وتنافى الولادة ، لأنهم لما بالغوا فى الطاعة إلى حيث لا يقولون قولا ولا يعملون عملا إلا بأمره ، وهذه صفات للعبيد لا صفات الأولاد .

والله سبحانه لما كان عالما بأسرار الملائكة ، وهم لا يعلمون أسرار الله تعالى ، وجب أن يكون الإلـٰه المستحق للعبادة هو لا هؤلاء الملائكة .

وهذه الدلالة هى نفس ما ذكره عيسى عليه السلام فى قوله :
(تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ)(٢)

ولأنهم أيضا لا يشفعون إلا لمن ارتضى ، ومن يكن إلـٰها أو ولدا للإلـٰه لا يكون كذلك .

ولأنهم على نهاية الإشفاق والوجل ، وذلك ليس إلا من صفات العبيد .
لهذا كله نبّه الله سبحانه وتعالى بقوله :
(وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَـٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ) .
على أن حالهم كحال سائر العبيد المكلفين فى الوعد والوعيد ، فكيف يصح كونهم آلهة .

ولاستيفاء الاستدلال على وجود الصانع ووحدانيته سبحانه ، بقى أن نذكر قوله تعالى :

---

(١) الزمر : ٦٥
(٢) المائدة : ١١٦

(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ، وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ، وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ ، وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ، وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)(١) .

فإن لهذه الآيات وجه ارتباط بما تقدمها من آيات بينات .

ذلك أن الله سبحانه وتعالى ، لما شرع فى بيان الدلائل الدالة على وجود الصانع وبين أن هذه الدلائل دالة على كونه منزها عن الشريك ، لأنها دالة على حصول الترتيب العجيب فى العالم ، ووجود الإلهين يقتضى وقوع الفساد ، فهذه الدلائل تدل من هذه الجهة علي التوحيد ،فتكون كالتوكيد لما تقدم ، وفيها رد على عبدة الأوثان من حيث أن الإله القادر على هذه المخلوقات الشريفة ، كيف يجوز فى العقل أن يعدل عن عبادته ، إلى عبادة حجر لا يضر ولا ينفع ؟ وبهذا كان وجه تعلق هذه الآية بما قبلها ، وفى هذه الآيات ذكر سبحانه وتعالى أنواع من الدلائل :

فقوله سبحانه :

(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا) .

ولقائل أن يقول : المراد من الرؤية فى قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا) ، إما الرؤية ، وإما العلم ، والأول مشكل ، أما أولا فلأن القوم ما رأوهما كذلك ، وأما ثانيا فلقوله سبحانه وتعالى :

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ)(٢) .

وأما العلم فمشكل : لأن الأجسام قابلة للفتق والرتق فى أنفسها ، فالحكم

---

(١) الأنبياء : ٣٠ ــ ٣٣

(٢)الكهف : ٥١

عليها بالرتق أولا وبالفتق ثانيا لا سبيل إليه إلا السمع والمناظرة مع الكفار ، الذين ينكرون الرسالة ، فكيف يجوز التمسك بمثل هذا الاستدلال ؟

ويجاب عنه بأن المراد من الرؤية هو العلم وما ذكروه من السؤال فدفعه من وجوه :

(أحدها) أنا نثبت نبوة سيدنا محمد ﷺ بسائر المعجزات ، ثم نستدل بقوله ، ثم نجعله دليلا على حصول النظام فى العالم ، وانتفاء الفساد عنه ، وذلك يؤكد الدلالة المذكورة فى التوحيد .

(وثانيها) أن يحمل الرتق والفتق على إمكان الرتق والفتق ، والعقل يدل عليه ، لأن الأجسام يصح عليها الاجتماع والافتراق فاختصاصها بالاجتماع دون الافتراق ، أو بالعكس يستدعى مخصصا .

(وثالثها) أن اليهود والنصارى كانوا عالمين بذلك ، فإنه جاء فى التوراة أن الله تعالى ، خلق جوهرة ، ثم نظر إليها بعين الهيبة فصارت ماء ، ثم خلق السمٰوات والأرض منها وفتق بينها ، وكان بين عبدة الأوثان وبين اليهود نوع صداقة بسبب الاشتراك فى عداوة سيدنا محمد ﷺ ، فاحتج الله تعالى عليهم بهذه الحجة بناء على أنهم يقبلون قبل اليهود فى ذلك

والمراد من الرتق والفتق على أقوال :

(أحدها) وهو قول الحسن ، وقتادة ، وسعيد بن جبير ، ورواية عكرمة ، عن ابن عباس رضى الله عنهم :

كانتا شيئا واحدا ملتزقتين ففصل الله سبحانه وتعالى بينهما ، ورفع السماء إلى حيث هى وأقر الأرض .

وهذا القول يوجب أن خلق الأرض مقدم على خلق السماء ، لأنه تعالى لما فصل بينهما ترك الأرض حيث هى وأصعد الأجزاء السماوية .

قال كعب رضى الله عنه ، خلق الله السموات والأرض منتصفتين ثم خلق ريحا توسطتهما ففتقهما بها .

(وثانيها) وهو قول أبى صالح ومجاهد : كانت السموات مرتتقة فجعلت

سبع سموات وكذلك الأرضون .

(وثالثها) وهو قول ابن عباس والحسن وأكثر المفسرين : أن السموات والأرض كانتا رتقا بالاستواء والصلابة ، ففتق الله السماء بالمطر ، والأرض بالنبات والشجر ، ونظيره قوله تعالى :

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ، وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ)[١]

ورجحوا هذا الوجه على سائر الوجوه بقوله بعد ذلك (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّ) وذلك لا يليق إلا وللماء تعلق بما تقدم ، ولا يكون كذلك إلا إذا كان المراد ما ذكر .

(ورابعها) قول أبي مسلم الأصفهاني ، يجوز أن يراد بالفتق الإيجاد والإظهار ، كقوله : (فَاطِرِ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ)[٢] وكقوله تعالى : (قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ)[٣]

فأخبر عن الإيجاد بلفظ الفتق ، وعن الحال قبل الإيجاد بلفظ الرتق .

وتحقيقه : أن العدم نفى محض ، فليس فيه ذوات مميزة وأعيان متباينة ، بل كأنه أمر واحد متصل متشابه ، فإذا وجدت الحقائق فعند الوجود يتميز بعضها عن بعض ، وينفصل بعضها عن بعض ، فبهذا الطريق حسن جعل الرتق مجازا عن العدم ، والفتق عن الوجود .

(وخامسها) : أن الليل سابق على النهار ، لقوله تعالى :

(وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ)[٤]

وكانت السموات والأرض مظلمة أولا ففتقهما الله تعالى باظهار النهار المبصر .

والظاهر يقتضي أن السماء على ما هي عليه ، والأرض على ما هي عليه كانتا رتقا ، ولا يجوز كونهما كذلك إلا وهما موجودان .

---

(١) الطارق : ١١ ، ١٢
(٢) فاطر : ١
(٣) الأنبياء : ٥٦
(٤) يس : ٣٧

والرتق ضد الفتق ، فإذا كان الفتق هو المفارقة فالرتق يجب أن يكون هو الملازمة ، وبهذا الطريق صار الوجه الرابع والخامس مرجوحا ، ويصير الوجه الأول أولى الوجوه ، ويتلوه الوجه الثانى ، وهو أن كل واحد منهما كان رتقا ففتقهما بأن جعل كل واحد منهما سبعا ، ويتلوه الثالث وهو أنهما كانا صلبين من غير فطور وفرج ، ففتقهما لينزل المطر من السماء ، ويظهر النبات على الأرض .

ودلالة هذه الوجوه على إثبات الصانع وعلى وحدانيته ظاهرة ، لأن أحدا لا يقدر على مثل ذلك ، والأقرب أنه سبحانه خلقهما رتقا لما فيه من المصلحة للملائكة ، ثم لما أسكن الله الأرض أهلها جعلهما فتقا لما فيه من منافع العباد والبلاد .

النوع الثانى من الدلائل : قوله تعالى
(وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) .

ولقائل أن يقول كيف قال : وجعلنا من الماء كل شيء حى ، وقد قال : (وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ)(١) .

وجاء فى الأخبار أن الله تعالى خلق الملائكة من النور ، وقال تعالى فى حق عيسى عليه السلام :
(وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِى)(٢) .

وقال فى حق آدم عليه السلام : (خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ)(٣) .

والجواب أن اللفظ وإن كان عاما إلا أن القرينة المخصصة قائمة ، فإن الدليل لا بد وأن يكون مشاهدا محسوسا ، ليكون أقرب إلى المقصود ، وبهذا الطريق تخرج عنه الملائكة ، والجن وآدم وقصة عيسى عليهم السلام ، لأن الكفار لم يروا شيئا من ذلك .

---

(١) الحجر : ٢٧ (٢) المائدة : ١١٠ (٣) النساء : ٥٩

واختلف المفسرون ، فقال بعضهم : المراد من قوله : (كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ) الحيوان فقط .

وقال آخرون بل يدخل فيه النبات والشجر لأنه من الماءناميا وصار فيه الرطوبه والخضرة والنور والثمر ، وهذا القول أليق بالمعنى المقصود ، كأنه تعالى قال (فَفَتَقْنَا السَّمَاءَ) لإنزال المطر ، وجعلنا منه كل شىء فى الأرض من النبات وغيره حيا .

أما قوله تعالى (أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) فالمراد أفلا يؤمنون بأن يتدبروا هذه الأدلة فيعلموا بها الخالق الذي لا يشبه غيره ، ويتركوا طريقة الشرك بالفرار إلى اليقين .

وقوله تعالى : (وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ) .

والرواسى الجبال ، والراسى هو الداخل فى الأرض ، يقول ابن عباس رضى الله عنهما :

« إن الأرض بسطت على الماء فكانت تنكفىء بأهلها كما تنكفىء السفينة ، لأنها بسطت على الماء فأرساها الله تعالى بالجبال الثقال » .

وهذا إعلام بأنه سبحانه حين خلقها جعلها على تلك الصفة ، فهى بيان لما أبهم لكى يهتدوا إلى وحدانية الله تعالى بهذا الاستدلال الدقيق .

وحفظ السموات : بمعنى أنها محفوظة من الوقوع بالسقوط الذى يجرى مثلها على سائر السقوف ، وصدق الله العظيم إذ يقول :

(وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ)[١] .

وقال سبحانه : ((وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ)[٢] .

وقال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)[٣] .

وقال جل شأنه : (وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا)[٤] .

واقتضت حكمة الواحد الأحد ، وشاءت إرادته سبحانه ، أن ختم هذه

---

(١) الحج : ٦٥
(٢) الروم : ٢٥
(٣) فاطر : ٤١
(٤) البقرة : ٢٥٥

الآيات بقوله : (وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ) يعنى : هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية ، كالاستضاءة بقمرها والاهتداء بكواكبها ، وحياة الأرض بأمطارها ، وهم عن كونها آية بينة على وجود الخالق ، ووحدانيته معرضون .

وفى هذا بيان للناس عما وضع الحق سبحانه فى السموات من الأدلة الواضحة ، والعبر البالغة فى حركاتها ، وجهات حركاتها ، ومطالعها ومغاربها واتصالات بعضها ببعض ، وانفصالاتها على الحساب القويم ، والترتيب العجيب ، الدال على الحكمة البالغة ، والقدرة الباهره .

ثم استطرد المولى عز وجل سرد الأدلة الواضحة فى الآيات التالية ، الدالة على وحدانيته سبحانه وتعالى فقال :

(وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)(١) .

ذلك أنه لما قال سبحانه : (وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ) فصَّل تلك الآيات ههنا ، لأنه تعالى خلق السماء والأرض ، ولم يخلق الشمس والقمر ، ليظهر بهما الليل والنهار ، ويظهر بهما أيضا من المنافع ، بتعاقب الحر والبرد ، لم تتكامل نعم الله تعالى على عباده ، بل إنما يكون ذلك بسبب حركاتها فى أفلاكها ، فلهذا قال :

(كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) .

فقد ثبت بالإرصاد أن للكواكب حركات مختلفة ، بسط فيها القول سادتنا

---

(١) الأنبياء : ٣٣

العلماء فى كتب تفسيرهم لهذه الآيات الكريمة [١]

وبالجملة : فالعقول لا تقف إلا على القليل من أسرار المخلوقات ، أما الجليل الأعظم منها ، فسبحان الخالق المدبر بالحكمة البالغة ، والقدرة الغير المتناهية :

(فَلِلَّـهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَـٰوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ ، وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[٢]

---

(١) انظر التفسير الكبير للإمام الفخر الرازى رضى الله عنه .

(٢) الجاثية : ٣٦ ، ٣٧



الباب الثالث :

أصل الدين واحد والشرائع مختلفة

وجه الحاجة إلى الدين الخاتم

خاتمة وتتمة



الفصل الأول

أصل الدين واحد والشرائع مختلفة



أصل الدين واحد والشرائع مختلفة

يقول الله تعالى :

(شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ، أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيهِ ، اللهُ يَجْتَبِى إِلَيهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيهِ مَنْ يُنِيبُ)[1] .

فى هذه الآية القرآنية الكريمة ، بين الله سبحانه وتعالى ، ما شرعه لأصحاب رسوله ﷺ ، من الدين ، وهو ما وصى به نوحا ، ومحمدا ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى .

وقد خص الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية هؤلاء الأنبياء الخمسة بالذكر ، لأنهم أكابر الأنبياء ، وأصحاب الشرائع السماوية العظيمة ، والأتباع الكثيرة .

وهذا هو المقصود من لفظ هذه الآية الكريمة ، أما جملة المقصود منها ، فهو أنه :

شرع لكم من الدين دينا تطابقت الأنبياء على صحته ، على أنه يجب أن يكون المراد من هذا الدين شيئا مغايرا للتكاليف والأحكام ، لأنها مختلفة متفاوته ، قال تعالى :

(لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا)[2] .

فيجب أن يكون المراد منه الأمور التى لا تختلف باختلاف الشرائع ، وهى : الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر .

والإيمان بالله سبحانه : يوجب الإعراض عن الدنيا ، والإقبال على

---

(١) الشورى : ١٣ (٢) المائدة : ٤٨

الآخرة ، والسعى فى مكارم الأخلاق والاحتراز عن رذائل الأحوال والكف عنها ، والبعد عن محارمه سبحانه .

ويجوز أن يكون المراد من قوله سبحانه : « ولا تتفرقوا » لا تتفرقوا بالآلهة الكثيرة كما قال سيدنا يوسف عليه السلام :

(أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)(١) .

وقال تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)(٢) .

ففى هذا القول الإلهى بيان التوحيد الخالص ، ونفى الأضداد والأنداد .

وفى قوله سبحانه :

(وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ، فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)(٣) .

بيان أن ملة الإسلام ملتكم ، فتقطعوا يعنى المشركين واليهود والنصارى :

وقوله تعالى : (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا)(٤) أى سبيلا وسنة .

وقوله سبحانه : (لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ)(٥) .

يعني شريعة هم عاملون بها ، قائمون عليها .

وأصل الدين واحد اتفق عليه الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، وإنما الاختلاف فى الشرائع والمناهج .

ذلك أن جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، أجمعوا على توحيد الله تعالى ، عبادة واستعانة ، كما أجمعوا على تنزيهه عما لا يليق بجنابه

---

(١) يوسف : ٣٩ (٢) الأنبياء : ٢٥ (٣) المؤمنون : ٥٢ ، ٥٣

(٤) المائدة : ٤٨ (٥) الحج : ٦٧

الأقدس ، وجلاله الأعلى ، وتحريم الإلحاد فى أسمائه ، وأن حق الله على عباده أن يعظموه تعظيما لا يشوبه تفريط ، وأن يسلموا وجوههم له ، وقلوبهم إليه ، وأن يتقربوا بشعائر الله إلى الله تعالى ، وأن يعتقدوا أنه قدر جميع الحوادث قبل أن يخلقها ، وأن لله ملائكة لا يعصونه فيما أمر ، بل ويفعلون ما يؤمرون ، وأنه ينزل الكتاب على من يشاء من عباده ، ويفرض طاعته على الناس ، وأن القيامة حق ، والبعث بعد الموت حق ، والجنة حق ، والنار حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها .

وكذلك أجمعوا على أنواع البر من الطهارة ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، والتقرب إلى الله سبحانه بنوافل الطاعات ، من الدعاء ، والذكر ، وتلاوة الكتاب المنزل من الله تعالى ، على رسوله ﷺ .

وكذلك أجمعوا على مشروعية النكاح ، وتحريم السفاح ، وإقامة العدل بين الناس ، وتحريم المظالم ، وإقامة الحدود على أهل المعاصى ، والجهاد مع أعداء الله سبحانه ، والاجتهاد فى إشاعة أمر الله تعالى ونشر دينه .

فهذا أصل الدين ، ولذلك لم يبحث القرآن العظيم عن لمية هذه الأشياء إلا ما شاء الله سبحانه ، فإنها كانت مسلمة فيمن نزل القرآن على ألسنتهم ، وإنما الاختلاف فى صور هذه الأمور وأشباحها .

فكان فى شريعة موسى عليه السلام مثلا الاستقبال فى الصلاة إلى بيت المقدس ، وفى شريعة نبينا محمد ﷺ إلى الكعبة المشرفة .

وكان فى شريعة موسى عليه السلام الرجم فقط ، وجاءت شريعة سيدنا محمد ﷺ ، بالرجم للمحصن والجلد لغيره .

وكان فى شريعة موسى عليه السلام القصاص فقط ، وجاءت شريعة رسول الله ﷺ بالقصاص والدية جميعا .

وعلى ذلك اختلافهم فى أوقات الطاعات وآدابها وأركانها .

وبالجملة فالأوضاع الخاصة التى مهدت ، وبينت بها أنواع البر والارتفاقات هى الشرعة والمنهاج .

والطاعات التى أمر الله تعالى بها ، فى جميع الأديان ، إنما هى أعمال تنبعث من الهيئات النفسانية ، التى هى فى المعاد للنفوس أو عليها ، وتمد فيها وتشرحها ، وهى أشباحها وتماثيلها ، ولا جرم أن ميزانها وملاك أمرها تلك الهيئات ، فمن لم يعرفها لم يكن من الأعمال على بصيرة ، فربما اكتفى بما لا يكفى ، ولا بما صلى بلا قراءة ولا دعاء .

إذن فلا بد من سياسة عارف حق المعرفة ، يضبط الخفى المشتبه بأمارات واضحة ، ويجعلها أمرا محسوسا يميزه الأدانى والأقاصى ، ولا يشتبه عليهم ليطالبوا به ، ويؤاخذوا عليه على حجة من الله سبحانه واستطاعة منهم .

والمحارم والآثام ربما تشتبه بما ليس بإثم كقول المشركين :

(إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا)[1] .

إما لقصور العلم ، أو لغرض دنيوى يفسد بصيرته ، فمست الحاجة إلى أمارات يتميز بها الإثم من غيره ، ولو لم يؤقت الأوقات لاستكثر بعضهم القليل من الصلاة والصوم ، فلم يغن ذلك عنهم شيئا ، ولم تكن المعاقبة على تسللهم واحتيالهم ، ولو لم يعين لهم الأركان والشروط لخبطوا خبط عشواء ، ولولا الحدود لم ينزجر أهل الطغيان والفجور .

وبالجملة : فالناس لا يتم تكليفهم ، إلا بأوقات وأركان ، وشروط وعقوبات ، وأحكام كلية ونحو ذلك ، وإذا شئت أن تعرف للتشريع ميزانا ، فتأمل حال الطبيب الحاذق عندما يجتهد فى سياسة المرضى ، ويخبرهم بما لا يعرفون ، ويكلفهم بما لا يحيطون بدقائقه علما ، كيف يعمد إلى مظنات محسوبة ، فيقيمها مقام الأمور الخفية كما يقيم حمرة البشرة ، وخروج الدم من اللثة مقام غلبة الدم ، وكيف ينظر إلى قوة المرض ، وسن المريض وبلده وفصله إلى قوة الدواء ، وجميع ما هناك ، فيحدس بمقدار خاص من الدواء

---

(١) البقرة : ٢٧٥

يلائم الحال ، فيكلف به ، وربما اتخذ قاعدة كلية من قبل إقامة المظنة مقام سبب المرض ، وإقامة هذا القدر الذى تفطن به من الدواء مقام إزالة المادة المؤذية ، أو تغيير هيئتها الفاسدة .

وتأمل كذلك حال الملك الحكيم الناظر فى إصلاح المدينة ، وسياسة الجيوش ، كيف ينظر إلى الأرض وريعها ، وإلى الزراع ومؤنتهم ، وإلى الحراس وكفايتهم ، فيضرب العشر والخراج حسب ذلك ، وكيف يقيم هيئات محسوسة وقرائن ، مقام الأخلاق والملكات التى يجب وجودها فى الأعوان ، فيتخذهم على ذلك القانون ، وكيف ينظر إلى الحاجات التى لا بد من كفايتها وإلى الأعوان وكثرتهم ، فيوزعهم توزيعا يكفى المقصود ولا يضيق عليهم .

وتأمل حال الرجل بالنسبة إلى صبيانه ، والسيد بالنسبة إلى غلمانه ، يريد هذا تعليمهم ، ويريد ذلك كفاية الحاجة المقصودة بأيديهم ، وهم لا يعرفون حقيقة المصلحة ، ولا يرغبون فى إقامتها ، ويتسللون ويعتذرون ، ويحتالون كيف يعرفان مظنة الثلمة قبل وقوعها ، فيسدان الخلل ، ولا يخاطبانهم إلا بطريقة ليلها نهارها ، ونهارها ليلها ، لا يجدون منها حيلة ، ولا يتمكنون من التسلل وهى تفضى إلى المقصود من حيث يعلمون أو لا يعلمون .

وبالجملة : فكل من تولى أمرا من الأمور لإصلاح جمع غفير ، ولم يكن من هذا الأمر على بصيرة ، ولا فيه على رغبة ، يضطر إلى تقدير وتوقيت وتعيين أوضاع وهيئات يجعلها العمدة فى المطالبة والمؤاخذة .

والله تعالى لما أراد ببعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، فأوحى إليهم أمره لذلك ، وألقى عليهم نوره ، ونفث فيهم الرغبة فى إصلاح العالم ، وكان اهتداء القوم يومئذ لا يتحقق إلا بأمور ومقدمات ، وجب فى حكمة الله تعالى ، أن لا يلتوى جميع ذلك فى إرادة بعثتهم ، وأن يكون افتراض طاعة الرسل وانقيادهم منفسحا إلى افتراض مقدمات الإصلاح ، وكل ما لا يتم فى العقل أو العادة إلا به ، فإنه جملة يجر بعضها بعضا ، والله تعالى لا يخفى عليه خافية ، وليس فى دين الله سبحانه جزاف ، فلا يعين شىء دون نظائره

إلا بحكم وأسباب يعلمها الراسخون فى العلم ، ونحن نريد أن ننبه على جملة صالحة من تلك الحكم والأسباب .

ونزول الشرائع الخاصة بعصر دون عصر ، وقوم دون قوم ، الأصل فيه قول الله تعالى :

(كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِى إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوراَةُ ، قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوراَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)[1] .

وسببها أن يعقوب عليه السلام مرض مرضا شديدا ، فنذر لئن عافاه الله ليحرمن على نفسه أحب الطعام والشراب إليه ، فلما عوفى حرم على نفسه لحمان الأبل وألبانها ، واقتدى به بنوه فى تحريمها ، ومضى على ذلك القرون حتى اضمروا فى نفوسهم التفريط فى حق الأنبياء إن خالفوهم بأكلها ، فنزلت التوراة بالتحريم ، ولما بين النبى ﷺ ، أنه على ملة إبراهيم ، قالت اليهود :

« كيف يكون على ملته وهو يأكل لحوم الإبل وألبانها ؟

فرد الله تعالى عليهم ، أن كل الطعام كان حلا فى الأصل ، وإنما حرمت الإبل لعارض لحق باليهود ، فلما ظهرت النبوة فى بنى إسماعيل وهم برآء من ذلك العارض لم يجب رعايته .

وقول النبى ﷺ فى صلاة التراويح — كما جاء فى الحديث الصحيح :

« ما زال بكم الذى رأيت فى صنيعكم حتى خشيت أن يكتب عليكم ، ولو كتب عليكم ما قلتم به ، فصلوها أيها الناس فى بيوتكم » .

فكبحهم النبى ﷺ ، عن جعلها شائعا ذائعا بينهم لئلا تصير من شعائر الدين ، فيعتقدوا تركها تفريطا فى جنب الله ، فتفرض عليهم .

وقوله ﷺ : إن أعظم المسلمين جرما من سأل عن شىء فحرم لأجل مسألته » .

---

(١) آل عمران : ٩٣

وقوله ﷺ : « إن ابراهيم حرم مكة ودعا لها ، وإنى حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة ، ودعوت لها فى مدها وصاعها ، مثل ما دعا إبراهيم لمكة » .

وقوله ﷺ لمن سأله عن الحج ، كما أخرج الإمام أحمد فى مسنده ، والإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

« خطبنا رسول الله ﷺ فقال :

أيها الناس إنه فرض الله عليكم الحج فحجوا ، فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثا ، فقال رسول الله ﷺ :

لو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت لما استطعتم ثم قال :

ذرونى ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه » .

وإنما اختلفت شرائع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأسباب وحكم ومصالح ، وذلك أن شعائر الله تعالى إنما كانت شعائر لمعدات وإن المقادير يلاحظ فى شرعها حال المكلفين وعاداتهم .

فلما كانت أمزجة قوم نوح عليه الصلاة والسلام فى غاية القوة والشدة ، كما نبه عليه الحق سبحانه وتعالى ، استوجبوا أن يؤمروا بدوام الصيام ، ليقاوم شهوة بهيميتهم ، ولما كانت أمزجة هذه الأمة ضعيفة نهوا عن ذلك ، وكذلك لم يجعل الله تعالى الغنائم حلالا للأولين ، وأحلها لنا لما رأى ضعفنا ، وأن مراد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إصلاح ما عندهم من الارتفاقات فلا يعدل عنها إلى ما يباين المألوف إلا ما شاء الله سبحانه ، وأن مظان المصالح تختلف باختلاف الأعصار والعادات ، ولذلك صح وقوع النسخ فى الشرائع .

وإنما مثله كمثل الطبيب الماهر الذى يعمد إلى حفظ المزاج المعتدل فى جميع الأحوال فتختلف أحكامه باختلاف الأشخاص والزمان ، فيأمر الشباب بما لا يأمر به الشيخ الشائب ويأمر فى الصيف بالنوم فى الجو ، لما يرى أن

الجو مظنة الاعتدال حينئذ ، ويأمر فى الشتاء بالنوم داخل البيت ، لما يرى أنه مظنة البرد حينئذ .

فمن عرف أصل الدين ، وأسباب اختلاف المناهج ، لم يكن عنده تغيير ولا تبديل ، ولذلك نسبت الشرائع إلى أقوامها ، ورجعت اللائمة إليهم حين استوجبوا بها بما عندهم من الاستعداد وسألوها جهد سؤالهم بلسان الحال ، وهو قوله تعالى :

(فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)(١) .

ولذلك ظهر فضل أمة نبينا محمد ﷺ ، حين استحقوا تعيين الجمعة ، لكونهم أميين برآء من العلوم المكتسبة ، واستحقت اليهود السبت لاعتقادهم أنه يوم فرغ الله فيه من الخلق ، وأنه أحسن شيء لأداء العبادة مع أن الكل بأمر الله ووحيه .

ومثل الشرائع فى ذلك كمثل العزيمة يؤمرون بها أولا ، ثم يكون هنالك أعذار وحرج ، فتشرع لهم الرخص لمعنى يرجع إليهم ، فربما توجه بذلك بعض اللائمة إليهم لكونهم استوجبوا ذلك بما عندهم ، قال الله تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)(٢) .

وقال النبى ﷺ : « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن »

وبين نقصان دينهن بقوله : « أرأيت إذا حاضت لم تصلّ ، ولم تصم »

ويقول الإمام على رضى الله عنه وكرم الله وجهه :

« معاشر الناس إن النساء نواقص الإيمان ، نواقص الحظوظ ، نواقص العقول .

فأما نقصان إيمانهن : فقعودهن عن الصلاة والصيام فى أيام حيضهن .

---

(١) المؤمنون : ٥٣ — (٢) (٢) الرعد : ١١

وأما نقصان عقولهن : فشهادة امرأتين كشهادة الرجل الواحد .

وأما نقصان حظوظهن ، فمواريثهن على الأنصاف من مواريث الرجال .

فاتقوا شرار النساء وكونوا من خيارهن على حذر ، ولا تطيعوهن فى المعروف حتى لا يطمعن فى المنكر » .

وأسباب نزول المناهج فى صورة خاصة كثيرة ، لكنها ترجع إلى :

الأمر الطبيعى الموجب لتكليفهم بتلك الأحكام ، فكما أن لأفراد الإنسان جميعها طبيعة وأحوالا ورثتها من النوع توجب تكليفهم بأحكام .

وكما أن الأكمه لا يكون فى خزانة خياله الألوان والصور ، وإنما هنالك الألفاظ والملموسات ونحو ذلك ، فإذا تلقى من الغيب علما فى رؤيا أو واقعة ، فإنما يتشبح علمه فى صورة ما اختزنه خياله دون غيره .

وكما أن العربى لا يعرف غير لغة العرب ، إذا تمثل له علم فى نشأة اللفظ ، فإنما يتمثل له فى لغة العرب دون غيرها .

وكما أن البلاد التى يوجد فيها الفيل وغيره ، من الحيوانات ، سيئة المنظر ، يتراءى لأهلها إلمام الجن ، وتخويف الشياطين فى صورة تلك الحيوانات دون غير تلك البلاد ، والتى يعظم فيها بعض الأشياء ، ويوجد فيها بعض الطيبات من الأطعمة والألبسة ، تتراءى لأهلها النعمة ، وانبساط الملائكة فى تلك الصور دون غير تلك البلاد .

وكما أن العربى المتوجه إلى شىء ليفعله ، أو طريق ليسلكه ، إذا سمع لفظة راشد أو نجيح كان دليلا على حسن ما يستقبله دون غير العربى ، وقد جاءت السنّة الشريفة ببعض هذا النوع فكذلك يعتبر فى الشرائع علوم مخزونة فى القوم واعتقادات كامنه فيهم وعادات تتجارى فيهم .

ولذلك نزل تحريم لحوم الإبل وألبانها على بنى إسرائيل دون بنى إسماعيل ، فكان الطيب والخبيث فى المطاعم مفوضا إلى عادات العرب ، ولذلك حرمت بنات الأخت علينا دون اليهود ، فإنهم كانوا يعدونها من قوم أبيها لا مخالطة بينهم وبينها ، ولا ارتباط ، ولا اصطحاب ، فهى كالأجنبية ، بخلاف العرب .

فإن علم كون ذلك تغييرا لخلق الله تعالى ، ومصادمة لتدبير الله سبحانه ، كان راسخا في اليهود متجاريا فيهم ، وكان العرب أبعد خلق الله عن هذا العلم ، حتى لو ألقى عليهم لما فهموه ، ولما أدركوا المناط المناسب للحكم .

والمعتبر في نزول الشرائع ليس العلوم والحالات والعقائد المتمثلة في صدورهم فقط ، بل أعظمها اعتبارا ، وأولاها اعتدادا ما نشأوا عليه ، واندفعت عقولهم إليه ، من حيث يعلمون ، ومن حيث لا يعلمون ، كما ترى ذلك في علاقات تمثل الشيء بصورة غيره ، كتمثل منع الناس عن السجود في صورة الختم على الأفواه ، فإن الختم شبح المنع عند القوم ، استحضروه أم لا .

وحق الله تعالى على عباده في الأصل ، أن يعظموه غاية التعظيم ، وينزهوه غاية التنزيه ، ولا يقدموا على مخالفة أمره بوجه من الوجوه ، والواجب فيما بين الناس أن يقيموا مصلحة التأليف والتعاون ، ولا يؤذى أحد أحدا إلا إذا أمر به الرأى الكلي ونحو ذلك ، ولذلك كان الذى وقع على امرأة يعلم أنها أجنبية — قد أرخى بينه وبين الله حجاب ، وكتب ذلك من اجترائه على الله تعالى ، وإن كانت امرأته في الحقيقة ، لأنه أقدم على مخالفة أمر الله وحكمه ، والذى وقع على أجنبية وهو يعلم أنها امرأته لا يألوا في ذلك معذورا فيما بينه وبين الله سبحانه .

وكان الذى نذر الصوم مأخوذا بنذره دون من لم ينذر ، وكان من تشدد في الدين شدد عليه ، وكانت لطمة اليتيم للتأديب حسنة ، وللتعذيب سيئة ، وكان المخطىء والناس معفوا عنهما في كثير من الأحكام ، فهذا الأصل يتلقاه علوم القوم وعاداتهم الكامنة منها والبارزة ، فيتشخص الشرائع في حقهم حسب ذلك .

والكثير من العادات والعلوم الكامنة يتفق فيها العرب والعجم ، وجميع سكان الأقاليم المعتدلة ، وأهل الأمزجة القابلة للأخلاق الفاضلة ، كالحزن ليتيمهم واستحباب الرفق به ، وكالفخر بالأحساب والأنساب ، وكالنوم إذا مضى ربع الليل أو ثلثه ، والاستيقاظ في تباشير الصبح إلى غير ذلك .

فتلك العادات والعلوم أحق الأشياء بالاعتبار ، ثم بعدها عادات وعقائد تختص بالمبعوث إليهم فتعتبر تلك أيضا ، وقد جعل الله لكل شيء قدرا .

والنبوة كثيرا ما تكون من تحت الملة كما قال الله تعالى :

(مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ)[1] .

وكما قال سبحانه : (وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ)[2] .

وسر ذلك أن تنشأ قرون كثيرة على التدين بدين ، وعلى تعظيم شعائره ، وتصير أحكامه من المشهورات الذائعة اللاحقة بالبديهيات الأولية ، التي لا تكاد تنكر ، فتجيء نبوة أخرى لإقامة ما اعوج منها ، وصلاح ما فسد منها ، بعد اختلاط رواية نبيها ، فتفتش عن الأحكام المشهورة عندهم ، فما كان صحيحا موافقا لقواعد السياسة الملية لا تغيره ، بل تدعو إليه ، وتحث عليه ، وما كان سقيما قد دخله التحريف ، فإنها تغيره بقدر الحاجة ، وما كان حريا أن يزداد فإنها تزيد على ما كان عندهم ، وكثيرا ما يستدل هذا النبي في مطالبه بما بقي عندهم ، فمن الشريعة الأولى ، فيقال عند ذلك : هذا النبي في ملة فلان النبي ، أو من شيعته ، وكثيرا ما تختلف النبوات لاختلاف الملل النازلة تلك النبوة فيها .

والنوع الثاني بمنزلة طارىء عارض ، وذلك أن الله تعالى ، وإن كان متعاليا عن الزمان ، فله ارتباط بوجه من الوجوه بالزمان والزمانيات ، وقد أخبر النبي ﷺ أن الله يقضي بعد كل مائة بحادثة عظيمة من الحوادث ، وأخبر آدم وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، في حديث الشفاعة بشيء من هذا الباب حيث قال كل واحد منهم :

« إن ربي تبارك وتعالى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله » .

---

(١) الحج : ٧٨ (٢) الصافات : ٨٣

فإذا تهيأ العالم لإفاضة الشرائع وتعيين الحدود ، وتجلي الحق منزلا عليهم الدين وامتلأ، الملأ الأعلى بهمة قوية ، حسب ذلك يكون حينئذ أدنى سبب من الأسباب الطارئة ، كافيا فى قرع باب الجود ، ومن دق باب الكريم انفتح .

ولك عبرة بفصل الربيع يؤثر فيه أدنى شيء من الغرس والبذر ، ما لا يؤثر في غيره أضعاف ذلك .

وهمة سيدنا رسول الله ﷺ ، واستشرافه للشيء ، ودعوته له ، واشتياقه إليه ، وطلبه إياه ، سبب قوى لنزول القضاء فى ذلك الباب ، وإذا كانت دعوته تحيى السنة الشهباء ، وتغلب فئة عظيمة من الناس ، وتزيد الطعام والشراب زيادة محسوسة ، فما ظنك فى نزول الحكم الذى هو روح لطيف إنما يتعين بوجود مثالى .

وعلى هذا الأصل ينبغي أن يخرج أن حدوث حادثة عظيمة فخيمة من ذلك الزمان يفزع لها النبى ﷺ ، كقصة الإفك ، وسؤال سائل يراجع النبى ﷺ ، ويحاوره فيهم له ﷺ ، كقصة الظهار يكون سببا لنزول الأحكام ، وأن يكشف عليه فيها جلية الحال ، وأن استبطاء القوم عن الطاعة وتبلدهم عن الانقياد وإخلادهم عن العصيان ، وكذا رغبتهم فى شيء ، وعضهم عليه بالنواجذ ، واعتقادهم التفريط فى جنب الله عند تركه ، يكون سببا لأن يشدد عليهم بالوجوب الأكيد ، والتحريم الشديد ، ومثل ذلك كله فى استمطار الجود ، كمثل الإنسان الصالح قوى الهمة بتواخى ساعة انتشار الروحانية وقوة السعادة ، فيسأل الله تعالى فيها بجهد همته ، فلا تتراخى إجابته ، وإلى هذه المعانى وقعت الإشارة فى قول الله تبارك وتعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ، وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ) .

---

(١) المائدة : ١٠١

وأصل المرضى أن يقل هذا النوع من أسباب نزول الشرائع ، لأنه يعد لنزول ما يغلب فيه حكم المصلحة الخاصة بذلك الوقت ، فكثيرا ما كان تضييقا على الذين يأتون من بعد ، ولذلك كان النبى ﷺ يكره المسائل ، وكان يقول :

« ذرونى ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم » .

وقال صلوات الله وسلامه عليه :

« إن أعظم المسلمين فى المسلمين جرما ، من سأل شيئا فحرم لأجل مسألته » .

وجاء فى الحديث الصحيح :

« إن بنى إسرائيل لو ذبحوا أى بقرة شاءوا كفت عنهم لكن شددوا فشدد الله عليهم » .

أما أسباب المؤاخذة على المناهج فإنها ترجع إلى :

أن المناهج والشرائع التى ضربها الله تعالى لعباده ، هل يترتب الثواب والعذاب عليها ، كما يترتب على أصول البر والإثم ، أو لا يترتب إلا على ما جعلت مظنات وأشباحا وقوالب به ؟

ومن ترك الصلاة وقت من الأوقات ، وقلبه مطمئن بالإخبات ، هل يعذب بتركها ؟

ومن صلى صلاة ، وأدى الأركان والشروط حسبما يخرج عن العهد ، ولم يرجع بشىء من الإخبات ، ولم يدخل ذلك فى صميم قلبه ، هل يثاب على فعلها أم لا ؟ »

وليس الكلام فى كون معصية المناهج مفسدة عظيمة من جهة كونها قدحا فى السنة الراشدة وفتحا لباب الإثم ، وغشا بالنسبة إلى جماعة المسلمين ، وضررا للحى ، والمدينة والإقليم بمنزلة سيل سد مجراه لمصلحة المدينة ، فجاء رجل ، ونقب السد ، ونجا بنفسه ، وأهلك أهل مدينته ، ولكن الكلام

فيما يرجع إلى نفسه من إحاطة السيئات بها أو إحاطة الحسنات .

فذهب أهل الملل قاطبة إلى أنها توجب الثواب والعذاب بنفسها .

والمحققون منهم والراسخون فى العلم والحواريون من أصحاب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، يدركون من ذلك وجه المناسبة والارتباط لتلك الأشباح والقوالب بأصولها وأرواحها ، وعامة حملة الدين ووعاة الشرائع يكتفون بالأول .

وذهب فلاسفة الإسلام إلى أن العذاب والثواب ، إنما يكونان على الصفات النفسانية ، والأخلاق المشتبهة بذيل الروح ، وإنما ذكر قوالبها وأشباحها فى الشرائع ، تفهيما وتقريبا للمعانى الدقيقة إلى أذهان الناس .

هذا تحرير المقام على مشرب القوم .

والحق ما ذهب إليه المحققون من أهل الملل ، لأن الشرائع لها معدات وأسباب تشخصها وترجح بعض محتملاتها على بعض ، والحق يعلم أن القوم لا يستطيعون العمل بالدين إلا بتلك الشرائع والمناهج ، ويعلم كذلك أن هذه الأوضاع هى التى يليق أن تكون عليهم فتندرج فى عناية الحق بالقوم أزلا .

ثم لما تهيأ العالم لفيضان صور الشرائع ، وإيجاد شخوصها المثالية ، فأوجدها وأفاضها وتقرر هنالك أمرها ، كانت أصلا من الأصول .

ثم لما فتح الله سبحانه على الملأ الأعلى هذا العلم ، وألهمهم أن المظنات قائمة مقام الأصول ، وأنها أشباحها وأشباهها ، وأنه لا يمكن تكليف القوم إلا بتلك ، حصل فى حظيرة القدس إجماع ما ، على أنها هى بمنزلة اللفظ بالنسبة إلى الحقيقة الموضوع لها ، والصور الذهنية بالنسبة إلى الحقيقة الخارجية المنتزعة منها ، والصور الخطية بالنسبة إلى الألفاظ الموضوعة وهى لها .

فإنه فى كل ذلك لما قويت العلاقة بين الدال والمدلول ، وحصل بينهما تلازم وتعانق أجمع فى حيز ما من الأحياز أنه هو ، ثم ترشيح شبح هذا العلم أو حقيقته فى مدركات بنى آدم عربهم وعجمهم ، فاتفقوا عليه ، فلن ترى أحدا إلا ويضمر فى نفسه شعبة من ذلك ، وربما سميناه وجودا شبيها للمدلول ،

وربما كان لهذا الوجود آثار عجيبة لا تخفى على المتتبع ، وقد روعى فى الشرائع بعض ذلك ، ولذلك جعلت الصدقة من أوساخ المتصدقين ، وسرت شناعة العمل فى الأجرة .

ثم لما بعث النبى ﷺ ، وأيد بروح القدس ، ونفث فى روعه إصلاح القوم وفتح لجوهر روحه فج واسع ، إلى الهمة القوية فى باب نزول الشرائع فعزم على ذلك أقصى عزيمته ، ودعا للموافقين ولعن على المخالفين بجهد همته وأن همتهم تخترق السبع الطباق وأنهم يستسقون ، وما هنالك قطعة من غيم أو سحاب ، فتنشأ أمثال الجبال فى الحال ، وأنهم يدعون ، فيحيى الموت بدعوتهم ، تأكد انعقاد الرضا والسخط فى حظيرة القدس ، وهو قوله ﷺ :

« إن إبراهيم نبيك وعبدك دعا لمكة وأنا أدعو للمدينة » الحديث .

ثم إن هذا العبد إذا علم أن الله تعالى أمره بكذا وكذا ، وأن الملأ الأعلى يؤيد النبى ﷺ فيما يأمر ، وينهى ، وعلم أن إهمال هذا والإقدام على ذلك اجتراء على الله تعالى ، وتفريط فى جنب الله سبحانه ، ثم أقدم على العمل عن قصد وعمد ، وهو يرى ويبصر ، فإن ذلك لا يكون إلا لغاشية عظيمة من الحجب وانكسار تام للملكية ، وذلك يوجب قيام خطيئة بالنفس .

وإذا أقدم على عمل شاق تنجم عنه طبيعته لمراآة الناس ، بل تقربا من الله تعالى ، وحفظا على مرضاته ، فإن ذلك لا يكون إلا لغاشية عظيمة من الإحسان ، وانكسار تام للنفس البشرية ، وذلك يوجب قيام حسنة بالنفس .

أما من ترك صلاة وقت من الأوقات ، فيجب أن يبحث عنه لم تركها ؟ وأى شىء حمله على ذلك ؟ فإن نسيها ، أو نام عنها ، أو جهل وجوبها ، أو شغل عنها بما لا يجد منه بدا ، فنص الملة السمحة أنه ليس بآثم ، وإن تركها وهو يعلم ، ويتذكر ، وأمره بيده ، فإن ذلك لا يكون لا محالة إلا من حزازة فى دينه ، وغاشية شيطانية أو نفسانية غشيت بصيرته ، وهو يرجع إلى نفسه .

أما من صلى صلاة ، وخرج عن عهدة ما وجب عليه ، فيجب أن يبحث عنه ، أيضا إن فعلها رياء وسمعة أو جريانا على عادة قومه أو عبثا ، فنص الملة

أنه ليس بمطيع ، وتصديقا بالموعود .

أما إذا استحضر النية وأخلص دينه لله تعالى ، فلا جرم أنه فتح بينه وبين الله بابا ولو كرأس إبرة .

وأما من أهلك المدينة ، ونجا بنفسه فلا نسلم أنه نجا بنفسه ، كيف وهنالك لله ملائكة ، أقضى همتهم الدعاء لمن يسعى فى إصلاح العالم ، وعلى من سعى في إفساده ، وأن دعوتهم تقرع باب الجود ، ويكون سببا لنزول الجزاء بوجه من الوجوه ، بل هنالك لله تعالى عناية بالناس توجب ذلك .

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَومِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)[1] .

---

(١) الأنبياء : ٤٧.

الفصل الثانى

وجه الحاجة إلى الدين الخاتم


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« وجه الحاجة إلى الدين الخاتم »

يقول الله تعالى :

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا)[١] .

إخبار إلـٰهى صادق ، وتنزيل ربانى محكم ، وآية كريمة جليلة ، من قرآن كريم معصوم ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، بين الحق سبحانه وتعالى فيها أكبر نعمه على عباده ، وأوضح أعظم منّة على هذه الأمة ، وهو إكماله لهم دينهم ، فلا يحتاجون إلى دين غيره ، وإتمامه نعمته عليهم فلا يحتاجون إلى نبى غير نبيهم ورسولهم محمد ﷺ ، الذى اختاره الله تعالى واصطفاه ، وجعله سبحانه خاتم الأنبياء والمرسلين ، وبعثه إلى الإنس والجن ، وأرسله رحمة للعالمين .

فلا حلال إلا ما أحله ﷺ ، ولا حرام إلا ما حرمه ، ولا دين إلا ما شرعه :

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)[٢] .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه :

« دعونى ما تركتكم إنما هلك من كان قبلكم : كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم »[٣] .

والله سبحانه أكمل أحكام دينه وفرائضه ، فلا زيادة بعده ، ولم ينزل بعد هذه الآية حلال ولا حرام ، يقول ابن الأنبارى فى الآية :

« اليوم أكملت لكم شرائع الإسلام على غير نقصان كان قبل هذا الوقت ،

---

(١) المائدة : ٣ (٢) الحشر : ٧

(٣) أخرجه البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه .

وذلك أن الله تعالى كان يتعبد خلقه بالشيء فى وقت ، ثم يزيد عليه فى وقت آخر ، فيكون الوقت الأول تاما فى وقته ، وكذلك الوقت الثانى تاما فى وقته .

والشرائع التى تعبَّد الله عز وجل بها عباده فى الأوقات المختلفة مختلفة ، وكل شريعة منها كاملة فى وقت التعبد بها ، فكمل الله عز وجل الشرائع فى اليوم الذى ذكره ، وهو يوم عرفة ، ولم يوجب ذلك : أن الدين كان ناقصا فى وقت من الأوقات .

يقول الإمام الرازى رحمه الله تعالى :

« إن الدين ما كان ناقصا أبدا بل كان أبدا كاملا ، كانت الشرائع النازلة من عند الله فى كل وقت كافية فى ذلك الوقت ، إلا أنه تعالى كان عالما فى أول وقت المبعث بأن ما هو كامل فى هذا اليوم ليس بكامل فى الغد ولا صلاح فيه ، فلا جرم كان ينسخ بعد الثبوت ، وكان يزيد بعد العدم .

وأما فى آخر زمان المبعث فقد أنزل الله شريعة كاملة ، وحكم ببقائها إلى يوم القيامة ، فالشرع أبدا كان كاملا ، إلا أن الأول كمال إلى زمان مخصوص ، والثانى كمال إلى يوم القيامة ، فلأجل هذا قال :

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتْمَمْتُ عَلَيكُمْ نِعْمَتِى)[1] .

وعليه : فإكمال الدين والشريعة حق لأنه لا نعمة أتم من نعمة الإسلام ، وكان من تمام النعمة : (وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا) .

ومعناه : أن الإسلام الذى اخترته لكم من بين الأديان ، وآذنتكم بأنه ، هو الدين المرضى وحده :

(وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)[2] .

فلا بد من الانقياد لأمرى فيما شرعت لكم من الفرائض والأحكام والحدود

---

(١) المائدة : ٣ (٢) آل عمران : ٨٥

ومعالم الدين الذى أكملته لكم .

ومعلوم أن الإسلام لم يزل مرضيا للحق تعالى منذ القدم ، إلا أن المعنى به فى الآية : الصفة التى هو اليوم بها ، وهى نهاية الكمال والبلوغ به أقصى درجاته ، فالزموه ولا تفارقوه : (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَام)[1] .

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال جبريل : قال الله عز وجل :

« هذا دين ارتضيته لنفسى ، ولن يصلحه إلا السخاء ، وحسن الخلق ، فأكرموه بهما ما صحبتموه » .

والملل كلها لا تخلو من اعتقاد صدق صاحب الملة وتعظيمه ، وأنه كامل منقطع النظير ، وذلك لما رأوا منه وشاهدوه من الاستقامة فى الطاعات ، أو ظهور المعجزات ، وخوارق العادات ، واستجابة الدعوات .

وما رأوا كذلك من الحدود والشرائع والمزاجر ، مما لا تنتظم الملة بغيرها ، ثم بعد ذلك أمور تفيد الاستطاعة الميسرة مما يضاهيه ، ولكل قوم سنَّة وشريعة ، يتبع فيها عادة أوائلهم ، ويختار فيها سيرة حملة الملةوأئمتها ، ثم أحكم بنيانها ، وشدد أركانها حتى صار أهلها ينصرونها ويتناضلون دونها ، ويبذلون الأموال والمهج لأجلها ، وما ذلك إلا لتدبيرات محكمة ، ومصالح متقنة ، لا تبلغها نفوس العامة ، اللهم إلا صاحب الملة الذى اختاره اللهلها ، وأيَّده فيما اختاره لها .

ولما انفرد كل قوم بملة ، وانتحلوا سننها وطرائقها ، ونافحوا دونها بألسنتهم ، وقاتلوا عليها بأسنَّتهم ورماحهم ، ووقع فيهم الجور ، إما لقيام من لا يستحق إقامة الملة بها ، أو لاختلاط الشرائع الابتداعية ، ودسِّها فيها ، أو لتهاون حملة الملة ، حتى أهملوا كثيرا ما ينبغى ألا يهمل ، ولامت كل ملَّة أختها ، وأنكرت عليها ، وقاتلتها ، واختفى الحق ، دعت الضرورة ، ومسَّت

---

(١) آل عمران : ١٩

الحاجة إلى إمام راشد ، يعامل مع الملل معاملة الخليفة الراشد مع الملوك الجائرة .

هذا الإمام الراشد الذى يجمع الأمم على ملة واحدة ، يحتاج إلى أصول : منها : أن يدعو قوما إلى السنَّة الراشدة ، ويصلح شأنهم ، ثم يتخذهم بمنزلة جوارحه ، فيجاهد أهل الأرض ، ويفرقهم فى الآفاق ، وهو قوله تعالى : (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ)[1] .

لأن هذا الإمام نفسه لا يتأتى منه مجاهدة أمم غير محصورة ، وإذا كان ذلك كذلك ، وجب أن تكون مادة شريعته ، ما هو بمنزلة المذهب الطبيعى لأهل الأقاليم الصالحة ، عربهم وعجمهم ثم ما عند قومه من العلم والارتفاقات ، ويراعى فيه حالهم أكثر من غيرهم ، ثم يحمل الناس جميعا على اتباع تلك الشريعة ، لأنه لا سبيل إلى أن يفوض الأمر إلى كل قوم أو إلى أئمة كل عصر ،إذ لا يحصل منه فائدة التشريع أصلا ، ولا إلى أن ينظر ما عند كل قوم ، ويمارس كلا منهم ، فيجعل لكل شريعة ، إذ الإحاطة بعاداتهم وما عندهم ، على اختلاف بلدانهم وتباين أديانهم كالممتنع .

وقد عجز جمهور الرواة عن رواية شريعة واحدة ، فما ظنك بشرائع مختلفة ، والأكثر أنه لا يكون انقياد الآخرين إلا بعد عدد ومدد لا يطول عمر النبى إليها ، كما وقع فى الشرائع الموجودة الآن ، فإن اليهود ، والنصارى ، والمسلمين ، ما آمن من أوائلهم إلا جمع ، ثم أصبحوا ظاهرين بعد ذلك ، فلا أحسن ولا أيسر من أن يعتبر فى الشعائر والحدود والارتفاقات عادة قومه المبعوث فيهم ، ولا يضيق كل التضييق على الآخرين ، الذين يأتون بعد ، ويبقى عليهم فى الجملة ، والأولون يتيسر لهم الأخذ بتلك الشريعة بشهادة قلوبهم وعاداتهم ، والآخرين يتيسر لهم ذلك بالرغبة فى سير أئمة الملة

---

(١) آل عمران : ١١٠

والخلفاء ، فإنها كالأمر الطبيعى لكل قوم فى كل عصر قديما أو حديثا .

والأقاليم الصالحة لتولد الأمزجة المعتدلة كانت مجموعة تحت ملكين كبيرين يومئذ :

أحدهما : كسرى ، وكان متسلطا على العراق ، واليمن ، وخراسان ، وما وليهم ، وكانت ملوك ما وراء النهر والهند تحت حكمه يُجبى إليه منهم الخراج كل سنة .

والثانى : قيصر ، وكان متسلطا على الشام والروم ، وما وليهما ، وكان ملوك مصر والمغرب والإفريقية تحت حكمه يجبى إليه منهم الخراج كذلك .

وكان كسر شوكة هذين الملكين والتسلط على ملكهما بمنزلة الغلبة على جميع أهل الأرض ، وكانت عاداتهم فى الترفه سارية فى جميع البلاد التى هى تحت حكمهما ، وتغير تلك العادات ، وصدهم عنها ، مفضيا فى الجملة إلى تنبيه جميع البلاد على ذلك ، وإن اختلفت أمورهم بعده ، وقد ذكر الهرمزان شيئا من ذلك حين استشاره عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى غزاة العجم .

أما سائر النواحى البعيدة عن اعتدال المزاج ، فليس بها كثير اعتداد فى المصلحة الكلية ، ولذلك قال النبى ﷺ : « اتركوا الترك ما تركوكم ، ودعوا الحبشة ما ودعوكم » .

وبالجملة : فلما أراد الله تعالى إقامة الملة السَّمحة ، وأراد أن يخرج للناس خير أمة تأمرهم بالمعروف ، وتنهاهم عن المنكر ، وتغير رسومهم الفاسدة ، كان ذلك موقوفا على زوال دولة هذين متيسرا بالتعرض لحالهما ، فإن حالهما يسرى فى جميع الأقاليم الصالحة أو يكاد يسرى ، فقضى الله تعالى بزوال دولتيهما ، وأخبر النبى ﷺ ، بأن هلك كسرى ، فلا كسرى بعده ، وهلك قيصر ، فلا قيصر بعده ، ونزل الحق الدامغ لباطل جميع الأرض فى دمغ باطل العرب بالنبى ﷺ وأصحابه ، ودمغ باطل هذين الملكين بالعرب ، ودمغ سائر البلاد بملتيهما ، ولله الحجة البالغة ولو شاء لهداكم أجمعين .

ومنها : أن يكون تعليمه الدين إياهم مضموما إلى القيام بالخلافة العامة ، وأن يجعل الخلفاء من بعده أهل بلده وعشيرته ، الذين نشئوا على تلك العادات والسنن ، وليس التكحل فى العينين كالكحل ، ويكون الحمية الدينية فيهم مقرونة بالحسية النسبية ، ويكون على أمرهم ونباهة شأنهم ، علوًّا لأمر صاحب الملة ونباهة لشأنه ، وهو قوله ﷺ :

« الأئمة من قريش » ، ويوصى الخلفاء بإقامة الدين وإشاعته ، وهو قول أبى بكر الصديق رضى الله عنه : بقاؤكم عليه ما استقامت بكم أئمتكم .

ومنها : أن يجعل هذا الدين غالبا من الأديان كلها ، ولا يترك أحدا إلا وقد غلبه الدين بعز عزيز أو ذل ذليل فينقلب الناس ثلاث فرق :

منقاد للدين ظاهرا وباطنا .

ومنقاد بظاهره على رغم أنفه لا يستطيع التحول عنه .

وكافر مهان يسخره فى الحصاد والدياس وسائر الصناعات ، كما تسخر البهائم فى الحرث وحمل الأثقال ، ويلزم عليه سنة زاجرة ، ويؤتى الجزية عن يد وهو صاغر .

وغلبة الدين الخاتم على الأديان لها أسباب :

منها : إعلان شعائره على شعائر سائر الأديان ، وشعائر الدين أمر ظاهر يختص به ، ويمتاز صاحبه به من بين سائر الأديان ، كالختان وتعظيم المساجد ، والأذان ، والجمعة والجماعات .

ومنها : أن يقبض على أيدى الناس ألا يظهروا شعائر سائر الأديان .

ومنها : ألا يجعل المسلمين أكفاء للكافرين فى القصاص والديات ولا فى المناكحات ولا فى القيام بالرياسات ليلجئهم ذلك إلى الإيمان الجاد .

ومنها : أن يكلف الناس بأشباح البر والإثم ، ويلزمهم ذلك إلزاما عظيما ، ولا يلوح لهم بأرواحها كثير تلويح ، ولا يخيرهم فى شىء من الشرائع ، ويجعل علم أسرار الشرائع ، الذى هو مأخذ الأحكام التفصيلية علما مكنونا لا يناله إلا من ارتسخت قدمه فى العلم ، لأن أكثر المكلفين لا يعرفون المصالح كل

متعاط ، فلو رخص لهم فى ترك شيء منها ، وبين أن المقصود الأصلى غير تلك الأشباح لتوسعت لهم مذاهب الخوض ، ولاختلفوا اختلافا فاحشا ، ولم يحصل ما أراد الله سبحانه وتعالى فيهم .

ومنها أنه لما كانت الغلبة بالسيف فقط لا تدفع رين قلوبهم ، فعسى أن يرجعوا إلى الكفر عن قليل ، وجب أن يثبت بأمور برهانية أو خطابية نافعة فى أذهان الجمهور ، أن تلك الأديان لا ينبغى أن تتبع ، لأنها غير مأثورة عن المعصوم ، أو أنها غير منطبقة على قوانين الملة ، أو أن فيها تحريفا ووضعا للشيء فى غير موضعه ، ويصحح ذلك على رءوس الأشهاد ، وبين مرجحات الدين القويم من أنه سهل سمح ، وأن حدوده واضحة يعرف العقل حسنها ، وأن ليلها نهارها ، وأن سننها أنفع للجمهور ، وأشبه بما بقى عندهم من سيرة الأنبياء السابقين عليهم الصلاة والسلام وأمثال ذلك .

وإذ تقرر هذا وقد تبين أن اعتقادات المتدينين راجعة كلها إلى الأركان التى هى : الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، وأن الواجب علينا أن نقابل كل واحد مما أسسته الملة الحنيفية منها بنظيره من الأديان الأخرى ، ليتضح به شرف الإسلام عليها ، فمن الواجب أن نصرف السعى إليه .

بيد أن دين الإسلام هو دين كريم الصحبة ، يعز من لجأ إليه ، ويستر عيوب من اتصل به ، مع ما يدخر له فى عاقبته من الغبطة الأبدية ، والسعادة الأخروية .

وأحق الأديان بطول البقاء ما وجدت أحواله متوسطة بين الشدة واللين ، ليجد كل من ذوى الطبائع المختلفة ما يصلح به حاله فى معاده ومعاشه ، ويستجمع له منه خير دنياه وآخرته .

وكل دين لم يوجد على هذه الصفة . بل أسس على مثال يعود بهلاك الحرث والنسل فمن المحال أن يسنمى هينا لينا فاضلا .

وفضائل الناس لن تتم إلا بامتزاج أحوال الدين والدنيا ، واشتباك أسباب

الآخرة بالأولى ، ودين الإسلام هو المنتظم لها كلها ، والوافى بعامة أبوابها ، وذلك ظاهر لمن تأمل مواقعها من كتاب الله تعالى ، فإنه ما من مكرمة إلا وقد جرد ذكرها ، وتحرز فى غير موضع من الآيات موضعها .

ولمقابلة هذا الدين الحنيف بغيره من الأديان الأخرى ، وحتى تكون المقابلة هادفة وذات أثر عميق اخترنا أن تكون المقابلة فيما يلى :

* إثبات الصانع سبحانه وتعالى : فإننا لن نجد أهل دين من الأديان عنوا بتقديم المقدمات العقلية ، لاستخراج النتائج النظرية ، فى استخلاص توحيد الله تعالى من شبهات المعاندين ، ومغالطات المغالطين ، ما عنى به متكلمو دين الإسلام ، فإنهم بلغوا فيه مبلغا شهد المعنيون بالفلسفة ، والمحققون من ذوى الحكمة على تقدم شأوهم فى تحصيل الحق منه وسلامتهم عن :

التشبيه الذى اعتقده اليهود ، والتثليث الذى اعتقده النصارى ، والضد الذى اعتقده المجوس ، والشرك الذى اعتقده عبدة الأوثان ، حتى جردوا القول بالتصريح فقالوا :

(تَعَالَوا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ : أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ)[1] .

ثم أجروا كلمة الإخلاص فى دعائهم ، حتى إنك تجد العَمَلة ، والصنَّاع ، والمحاربة والحراثين يتنادون بها فى البر والبحر ، والسهل والجبل ، ليلاً ونهارا ، مساء وصباحا ، مصدقين به لما وصفوا فى الكتب المنزلة بأنهم يملأون الأرض تهليلا وتسبيحا ، وتكبيرا وتحميدا .

وأهل سائر الأديان لا يذكرونها إلا النادر ، وذلك قوله تعالى :
(وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ، وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا)[2] .

---

(١) آل عمران : ٦٤ (٢) الفتح : ٢٦

* وأما إثبات الرسل : فإن أحدا من أهل الأديان ، لم يسلم في طرفي الغلو والتقصير في شأنهم إلا الإسلاميون ، أما الغلو مما ادعته النصارى في عيسى ، والتقصير الذى جحد به اليهود نبوة إبراهيم ، والاقتصار في وصفه ، على أنه كان رجلا صالحا ، ونسبهم لوطا إلى الفجور بينتيه فى حال السكر .

وأهل الإسلام سلموا من ذلك ، وقالوا فى الأنبياء كلهم :

إنهم عباد الله مصطفون ، وخيار معصومون ، ثم رأوا تجمع كلمة الشهادة وصف نبيهم بالعبودية والرسالة ، حرزا عن أبواب الزلل ، حتى إن الخلفاء الذين هم أئمة الدين لم يفتتحوا كتبهم إلا بقولهم :

« من عبدُ الله فلان أمير المؤمنين .. إلى فلان .. »

بل جردوا القول فيهم بأن قالوا :

(آمَنَّا بِاللهِ ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى ، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)(١)

* وأما إثبات الملائكة : فإن أحدا من أهل الأديان لم يسلم من العقائد السقيمة فيهم ، ما خلا الإسلاميين ، وذلك كان دعاء عبدة الأوثان بأنهم بنات الله ، وادعاء الثنوية والمجوس وما يذكرونه لمللهم من الرفعة الإلهية ، وادعاء اليهود أن الواحد منهم قد يجوز أن يرتكب الكفر ، وأن يعاقبه الله تعالى بالمسخ .

* فأما أهل الإسلام : فقد جردوا القول فيهم ، بأنهم عباد الله المكرمون : « لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون » (٢) .

* وأما إثبات الكتب : فإن دينا من الأديان لن يخلو عنه ، فإن الرسالة والرسول من المضاف ، ومن شأن كل نبى أن يعرف عن الله ، ويعبر عنه بما

---

(١) البقرة : ١٣٦ (٢) اقتباس من الآيات : ٢٦ ــ ٢٨ من سورة الأنبياء .

يوحيه إليه بحكم الرسالة .

فالكتب السماوية ، وإن كانت كلها جليلة القدر ، كما قال تعالى : (فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ، فِى صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ، مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ)[1] فالذى استجمعه القرآن الكريم من الفضيلة فى صور الخطاب ، ومن الفضيلة فى نظم الألفاظ ، ومن الفضيلة فى تأليف المعانى ، هو شيء باين به الكتب السماوية أجمع .

فأما صورة الخطاب ، فلأنه على هيئة تدل على أنه خطاب خارج عن ملك مقتدر لعبيده ، فيما يجب أن يلقيه إليهم ، من عزائم أمره ونهيه ، ووعظه وزجره ، ووعده ووعيده .

وليست الحال فى سائر الكتب الأخرى كذلك ، بل الخطاب منه خارج على هيئة مضاهية لكلام رجل حكيم ، أنبأ عن حكمته بألفاظه وعبارته ، ونسب بعض تلك المخاطبات إلى ربه سبحانه وتعالى .

وأما نظم الألفاظ : فلأنه خرج على مثال أظهره لأهل المعرفة بوجوه التأليف ، أنه غير مشابه لما ابتذله البشر فيما بينهم ، وأن من رام أن يزيد فيه عدة آيات عجيب وصفه ، وافتضح عند أهل البصيرة ، وليس كذلك حال الكتب الأخرى .

وخليق أن يرجع إليه قول الله تعالى :

(وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ، لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)[2] .

أما تأليف المعانى فإنه خرج مخرجا عجيبا ، يجتمع فى الجزء منه الشبيه بما هو موجود فى الكل .

أعنى أنه لا يقرأ الإنسان منه عدة آيات إلا وقد ورد منه على الأبواب الاعتقادية والعبادية ، والمعاملية ، بل على الأبواب الأدبية العقلية ، وأخبار الأمم

---

(١) عبس : ١٢ — ١٤ (٢) (٢) فصلت : ٤١ — ٤٢

الماضية ، على بلاغة ميسرة للذكر ، ووجازة مسهلة للحفظ ، ومعان لو بسطت لا ستغرقت الأخلاد والسجلات ، وليس هكذا حال سائر الكتب الأخرى .

وأما إثبات المعاد : فالذى يعتقده الإسلاميون متى أضيف إلى سائر ما يعتقده أهل الأديان ، وحكم العقل فيه ، فقد ظهر فضله .

فإن بعضا منهم يعتقدون القول بالتناسخ ، وبعضهم يعتقد أن انقلاب النفس إلى حالة الضياء والنور هو الثواب ، وضده هو العقاب .

وبعضهم يعتقد أن تخلص الأرواح من الأجساد هو الثواب ، وضده هو العقاب .

ثم الذى بنى عليه الإيمان هو :

أن العالم منقض بالساعة التى هى (آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا) وأن الله تعالى يعيد الأرواح إلى أجساد الموتى ، على تركيب تتحدد به قوتا الحس والعقل ، فتعرف الأنفس بقوة العقل أحوالها التى مضت عليها فى حال الدنيا ، وما اكتسبت منه حسنة وسيئة ، وتدرك بقوة الحس اللذات التى تتمتع بها ، والآلام التى تتعذب بها .

وأن الثواب لا محالة يقع فى جنس الملذ ، والعقاب فى جنس المؤلم ، وأن كيفيتها لن تدرك إلا بأن يجعل لها عيارا مما شهدته الحواس من أجناس الملذات والمؤلمات ، وأنه لن يجوز أن تكون الأجسام هناك متركبة من الأخلاط الفاسدة ، والأمشاج المتضادة ، فإنها لو كانت كذلك لتسلط عليها البلى والانفكاك .

ثم تكون الحواس المضافة إليها مشاكلة لها فى الخلوص والبقاء ، فتنال لذاتها نيلا روحانيا مهذبا عن الثقل والدنس .

وذلك قوله تعالى : (وَنُنْشِئَكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ)[١]

---

(١) الواقعة : ٦١

وقوله :

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(١)

أما إحكام الدين من التحريف ، فإنه لا بد لصاحب السياسة الكبرى الذى يأتى من الله تعالى بدين ينسخ الأديان من أن يحكم دينه ، حتى لا يتطرق إليه تحريف ، لأنه يجمع أمما كثيرة ، ذوى استعدادات شتى ، وأغراض متفاوتة ، فكثيرا ما يحملهم الهوى ، أو حب الدنيا الذى كانوا عليه سابقا ، أو الفهم الناقص ، حيث عقلوا شيئا ، وغابت عنهم مصالح كثيرة ، أن يهملوا ما نصت الملة عليه ، أو يدسوا فيها ما ليس منها ، فيختل الدين ، كما وقع فى كثير من الأديان قبلنا ، ولما لم يمكن الاستقصاء فى معرفة مداخل الخلل ، فإنها غير محصورة ولا متعينة ، وما لا يدرك كله لا يترك كله .

لذا وجب أن ينذرهم من أسباب التحريف إجمالا أشد الإنذار ، ويخص مسائل قد علم بالحدس أن التهاون والتحريف فى مثلها أو بسببها داء مستمر فى بنى الإنسان ، فيسد مدخل الفساد منها بأتم وجه ، وأن يشرع شيئا يخالف مألوف الملل الفاسدة ، فيما هو أشهر الأشياء عندهم كالصلوات الخمس .

ومن أسباب التحريف : التهاون وحقيقته أن يخلف بعد الحواريين خلف أضاعوا الصلاة ، واتبعوا الشهوات ، لا يهتمون بإشاعة الدين تعلما وتعليما وعملا ، ولا يأتمرون بالمعروف ، ولا ينتهون عن المنكر ، فيتعقد عما قريب رسوم خلاف الدين ، وتكون رغبة الطبائع خلاف رغبة الشرائع ، فيجىء خلف آخرون يزيدون فى التهاون حتى ينسى معظم العلم ... والتهاون من سادة القوم وكبرائهم ، أضرّ بهم وأكثر إفسادا ، وبهذا السبب ضاعت ملة سيدنا نوح ، وسيدنا إبراهيم عليهما السلام ، فلم يكد يوجد منهم من يعرفها على وجهها .

---

(١) السجدة : ١٧

ومبدأ التهاون أمور :

منها : عدم تحمل الرواية عن صاحب الملة والعمل به ، وهو قوله ﷺ في الحديث الصحيح :

« ألا يوشك رجل شبعان متكىء على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام ، فحرموه ، وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله » .

وقوله ﷺ :

« إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤساء جهالا ، فسئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا ، وأضلوا »[١] . .

ومنها : الأغراض الفاسدة ، الحاملة على التأويل الباطل ، كطلب مرضاة الملوك في اتباعهم الهوى لقوله تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ)[٢] .

ومنها : شيوع المنكرات وترك علمائهم النهي عنها ، وهو قوله تعالى :

(فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ، وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ)[٣] .

وقوله ﷺ في الحديث الصحيح :

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ، والإمام مسلم ، وأصحالب السنن ، عن هشام بن عمرو ، عن أبيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه .

(٢) البقرة : ١٧٤ (٣) هود : ١١٦

« لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي : « نهتهم علماؤهم ، فلم ينتهوا ، فجالسوهم في مجالسهم ، وآكلوهم ، وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعض ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا ، وكانوا يعتدون » .

ومن أسباب التحريف التعمق في الخطأ ، وحقيقته أن يأمر الشارع بأمر ، وينهى عن شيء ، فيسمعه رجل من أمته ، ويفهمه حسبما يليق بذهنه ، فيتعدى الحكم إلى ما يشاكل الشيء بحسب بعض الوجوه ، أو بعض أجزاء العلة ، أو إلى أجزاء الشيء ومظانه ودواعيه ، وكلما اشتبه عليه الأمر لتعارض الروايات التزم الأشد ، حتى يجعله واجبا ، ويجعل كل ما فعله النبي ﷺ على العبادة ، والحق أنه فعل أشياء على العادة ، فيظن أن الأمر والنهي شملا هذه الأمور ، فيجهر بأن الله تعالى أمر بكذا ، ونهى عن كذا ، كما أن الشارع لما شرع الصوم لقهر النفس ، ومنع عن الجماع فيه ، ظن قوم أن السحور خلاف المشروع ، لأنه يناقض قهر النفس ، وأنه يحرم على الصائم قبلة امرأته ، لأنها من دواعي الجماع ، ولأنها تشاكل الجماع في قضاء الشهوة ، فكشف رسول الله ﷺ ، عن فساد هذه المقالة وبين أنه تحريف .

ومنها : التشدد في العبادة : وحقيقته اختيار عبادات شاقة لم يأمر بها الشارع ، كدوام الصيام والقيام والتبتل وترك التزوج ، وأن يلتزم السنن والآداب كالتزام الواجبات ، وهو حديث نهى النبي ﷺ ، عبد الله بن عمرو ، وعثمان بن مظعون ، عما قصدا من العبادات الشاقة ، وهو قوله ﷺ ، فيما أخرجه الإمام البخاري وغيره ، عن أبي هريرة رضي الله عنه :

« إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة » .

فإذا صار هذا المتعمق أو المتشدد ، معلم قوم ورئيسهم ، ظنوا أن هذا أمر الشرع ورضاه ، وهذا داء رهبان اليهود والنصارى .

ومنها : الاستحسان ، وحقيقته أنه يرى رجل الشارع يضرب لكل حكمة

مظنة مناسبة ويراه يعقد التشريع ، فيختلس بعض ما ذكره من أسرار التشريع ، فيشرع للناس حسبما عقل من المصلحة .

كما أن اليهود رأوا أن الشارع إنما أمر بالحدود زجرا عن المعاصى للإصلاح ، ورأوا أن الرجم يورث اختلافا وتقاتلا ، بحيث يكون فى ذلك أشد الفساد ، واستحسنوا تحميم الوجه والجلد ، فبين النبى ﷺ أنه تحريف ونبذ لحكم الله المنصوص فى التوراة بآرائهم .

عن ابن سيرين رضى الله عنه قال :

« أول من قاس إبليس ، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس » .

وعن الحسن أنه تلا هذه الآية : (خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)[١] قال : « قاس إبليس وهو أول من قاس » .

وعن الشعبى رضى الله عنه قال : « والله لئن أخذتم بالمقاييس لتحرمنَّ الحلال ، ولتحلنَّ الحرام » .

وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال :

« يقتح القرآن على الناس حتى يقرأه المرأة ، والصبى ، والرجل ، فيقول الرجل قد قرأت القرآن ، فلم أتبع ، والله لأقومن به فيهم لعلى أتبع ، فيقوم به فيهم ، فلا يتبع ، فيقول : قد قرأت القرآن فلم أتبع ، وقد قمت به فيهم ، فلم أتبع ، لأحتضرن فى بيتى مسجدا لعلى أتبع ، فيحتضر فى بيته مسجدا ، فلا يتبع ، فيقول : قد قرأت القرآن ، فلم أتبع ، وقمت به فيهم ، فلم أتبع ، وقد احتضرت فى بيتى مسجدا ، فلم أتبع ، والله لآتينهم بحديث لا يجدونه فى كتاب ولم يسمعوه عن رسول الله ﷺ لعلى أتبع .

قال معاذ : فإياكم وما جاء به فإن ما جاء به ضلالة .

وعن عمر رضى الله عنه قال : يهدم الإسلام زلة العالم ، وجدال المنافق بالكتاب ، وحكم الأئمة المضلين .

---

(١) الأعراف : ١٢

والمراد بهذا كله ما ليس استنباطا من كتاب الله تعالى ، ولا من سنة رسوله ﷺ .

ومنها : اتباع الإجماع ، وحقيقته أن يتفق قوم من حملة المرة الذين اعتقد العامة فيهم الإصابة غالبا أو دائما على شيء ، فيظن أن ذلك دليل قاطع عن ثبوت الحكم ، وذلك فيما ليس له أصل من الكتاب والسنة ، وهذا غير الإجماع الذى أجمعت الأمة عليه ، فإنهم اتفقوا على القول بالإجماع الذى مستنده الكتاب ، والسنة ، أو الاستنباط من أحدهما ولم يجوزوا القول بالإجماع الذى ليس مستندا إلى أحدهما ، وهو قوله تعالى :

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيهِ آبَاءَنَا)(١) .

وما تمسكت اليهود فى نفى نبوة سيدنا عيسى ، وسيدنا محمد عليهما الصلاة والسلام ، إلا بأن أسلافهم فحصوا عن حالهما ، فلم يجدوهما على شرائط الأنبياء ، والنصارى ، لهم شرائع كثيرة مخالفة للتوراة والإنجيل ، ليس لهم فيها متمسك إلا إجماع سلفهم .

ومنها : تقليد غير المعصوم ، أعني غير النبي الذى ثبتت عصمته ، وحقيقته ، أن يجتهد واحد من علماء الأمة فى مسألة ، فيظن متبعوه أنه على الإصابة قطعا أو غالبا ، فيردوا به حديثا صحيحا ، وهذا التقليد غير ما اتفقت عليه الأمة المرحومة ، فإنهم اتفقوا على جواز التقليد للمجتهدين ، مع العلم بأن المجتهد يخطىء ، ويصيب ، ومع الاستشراف لنص النبى ﷺ ، فى المسألة ، والعزم على أنه إذا ظهر حديث صحيح خلاف ما قلد فيه ترك التقليد واتبع الحديث :

قال رسول الله ﷺ فى قوله تعالى :

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ)(٢) .

إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه » .

---

(١) البقرة : ١٧٠ (٢) الوبة : ٣١

ومنها : خلط ملة بملة حتى لا تتميز واحدة من الأخرى ، وذلك أن يكون إنسان فى دين من الأديان تعلق بقلبه علوم تلك الطبقة ، ثم يدخل فى الملة الإسلامية ، فيبقى ميل قلبه إلى ما تعلق به من قبل ، فيطلب لأجله وجها فى هذه الملة ولو ضعيفا أو موضوعا ، وربما جوز الوضع رواية الموضوع لذلك ، وهو قوله ﷺ :

« لم يزل أمر بنى إسرائيل معتدلا حتى نشأ فيهم المولدون وأبناء سبايا الأمم ، فقالوا بالرأى فضلوا وأضلوا »

ومما دخل فى ديننا علوم بنى إسرائيل ، وتذكير خطباء الجاهلية ، وحكمة اليونانيين ، ودعوة البابليين ، وتاريخ الفارسيين والنجوم ، والرمل ، والكلام ، وهو سر غضب رسول الله ﷺ ، حين قرىء بين يديه نسخة من التوراة ، وضرب عمر رضى الله عنه من كان يطلب كتب دانيال .

أما أسباب اختلاف دين نبينا ﷺ ، ودين اليهود ، والنصرانية ، فإن الحق تعالى إذا بعث رسولا فى قوم ، فأقام الملة لهم على لسانه ، فإنه لا يترك فيها عوجا ولا أمتا ، ثم إنه تمضى الرواية عنه ، ويحملها الحواريون من أمته كما ينبغى برهة من الزمان ، ثم بعد ذلك يخلف خلف يحرفونها ويتعاونون فيها ، فلا تكون حقا صرفا ، بل ممزوجا بالباطل ، وهو قوله ﷺ فيما أخرجه البخارى ومسلم ، عن ابن مسعود رضى الله عنه :

« ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ، ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف ، يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » .

وهذا الباطل منه إشراك جلى وتحريف صريح يؤخذون عليه على كل حال ، ومنه إشراك خفى وتحريف مضمر لا يؤاخذ الله بهما حتى يبعث الرسول فيهم ،

فيقيم الحجة ، ويكشف الغمة ليحيا من حى عن بينه ويهلك من هلك عن بينة .

فإذا بعث فيهم الرسول رد كل شيء إلى أصله ، فنظر إلى شرائع الملة الأولى ، فما كان منها من شعائر الله لا يخالطها شرك ، ومن سنن العبادات أو طرق الارتفاقات التى ينطبق عليها القوانين الملية ، أبقاها ، ونوه بالخامل منها ، ومهد لكل شيء أركانا وأسبابا ، وما كان من تحريف وتهاون أبطله ، وبين أنه ليس من الدين فى شيء .

وما كان من الأحكام المنوطة بمظان المصالح يومئذ ، ثم اختلف المظان بحسب اختلاف العادات ، بدلها ، إذ المقصود الأصلى فى شرح الأحكام هى المصالح ، والمقصود بالمظان ، أنه ربما كان شيء مظنة لمصلحة ثم صار ليس مظنة ينسب إليها الحى كالمشى فى الشمس ، والحركة المتعبة ، وتناول الغذاء الفلانى ، ويمكن أن تزول مظنة هذه الأشياء ، فتختلف الأحكام حسب ذلك ، وما كان انعقد عليه إجماع الملأ الأعلى فيما يعلمون ويعتادون ، وفيما يثبت عليه علومهم ، ودخل فى جذر نفوسهم زاده .

وكان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، قبل نبينا ﷺ يزيدون ، ولا ينقصون ، ولا يبدلون إلا قليلا .

فزاد إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، على ملة نوح عليه السلام أشياء من المناسك ، وأعمال الفطرة والختان .

وزاد موسى عليه السلام ، على ملة إبراهيم عليه السلام ، أشياء كتحريم لحوم الإبل ، ووجوب السبت ، ورجم الزناة وغير ذلك .

ونبينا محمد ﷺ زاد ، ونقص ، وبدل .

والناظر فى دقائق الشريعة إذا استقرأ هذه الأمور وجدها على وجوه :

منها : أن الملة اليهودية حملها الأحبار والرهبان ، فحرفوها بالوجوه المذكورة فيما سبق ، فلما جاء النبى ﷺ رد كل شيء إلى أصله ، فاختلفت شريعته بالنسبة إلى اليهودية التى هى فى أيديهم ، فقالوا هذه زيادة ونقص

وتبديل ، وليس تبديلا فى الحقيقة .

ومنها : أن النبى ﷺ ، بعث بعثة تتضمن بعثة أخرى ، فالأولى إنما كانت إلى بنى إسماعيل وهو قوله تعالى :

(هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُم)(١) .

وقوله تعالى : (لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ)(٢) .

وهذه البعثة تستوجب أن تكون مادة شريعته ما عندهم من الشعائر ، وسنن العبادات ، ووجوه الارتفاقات ، إذ الشرع إنما هو إصلاح ما عندهم ، لا تكليفهم بما لا يعرفونه أصلا ، ونظيره قوله تعالى :

(قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)(٣) .

وقوله تعالى :

(لَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيّ)(٤)

وقوله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَومِهِ)(٥) .

والثانية كانت إلى جميع أهل الأرض عامة بالارتفاق الرابع ، وذلك لأنه لعن فى زمانه أقواما ، وقضى بزوال دولتهم ، كالعجم والروم ، فأمر بالقيام بالارتفاق الرابع ، وجعل شرفه وغلبته تقريبا لإتمام الأمر المراد ، وآتاه مفاتيح كنوزهم ، فحصل له بحسب هذا الكمال أحكام أخرى غير أحكام التوراة ، كالخراج ، والجزية ، والمجاهدات ، والاحتياط عن مداخل التحريف .

ومنها : أنه بعث فى زمان فترة قد اندرست فيه الملل الحقة ، وحرفت ، وغلب عليهم التعصب واللجاج ، فكانوا لا يتركون ملتهم الباطلة ، ولا عادات الجاهلية إلا بتأكيد بالغ فى مخالفة تلك العادات ، فصار ذلك معدا لكثير من الاختلافات ..

---

(١) الجمعة : ٢ (٢) يس : ٦ (٣) الزخرف : ٣

(٤) فصلت : ٤٤ (٥) إبراهيم : ٤

هذه بعض أسباب ومميزات دين نبينا ﷺ واختلافه عن دين اليهودية والنصرانية وباقى الأديان الأخرى ... ولهذا كان :

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ)[1]

وصدق الله العظيم القائل :

(وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا)[2]

وجل جلال الحق فى قوله سبحانه :

(وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)[3]

---

(١) آل عمران : ١٩ (٢) المائدة : ٣ (٣) آل عمران : ٨٥

الفصل الثالث

خاتمة وتتمة



خاتمة وتتمة

يقول الله تعالى :

(قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ، اللهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)[1] .

ذكر الإمام الفخر ، أن هذه السورة نزلت بسبب سؤال المشركين وبيانه كما يقول الضحاك :

أن المشركين أرسلوا عامر بن الطفيل إلى النبى ﷺ ، وقالوا :

شققت عصانا ، وسببت آلهتنا ، وخالفت دين آبائك ، فإن كنت فقيرا أغنيناك ، وإن كنت مجنونا داويناك ، وإن هويت امرأة زوجناكها .

فقال رسول الله ﷺ : لست فقيرا ، ولا مجنونا ، ولا هويت امرأة ، أنا رسول الله ، أدعوكم من عبادة الأصنام إلى عبادته سبحانه .

فأرسلوه ثانية ، وقالوا : قل له : بين لنا جنس معبودك ، أمن ذهب أو فضة ، فأنزل الله تعالى هذه السورة :

فقالوا له : ثلثمائة وستون صنما لا تقوم بحوائجنا ، فكيف يقوم الواحد بحوائج الخلق ؟

فنزلت :

(وَالصَّافَّاتِ صَفًّا .. فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ، فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ، إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ)[2] .

فأرسلوه أخرى ، وقالوا : بين لنا أفعاله ، فنزل :

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ)[3] .

وروى عطاء عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال :

---

(١) الإخلاص : ١ — ٤
(٢) الصافات : ١ — ٤
(٣) يونس : ٣

قدم وفد نجران ، فقالوا : صف لنا ربك ، أمن زبرجد أو ياقوت ، أو ذهب ، أو فضة ؟

فقال : إن ربي ليس من شيء ، لأنه خالق الأشياء ، فنزلت : (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) .

قالوا : هو واحد ، وأنت واحد ، فقال : ليس كمثله شيء .

قالوا : زدنا من الصفة : فقال : الصمد .

فقالوا : وما الصمد ؟ فقال : الذى يصمد إليه الخلق فى الحوائج .

فقالوا : زدنا ، فنزل (لم يلد) كما ولدت مريم ، (ولم يولد) كما ولد عيسى ، (ولم يكن له كفوا أحد) . لا نظير له من خلقه .

وسورة قل هو الله أحد لها خاصية فى إثبات التوحيد الذى هو مفتاح دعوة الرسل ، لهذا ناسب أن نذكرها .

من هذه الخاصية : أنها مع صغرها فى الصورة ، تبقى محفوظة فى القلوب ، معلومة للعقول ، فيكون ذكر جلال الله تعالى حاضرا أبدا بهذا السبب ، ولهذا امتازت عن سائر السور بهذه الفضائل .

وقوله تعالى فيه من المسائل الهامة ما لا يخفى ، نذكر :

منها : أن معرفة الله تعالى جنة حاضرة ، إذ الجنة أن تنال ما يوافق عقلك وشهوتك ، ولذلك لم تكن الجنة جنة لآدم لما نازع عقله هواه ، ولا كان القبر سجنا على المؤمن لأنه حصل له هناك ما يلائم عقله وهواه .

ثم إن معرفة الله تعالى مما يريدها الهوى والعقل ، فصارت جنة مطلقة .

بيان ذلك : أن العقل يريد أمينا تودع عنده الحسنات ، والشهوة تريد غنيا يطلب منه المستلذات ، بل العقل كالإنسان الذى له همة عالية فلا ينقاد إلا لمولاه ، والهوى كالمنتجع الذى إذا سمع حضور غنى فإنه ينشط للانتجاع إليه ، بل العقل يطلب معرفة المولى ليشكر له النعم الماضية ، والهوى يطلبها ليطمع منه فى النعم المتربصة ، فلما عرفاه كما أراده عالما ، وغنيا تعلقا بذيله .

فقال العقل : لا أشكر أحدا سواك .

وقالت الشهوة : لا أسأل أحدا إلا إياك .

ثم جاءت الشبهة فقالت : يا عقل كيف أفردته بالشكر ولعل له مثلا ؟ ويا شهوة كيف اقتصرت عليه ولعل ههنا بابا آخر ؟

فبقى العقل متحيرا ، وتنغصت عليه تلك الراحة ، فأراد أن يسافر فى عالم الاستدلال ليفوز بجوهرة اليقين ،

فكأن الحق سبحانه قال : كيف أنغص على عبدى لذة الاشتغال بخدمتى وشكرى ، فبعث الله رسوله ﷺ قال :

لا تقله من عند نفسك ، بل هو الذى عرفته صادقا يقول لى :

« قل هو الله أحد » فعرفك الوحدانية بالسمع ، وكفاك مؤنة النظر والاستدلال بالعقل .

وتحقيق ذلك : أن المطالب على ثلاثة أقسام .

قسم منها لا يمكن الوصول إليه بالسمع ، وهو كل ما تتوقف صحة السمع على صحته ، كالعلم بذات الله سبحانه وتعالى ، وعلمه وقدرته وصحة المعجزات .

وقسم منها لا يمكن الوصول إليه إلا بالسمع ، وهو وقوع كل ما علم بالعقل جواز وقوعه .

وقسم ثالث يمكن الوصول إليه بالعقل والسمع معا ، وهو كالعلم بأنه واحد وبأنه مرئى إلى غيرها .

وقوله تعالى : « هو الله أحد » ألفاظ ثلاثة ، وكل واحد منها إشارة إلى مقامات الطالبين .

المقام الأول : مقام المقربين ، وهو أعلى مقامات السائرين إلى الله تعالى ، وهؤلاء هم الذين نظروا إلى ماهيات الأشياء وحقائقها من حيث هى هى ، فلا جرم ما رأوا موجودا سوى الله تعالى ، لأن الحق هو الذى لذاته يجب وجوده ، وأما ما عداه فممكن لذاته ، والممكن لذاته إذا نظر إليه من حيث هو هو كان

معدوما ، فهؤلاء لم يروا موجودا سوى الحق سبحانه .

وقوله : « هو » إشارة مطلقة ، والإشارة وإن كانت مطلقة إلا أن المشار إليه لما كان معينا انصرف ذلك المطلق إلى ذلك المعين ، فلا جرم كان قولنا هو إشارة من هؤلاء المقربين إلى الحق سبحانه ، فلم يفتقروا فى تلك الإشارة إلى مميز ، لأن الافتقار إلى المميز ، إنما يحصل حين حصل هناك موجودان ، وهؤلاء ما شاهدوا بعيون عقولهم إلا الواحد فقط ، فلهذا السبب كانت لفظة « هو » كافية فى حصول العرفان التام لهؤلاء .

المقام الثانى : وهو مقام أصحاب اليمين ، وهو دون المقام الأول ، وذلك لأن هؤلاء شاهدوا الحق موجودا وشاهدوا الخلق أيضا موجودا ، فحصلت كثرة فى الموجودات ، فلهذا لم يكن هو كافيا فى الإشارة إلى الحق ، بل لا بد هناك من مميز به يتميز عن الحق ، فهؤلاء احتاجوا إلى أن يقرنوا لفظة الله بلفظة هو ، فقيل لأجلهم هو الله ، لأن الله هو الموجود الذى يفتقر إليه ما عداه ، ويستغنى هو عن كل ما عداه .

والمقام الثالث : وهو مقام أصحاب الشمال وهو أخس المقامات وأدونها ، وهم الذين يجوزون أن يكون واجب الوجود أكثر من واحد ، وأن يكون الإله أكثر من واحد ، فقرن لفظ الأحد بما تقدم ردا على هؤلاء وإبطالا لمقاماتهم فقيل : قل هو الله أحد لله .

وقوله تعالى : « الله الصمد » يقتضى أن لا يكون فى الوجود صمد سوى الله ، وإذا كان الصمد مفسرا بالصمود إليه فى الحوائج ، أو بما لا يقبل التغيير فى ذاته ، لزم أن لا يكون فى الوجود موجود هكذا سوى الله تعالى .

فهذه الآية تدل على أنه لا إله سوى الواحد .

فقوله : « الله أحد » إشارة إلى كونه واحدا ، بمعنى أنه ليس فى ذاته تركيب ولا تأليف بوجه من الوجوه .

وقوله : « الله الصمد » إشارة إلى كونه واحدا بمعنى نفى الشركاء والأنداد والأضداد .

وفى قوله تعالى : « لم يلد ولم يولد » فائدة أزيد فى نفى الولديه ، ونفى المولودية وذلك :

لأن قوله (الله الصمد) إشارة إلى كونه تعالى فى ذاته وماهيته منزها عن التركيب .

وقوله تعالى : « الله الصمد » إشارة إلى نفى الأضداد والأنداد والشركاء والأمثال وهذان المقامان الشريفان مما حصل الاتفاق فيهما بين أرباب الملل والأديان ، وبين الفلاسفة الذين قالوا :

إنه يتولد عن واجب الوجود عقل ، وعن العقل عقل آخر ونفس وفلك ...

وهكذا على هذا الترتيب حتى ينتهى إلى العقل الذى هو مدبر ما تحت كرة القمر ، فعلى هذا القول يكون واجب الوجود قد ولد العقل الأول الذى هو تحته ، ويكون العقل الذى هو مدبر لعالمنا هذا كالمولود من العقول التى فوقه ، فالحق سبحانه وتعالى نفى الوالدية أولا ، كأنه قيل إنه لم يلد العقول والنفوس ، ثم قال :

والشيء الذى هو مدبر أجسادكم وأرواحكم وعالمكم هذا ليس مولودا من شيء آخر ، فلا والد ولا مولود ولا مؤثر إلا الواحد الذى هو الحق سبحانه .

كتب جماعة للإمام الحسين بن على رضى الله عنه يسألونه عن معنى الصمد فى قوله تعالى : « الله الصمد » فكتب رضى الله عنه لهم بعد البسملة :

« أما بعد : فلا تخوضوا فى القرآن ، ولا تجادلوا فيه ، ولا تتكلموا فيه بغير علم ، فقد سمعت جدى رسول الله ﷺ يقول :

« من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار » .

وأن الله سبحانه قد فسر الصمد فقال : (اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ) .

ثم فسره فقال : لَمْ يَلِدْ ، وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) .

(لم يلد) لم يخرج منه شيء كثيف ، كالولد ، وسائر الأشياء الكثيفة التى تخرج من المخلوقين ، ولا شيء لطيف كالنفس ، ولا تتشعب منه البدوات كالسنة والنوم ، والخطرة والهم ، والحزن والبهجة والضحك والبكاء ، والخوف والرجاء ، والرغبة والسآمة ، والجوع والشبع ، تعالى عن أن يخرج منه شيء وأن يتولد منه شيء كثيف أو لطيف (ولم يولد) :

لم يتولد منه شيء ، ولم يخرج منه شيء كما تخرج الأشياء الكثيفة من عناصرها والدابة من الدابة ، والنبات من الأرض ، والماء من الينابيع والثمار من الأشجار ، ولا كما يخرج الأشياء اللطيفة من مراكزها ، كالبصر من العين ، والسمع من الأذن ، والشم من الأنف ، والذوق من الفم ، والكلام من اللسان ، والمعرفة والتمييز من القلب ، وكالنار من الحجر ، لا بل هو الله الصمد الذى لا شيء ، ولا فى شيء ، ولا على شيء مبدع الأشياء وخالقها ، ومنشيء الأشياء بقدرته ، يتلاشى ما خلق للفناء بمشيئته ، ويبقى ما خلق للبناء بعلمه ، فذلكم الله الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ، ولم يكن له كفوا أحد » اهـ .

على ضوء هذا التوحيد الخالص الذى هو مفتاح دعوة الرسل ، فسر الإمام الحسين بن على رضى الله عنه ، سورة الإخلاص تفسيرا شاملا لمعانى وحدانية الله سبحانه وتعالى .

والله سبحانه وتعالى بعد أن أبان لنا هذا كله ووضحه ، ختم السورة بأن شيئا من الموجودات يمتنع أن يكون مساويا له فى شيء من صفات الجلال والعظمة .

أما الوجود فلا مساواة فيه لأن وجوده من مقتضيات حقيقته ، فإن حقيقته غير قابلة للعدم من حيث هى هى ، وأما سائر الحقائق ، فإنها قابلة للعدم .

وأما العلم فلا مساواة فيه لأن علمه ليس بضرورى ولا باستدلالى ،

ولا مستفاد من الحس ولا من الرؤية ، ولا يكون فى معرض الغلط والزلل ، وعلوم الحدثات كذلك .

وأما القدرة فلا مساواة فيها ، وكذا الرحمة ، والجود ، والعدل ، والفضل ، والإحسان .

واعلم أن هذه السورة أربع آيات ، وفى ترتيبها أنواع من الفوائد :

الفائدة الأولى : أن أول السورة يدل على أنه سبحانه واحد ، والصمد على أنه كريم رحيم ، لأنه لا يصمد إليه حتى يكون محسنا ، و (لم يلد ولم يولد) على أنه غنى على الإطلاق ، ومنزه عن التغيرات ، فلا يبخل بشىء أصلا ، ولا يكون جوده لأجل جر نفع أو دفع ضر ، بل بمحض الإحسان .

وقوله : (ولم يكن له كفوا أحد) إلى نفى ما لا يجوز عليه من الصفات .

(الفائدة الثانية) نفى الله تعالى عن ذاته أنواع الكثرة بقوله (أحد) ونفى النقص والمغلوبية بلفظ الصمد ، ونفى المعلومية والعلمية ، بلم يلد ولم يولد ، ونفى الأضداد والأنداد بقوله (ولم يكن له كفوا أحد) .

(الفائدة الثالثة) قوله (أحد) يبطل مذهب الثنوية القائلين بالنور والظلمة ، والنصارى فى التثليث،والصابئين فى الأفلاك والنجوم ، والآية الثانية تبطل مذهب من أثبت خالقا سوى الله ، لأنه لو وجد خالق آخر لما كان الحق مصمودا إليه فى طلب جميع الحاجات ، والثالثة تبطل مذهب اليهود فى عزير ، والنصارى فى المسيح ، والمشركين فى أن الملائكة بنات الله ، والآية الرابعة تبطل مذهب المشركين حيث جعلوا الأصنام أكفاء له وشركاء .

(الفائدة الرابعة) أن هذه السورة فى حق الله سبحانه ، مثل سورة الكوثر فى حق الرسول ﷺ ، لكن الطعن فى حق الرسول كان بسبب أنهم قالوا : إنه أبتر لا ولد له ، وههنا الطعن بسبب أنهم أثبتوا لله ولدا ، وذلك لأن عدم الولد فى حق الإنسان عيب ، ووجود الولد عيب فى حق الله تعالى ، فلهذا السبب قال الله ههنا : قل ، حتى تكون ذابا عنى ، وفى سورة :

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) أنا أقول ذلك الكلام حتى أكون أنا ذابا عنك .

ومجمل القول فيما تضمنه هذا السفر الذى نرجو أن يكون موفقا بعون الله وتوفيقه ، أن التوحيد على ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : توحيد العامة ، الذى يصح بالشواهد .

والوجه الثانى : توحيد الخاصة ، وهو الذى يثبت بالحقائق .

والوجه الثالث : توحيد قائم بالقدم ، وهو توحيد خاصة الخاصة .

ولا ريب أن أهل التوحيد يتفاوتون فى توحيدهم — علما ومعرفة وحالا — تفاوتا لا يحصيه إلا الله تعالى ، فأكمل الناس توحيدا : الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، والمرسلون منهم أكمل فى ذلك وأولو العزم من الرسل أكمل توحيدا ، وهم :

سيدنا نوح وسيدنا إبراهيم ، وسيدنا موسى ، وسيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وأكملهم توحيدا : الخليلان سيدنا محمد وسيدنا إبراهيم صلوات الله وسلامه عليهما ، فإنهما قاما من التوحيد بما لم يقم به غيرهما — علما ومعرفة وحالا ، ودعوة للخلق وجهادا — فلا توحيد أكمل من الذى قامت به الرسل ، ودعوا إليه ، وجاهدوا الأمم عليه ، ولهذا أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يقتدى بهم فيه ، كما قال سبحانه — بعد ذكر إبراهيم ، ومناظرته أباه وقومه ، فى بطلان الشرك ، وصحة التوحيد ، وذكر الأنبياء من ذريته — ثم قال تعالى :

(أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ، فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ)[1] .

فلا أكمل من توحيد أمر الله سبحانه رسوله ﷺ فيه أن يقتدى بهم .

---

(١) الأنعام : ٨٩ ، ٩٠ .

ولما قاموا بحقيقته — علما وعملا ودعوة وجهادا — جعلهم الله أئمة للخلائق ، يهدون بأمره ويدعون إليه ، وجعل الخلائق تبعا لهم ، يأتمرون بأمرهم ، وينتهون إلى ما وقفوا بهم عنده ، وخص بالسعادة والفلاح والهدى أتباعهم ، وبالشقاء والضلال مخالفيهم ، وقال لإمامهم وشيخهم إبراهيم خليله ﷺ :

(إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ، قَالَ : وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ؟ قَالَ : لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)[1] .

أى لا ينال عهدى بالإمامة مشرك ، ولهذا أوصى نبيه محمدا ﷺ أن يتبع ملة إبراهيم ، وكان يعلم أصحابه ، إذا أصبحوا : أن يقولوا :

« أصبحنا على فطرة الإسلام ، وكلمة الإخلاص ، ودين نبينا محمد ﷺ ، وملة أبينا إبراهيم ، حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين » .

فملة إبراهيم : التوحيد ، ودين سيدنا محمد : ما جاء به من عند الله قولا وعملا واعتقادا ، وكلمة الإخلاص : هى شهادة أن لا إله إلا الله ، وفطرة الإسلام : هى ما فطر الله عليه عباده من محبته وعبادته وحده لا شريك له ، والاستسلام له عبودية وذلا ، وانقيادا وإنابة .

فهذا هو توحيد خاصة الخاصة الذى من رغب عنه فهو من أسفه السفهاء .

قال الله تعالى :

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ؟ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ، إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ : أَسْلِمْ ، قَالَ : أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)[2] .

---

(١) البقة : ١٣٤

(٢) البقرة : ١٣٠

فقسم سبحانه الخلائق قسمين : سفيها لا أسفه منه ، ورشيدا .

فالسفيه : من رغب عن ملته بالشرك .

والرشيد : من تبرأ من الشرك قولا وعملا وحالا ، فكان قوله توحيدا ، وعمله توحيدا ، وحاله توحيدا ، ودعوته إلى التوحيد ، وبهذا أمر الله سبحانه جميع المرسلين — من أولهم إلى آخرهم — قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ، إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ، وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ)[١] .

وقال تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)[٣] .

وقال تعالى :

(وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا : أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَـٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ؟)[٣] .

وقال تعالى :

(أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ، لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ، لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ، وَهُمْ يُسْأَلُونَ ، أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ؟ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ، هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِىَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِى)[٤] .

أى هذا الكتاب الذى انزل على ، وهذه كتب الأنبياء كلهم : هل

---

(١) المؤمنون : ٥١ ، ٥٢
(٢) الأنبياء : ٢٥
(٣) الزخرف : ٤٥
(٤) الأنبياء : ٢١ — ٢٤

وجدتم فى شيء منها اتخاذ آلهة مع الله ؟ أم كلها ناطقة بالتوحيد آمرة به ؟

وقال تعالى :

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا : أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ، وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)[١] .

و « الطاغوت » اسم لكل ما عبدوه من دون الله ، فكل مشرك إلهه طاغوته .

وقد تكلم الإمام ابن تيمية فى التوحيد فقال :

أما التوحيد الأول : فهو التوحيد الذى جاءت به الرسل من أولهم إلى آخرهم ، ونزلت به الكتب كلها ، وبه أمر الله الأولين والآخرين . وذكرت الآيات الواردة بذلك ، ثم قال :

وقد أخبر الله عن كل رسول من الرسل أنه قال لقومه :

(اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ)[٢] .

وهذه أول دعوة الرسل وآخرها ، قال النبى ﷺ :

« أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله » .

وقال ﷺ : « من مات وهو يعلم :« أن لا إله إلا الله ، دخل الجنة » اهـ .

والقرآن مملوء من هذا التوحيد ، والدعوة إليه ، وتعليق النجاة والسعادة فى الآخرة به .

وحقيقته : إخلاص الدين كله لله وحده .

والفناء فى هذا التوحيد مقرون بالبقاء ، وهو أن تثبت إلهية الحق تعالى فى قلبه ، وتنفى إلهية ما سواه ، فتجمع بين النفى والإثبات ، فالنفى هو الفناء ، والإثبات هو البقاء .

وحقيقته : أن تفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه ، وبمحبته عن محبة ما سواه ، وبخشيته عن خشية ما سواه ، وبطاعته عن طاعة ما سواه ، وكذلك

---

(١) النحل : ٣٦ (٢) هود : ٦١

بموالاته وسؤاله ، والاستغناء به ، والتوكل عليه ، ورجائه ودعائه ، والتفويض إليه ، والتحاكم إليه ، واللجوء إليه ، والرغبة فيما عنده .

قال تعالى : (قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ، فَاطِرِ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ؟)[١] .

وقال تعالى : (أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا ؟)[٢] .

وقال تعالى : (قُلْ : أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا ؟ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ)[٣] .

وقال تعالى :

(قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ؟ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ : لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ، وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ، بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ ، وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)[٤] .

وقال تعالى :

(قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، قُلْ : إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)[٥] .

وقال تعالى :

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَـٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)[٦] .

وقال تعالى :

(وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَـٰهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا)[٧] .

وقال تعالى :

---

(١) الأنعام : ١٤ (٢) الأنعام : ١١٤ (٣) الأنعام : ١٦٤
(٤) الزمر : ٦٤ — ٦٦ (٥) الأنعام : ١٦١ — ١٦٣ (٦) الشعراء : ٢١٣

(وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ ، لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ، كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)(١) .

وقال تعالى :

(قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنَ دُونِ اللهِ ؟ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ : هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ؟ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ : هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ؟ قُلْ : حَسْبِيَ اللهُ ، عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ)(٢)

وقال تعالى :

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُو ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ)(٣) .

وقال تعالى :

(إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ، فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّين ، أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ)(٤) .

وقال عن أصحاب الكهف :

(قَالُوا : رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَـٰـها ، لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا)(٥) .

وقال عن صاحب يس :

« وما لى لا أعبد الذى فطرنى ، وإليه ترجعون ؟ أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون ؟» .

---

(١) القصص : ٨٨ (٢) الزمر : ٣٨ (٣) يونس : ١٠٧
(٤) الزمر : ٢ ، ٣ (٥)الكهف : ٦٤

وقال تعالى :

(أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ؟ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ)[١] .

وقال تعالى :

(أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ ؟ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ؟ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ، لَهُ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَ الْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)[٢] .

وقال تعالى :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، ضُرِبَ مَثَلٌ ، فَاسْتَمِعُوا لَهُ : إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَ الْمَطْلُوب ، مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)[٣] .

وقال تعالى : (وَ اعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)[٤] .

وهذا كثير فى القرآن ، بل هو أكثر من أن يذكر ، وهو أول الدين وآخره ، وباطنه وظاهره ، وذروة سنامه ، وقطب رحاه ، وقد أمرنا الله تعالى أن نتأسى بإمام هذا التوحيد فى نفيه وإثباته ، كما قال تعالى :

(قَدْ كَانَتْ لَكُم أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَ الَّذِينَ مَعَهُ ، إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِم : إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، كَفَرْنَا بِكُمْ ، وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ)[٥] .

وقال تعالى :

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُون ، إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِي ، فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ)[٦] .

---

(١) الشورى : ٩ — (٢) الزمر : ٤٣ ، ٤٤ — (٣) الحج : ٧٣ ، ٧٤

(٤) النساء : ٣٦ — (٥) الممتحنة : ٤ — (٦) الزخرف : ٢٦ ، ٢٧

وقال تعالى :

(وَاتْلُ عَلَيْهِم نَبَأَ إبْرَاهِيمَ ، إذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ : مَا تَعْبُدُونَ ؟ قَالُوا : نَعْبُدُ أَصْنَامًا ، فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ، قَالَ : هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إذْ تَدْعُونَ ؟* أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ؟ * قَالُوا : بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ : أَفَرَأَيْتُمْ مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وآبَاؤُكُمْ الأَقْدَمُونَ ؟ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ * الَّذِى خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَ الَّذي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَ الَّذي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ)[1] .

وإذا تدبرت القرآن — من أوله إلى آخره — رأيته يدور على هذا التوحيد ، وتقرير حقوقه .

والخليلان هم أكمل خاصة الخاصة توحيدا ، ولا يجوز أن يكون فى الأمة من هو أكمل توحيدا من نبى من الأنبياء ، فضلا عن الرسل ، فضلا عن أولى العزم ، فضلا عن الخليلين .

وكمال هذا التوحيد : هو أن لا يبقى فى القلب شيء لغير الله سبحانه أصلا ، بل يبقى العبد مواليا لربه فى كل شيء ، يحب ما أحب ومن أحب ، ويبغض من أبغض وما أبغض ، ويوالى من يوالى ، ويعادى من يعادى ، ويأمر بما يأمر به ، وينهى عما نهى عنه .

لهذا فقد تبين أن هذا توحيد خاصة الخاصة ، الذى لا شيء فوقه ، ولا أخص منه ، وأن الخليلين أكمل الناس فيه توحيدا .

---

(١) الشعراء : ٦٩ — ٨٢

ومعنى توحيد العامة أنه يصح بالشواهد ، أى بالأدلة والآيات والبراهين ، وهذا مما يدل على كماله وشرفه : حيث إنه قامت عليه الأدلة ، ونادت عليه الشواهد ، وأوضحته الآيات والبراهين ، وما عداه فدعاوى مجردة ، لا يقوم عليها دليل ، ولا تصح بشاهد ، فكل توحيد لا يصح بشاهد فليس بتوحيد ، فلا يجوز أن يكون توحيد أكمل من التوحيد الذى يصح بالشواهد ، والآيات وتوحيد القرآن من أوله إلى آخره كذلك .

هذا هو التوحيد الظاهر الجلى ، الذى نفى الله به الشرك الأعظم ، وبظهوره وجلائه ، أرسل الله به رسله ، وأنزل به كتبه ، وأمر الله به الأولين والآخرين من عباده .

أما الرمز والإشارة والتعقيد ، الذى لا يكاد أن يفهمه أحد من الناس إلا بجهد وكلفة : فليس مما جاءت به الرسل ، ولا دعوا إليه ، فظهور هذا التوحيد وانجلاؤه ووضوحه ، وشهادة الفطر والعقول به : من أعظم الأدلة على أنه أعلى مراتب التوحيد ، وذروة سنامه ، ولذلك قوى على نفى الشرك الأعظم ، فإن الشيء كلما عظم لا يدفعه إلا العظيم ، فلو كان شيء أعظم من هذا التوحيد ، لدفع الله به الشرك الأعظم ، ولعظمته وشرفه : نصبت عليه القبلة وأسست عليه الملة ، ووجبت به الذمة ، وانفصلت به دار الكفر من دار الإسلام .

ورضى الله تعالى عن الإمام على ، وكرم الله وجهه ، إذ يقول فى تمجيد الله تعالى ، وفى تعظيم توحيده :

« الحى القائم الواحد الدائم فكاك المقادم ، ورزاق البهائم ، القائم بغير منصبة ، الدائم بغير غاية ، الخالق بغير كانه ، فأعرف العباد به ، الذى بالحدود لا يصفه ، ولا بما يوجد فى الخلق يتوهمه ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار .

وبلغه رضى الله عنه فيما أخرجه الحارث الهمدانى ، أن قوما من أهل عسكره

شبهوا الله وأفرطوا ، فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال كرم الله وجهه :

يا أيها الناس اتقوا العارقة ، فقالوا : ياأمير المؤمنين وما العارقة : ؟ قال : الذين يشبهون الله بأنفسهم ، فقالوا : وكيف يشبهون الله بأنفسهم ؟ قال : يضاهئون بذلك قول الذين كفروا من أهل الكتاب إذ قالوا ، خلق الله آدم على صورته ، سبحانه وتعالى عما يقولون ، سبحانه وتعالى عما يشركون ، بل الله الواحد الذى ليس كمثله شيء ، استخلص الوحدانية والجبروت ، وأمضى المشيئة والإرادة ، والقدرة والعلم بما هو كائن ، لا منازع له فى شيء ، ولا كفؤ له يعادله ، ولا ضد له ينازعه ، ولا سمى له يشبهه ، ولا مثل له يشاكله ، ولا تبدو له الأمور ، ولا تجرى عليه الأحوال ، ولا تنزل به الأحداث ، وهو يجرى الأحوال ، وينزل الأحداث على المخلوقين لا يبلغ الواصفون كنه حقيقته ولا يخطر على القلوب مبلغ جبروته ، لأنه ليس له فى الخلق شبيه ، ولا له فى الأشياء نظير ، لا تدركه العلماء بألبابها ، ولا أهل التفكير بتدبيرها وتفكيرها ، إلا بالتحقيق إيمانا بالغيب ، لأنه لا يوصف بشيء من صفات المخلوقين ، وهو الواحد الذى لا كفؤ له

﴿ وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾[1] .

وحدثنا سفيان عن الضحاك رضى الله عنه قال :

جاء يهودى إلى على بن أبى طالب فقال : ياعلى متى كان ربنا ؟ فقال على رضى الله عنه : « إنما يقال متى كان لشيء لم يكن فكان ، وهو كائن بلا كينونة ، كائن بلا كيفية ، ولم يزل بلا كيف ليس له قبل القبل ، بلا غاية ولا منتهى غاية تنتهى إليها غايته ، انقطعت الغايات عنده ، وهو غاية الغايات .

وعن ابن عباس أن نجدة الحرورى أتاه فقال : يا ابن عباس كيف معرفتك بربك فإن من قبلنا قد اختلفوا علينا ؟

---

(١) وهذا الكلام أخرجه الربيع عن أبى مسعود عن عثمان بن عبد الرحمن المدنى عن أبى إسحاق والشعبى عن الإمام على رضى الله عنه .

فقال ابن عباس رضى الله عنه :

أعرفه بما عرف به نفسه من غير رؤية ، وأصفه بما وصف به نفسه من غير تثبيت صورة ، لا يدرك بالحواس ، ولا يقاس بالناس ، معروف بغير تشبيه ، متدان فى بعده لا ينظر ولا يتوهم ديموميته ، ولا يمثل بخلقه ولا يجور فى قضيته ، فالخلق إلى ما علم منقادون ، وعلى ما سطر فى المكنون من كتابه ماضون ، لا يعلمون بخلاف ما منهم علم ، ولا إلى غيره يردون ، وهو قريب غير ملتزق ، بعيد غير منفصل ، يحقق ولا يمثل ، يوحد ولا يبعض ، يعرف بالآيات ويثبت بالعلامات .

قال فقام نجدة مفحما مخصوما متعجبا بما جاء به ابن عباس رضى الله عنهما .

وعن سعيد بن جبير رضى الله غنه قال :

لما رأى ابن الأزرق أنه لا يسأل ابن عباس عن شيء إلا أجاب فيه قال : وما أجرأك يا بن عباس قال : وما ذاك يا بن الأزرق ؟ قال أراك لا تسأل عن شيء إلا أجبت فيه .

قال : ويلك هو علم عندى ، أخبرنى عمن كتم علما عنده ورجل تكلم بما لا يعلم .

قال:أفكل ما تقول به تعلمه ؟ قال : نعم إنا أهل بيت أوتينا الحكمة .

قال نافع : عن الذى تعبده كيف هو ؟ فسكت عنه ابن عباس استعظاما لما قال ثم قال له :

أخبرك أن الله هو الواحد بغير تشبيه ، والواجد بغير تفكير ، والخالق بغير تكييف ، العالم بغير مثال ، الموصوف بغير تشبيه ، الدائم بغير غاية ، المعروف بغير تحديد ، البائن بغير نظير ، عزيز قدير لم يزل ولا يزال ، وجلت القلوب لمهابته ، وذلت الأرباب لعزته ، وخضعت الرقاب لقدرته ، لا يخطر على القلوب مبلغ كنه عظمته ، ولا تنعقد القلوب على ضمير يبلغه ، لا تبلغه العلماء بألبابها ، ولا المتفكرون بتدبير تفكيرها ، فأعلم الخلائق به الذى

لا يصفه بصورة ولا مثل فيقع الوهم للخلائق عليه . قال نافع صدقت يا بن عباس .

وقال جابر رضى الله عنه : جاء نافع بن الأزرق إلى ابن عباس فقال : يا ابن عباس أخبرنى عن ربك كيف هو وأين هو ؟ .

قال ابن عباس رضى الله عنه : ثكلتك أمك يا بن الأزرق ، إن الله لا كيف له غير الخلق ، خلق الخلق وهو خالق لكيفيتهم وهو بكل أين . يعنى بكل مكان قال ، فسكت ابن الأزرق ، قال ابن عباس : لا تمضى الليالى والأيام ، حتى يتفقه قوم فى الشرائع ، وهم عن توحيد الله غافلون ، قوم يصفون ربهم بالبشر ، ويسمون من خالفهم كافرين ، وهم أولى بذلك وهم الظالمون ، يختلفون من بعد ما جاءتهم البينات ، ويأخذون بالشبهات والمتشابهات ، وروايات أهل الكتاب ، ويسمون المتفقهة ، وليسوا كذلك ، وعند ذلك تمنع السماء قطرها ، والأرض نباتها ، وتنقص من أطرافها ، وعند ذلك يحبط الله أعمالهم ، ويسلط عليهم من يسومهم سوء العذاب .

ثم قال جابر بن زيد : قال ابن عباس رضى الله عنهما :

يقول الله أنا ربكم لا تعبدوا غيرى ، ولا تشركوا بى شيئا ، ولا تجعلوا لى شبيها ، يكون فى السماء والأرض فإنكم لن ترونى .

وقال الربيع : بلغنى عن ابن عمر عن أبيه عمر ، أنه سأل كعبا فقال يا كعب : ما تستطيع أن تصف لنا من عظمة ربك .

فقال : ياأمير المؤمنين : فيما ذكر الله فى كتابه ، التعظيم لنفسه ما هو كاف قال الله عز وجل :

﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾[1] .

فقال عمر رضى الله عنه : ما يعنى بقوله والظاهر والباطن ؟

قال كعب : الظاهر الذى ليس ما ظهر من الأشياء بأقرب إليه مما بطن

---

(٢) الحديد : ٣

منها ، وما بطن من الأشياء ليس بأبعد عنه مما ظهر منها ، كما أنه ليس ما ظهر من الأشياء بأعلم منه مما خفى منها ، ثم إن كعبا بكى بكاء شديدا فقال له عمر : وما يبكيك يا أبا اسحق ؟

قال أبكانى حديث سمعته عن داود النبى ﷺ أنه كان يقول فى دعائه :

إلهى إن ارتفعت فوق سبع سموات فأنت ثم ، وإن كنت فى أسفل أرضك فأنت ثم ، فهل يستطيع أهل الخطايا أن يستتروا بخطاياهم دونك وأنت معهم أينما كانوا ، ثم قال : إن فى التوراة مكتوبا : الثور يعرف مربطه ، والحمار يعرف إربه ، وبنو إسرائيل لا يعرفون ربهم يشبهونه بخلقه سبحانه وتعالى عما يصفون .

وعن الضحاك بن مزاحم قال قال رجل لابن مسعود رضى الله عنه :

كيف أعرف الله ؟ فقال : اعرفه أنه خالق الخلق ولا تتوهم أنه يشبهه شىء من خلقه ، ولا تدع قلبك يتوهمه بشىء من الأشياء لأنه ليس كمثله شىء .

وعن أبى هلال الراسى قال : شهدت الحسن فأتاه عبد الله بن رواحة المدنى فقال يا أبا سعيد أتنعت ربك ؟ فقال الحسن : بغير صفة ولا مثال ولا صورة ، تعالى من لا عدل له ، ولا ند له ، عما قال الذين كفروا ، وهم بربهم يعدلون ، فمن شبهه بخلقه فقد عدل به .

وعن الليث عن مجاهد قال : إن الله لا يراه أحد من خلقه ، قال الربيع ومصداق ما قالوا جميعا فى كتاب الله تعالى ، ولغة العرب إن الله تعالى أخبر عن نفسه :

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) .

فنفى عن نفسه أن تدركه الأبصار ، لأنه لو أدركته لكان قد ساواها لأن كل مدرك محاط به محدود موصوف ، عز الله وجل ، عما انتحله المبطلون ، قال الله عز وجل (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) فأخبر أنه لا تناله الأبصار .

وقال جابر رضى الله عنه : سئل ابن عباس عن الله هل يخلو منه مكان قال :

قال الله تعالى :

(مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ، وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ، وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا)(١) .

فأخبر عز وجل أنه لا يخلو منه مكان ، وأنه شاهد لكل مكان ، حاضر بكل مكان ، على الإحاطة والتدبير :

(لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ)(٢) .

(وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)(٣) .

(وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ)(٤) .

وقال لموسى وهارون عليهما السلام :

(إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)(٥) .

وقال تعالى

(يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ)(٦)

وقال سبحانه: (وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا)(٧) .

وقال عز وجل : (هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا)(٨) .

وقال جلا جلاله : (عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)(٩) .

وقال سبحانه (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُه)(١٠) .

وقال عز من قائل(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ)(١١) .

---

(١) المجادلة : ٧ (٢) سبأ : ٣ (٣) ق : ١٦

(٤) الأنعام : ٣ (٥) طه : ٤٦ (٦) النساء : ١٠٨

(٧) طه : ١١٠ (٨) مريم : ٦٥(٩) طه : ٥ (١٠) فاطر : ١٠ (١١) السجدة : ٥

ونحو ذلك من القرآن الكريم ، فأخبر عنه أنه تعالى لا يخلو منه مكان فى السموات العلى ، والأرضين السفلى ، ولا يجوز أن يأخذوا ببعض القرآن دون بعض ، لأنه يصدق بعضه بعضا ، وهو على العرش استوى ، وهو على كل شيء شهيد ، وهو بكل شيء محيط ، بلا تكييف ولا تحديد ، ولا تمثيل ، ولا تشبيه ولا توهيم .

ثم عرض الإمام الحسين فى كثير من كلامه إلى توحيد الله ، فبين حقيقته وجوهره ، وفند شبه الملحدين وأوصافهم فقال رضى الله عنه :

« أيها الناس اتقوا هؤلاء المارقة الذين يشبهون الله بأنفسهم ، يضاهون قول الذين كفروا من أهل الكتاب ، بل هو الله ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ،

استخلص الوحدانية والجبروت ، وأمضى المشيئة والإرادة والقدرة والعلم بما هو كائن ، لا منازع له فى شيء من أمره ، لا قول كقوله يعادله ، ولا ضد له ينازعه ، ولا سمى له يشابهه ، ولا مثل له يشاكله ، لا تتداوله الأمور ، ولا تجرى عليه الأحوال ، ولا تنزل عليه الأحداث ، ولا يقدر الواصفون كنه عظمته ، ولا يخطر على القلوب مبلغ جبروته ، لأنه ليس له فى الأشياء عديل .

لا تدركه العلماء بألبابها ، ولا أهل التفكير بتفكيرهم إلا بالتحقيق ، إيقانا بالغيب ، لأنه لا يوصف بشيء من صفات المخلوقين ، وهو الواحد الصمد ، ما تصور فى الأوهام فهو خلافه ، ليس برب من طرح تحت البلاغ ، ولا معبود من وجد فى هواء أو غير هواء ، هو فى الأشياء كائن لا كينونة محظور بها عليه ، ومن الأشياء بائن لا بينونة غائب عنها ، ليس بقادر من قارنه ضد ، أو ساواه ند ، ليس عن الدهر قدمه ، ولا بالناحية أمة ، احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار ، وعمن فى السماء احتجابه كمن فى الأرض ، قربه كرامته ، وبعده إهانته ، لا يحله فى ، ولا توقته إذ ، ولا تؤامره إن ، علوه من غير توقل ، ومجيئه من غير تنقل ، يوجد المفقود ويفقد الموجود ، ولا تجتمع لغيره الصفات فى وقت ، يصيب الفكر منه الإيمان به موجودا ووجود الإيمان لا وجود صفة ، به توصف الصفات لا بها يوصف ، وبه تعرف المعارف لا بها

يعرف ، فذلك الله لا سمى له ، سبحانه ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير »

وبعد : فيقول الله تعالى آمرا خاتم أنبياءه ورسله صلوات الله وسلامه عليه :

(قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)[1] .

والذى يغلب على الظن أن المراد ، أن هذا الذى أدعوكم إليه ، هو دين التوحيد ، وهو دين حق وصدق ، ليس يحتاج فى معرفة صحته إلى المتكلفات الكثيرة ، بل هو دين يشهد صريح العقل بصحته .

فانى أدعوكم أولا : إلى الإقرار بوجود الله سبحانه .

ثم أدعوكم ثانيا : إلى تنزيهه وتقديسه عن كل ما لا يليق به ، ويقوى ذلك قوله :

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) وأمثاله .

ثم أدعوكم ثالثا : إلى الإقرار بكونه موصوفا بكمال العلم والقدرة ، والحكمة والرحمة .

ثم أدعوكم رابعا : إلى الإقرار بكونه منزها عن الشركاء والأضداد .

ثم أدعوكم خامسا : إلى الامتناع عن عبادة هذه الأوثان التى هى جمادات خسيسة ، ولا منفعة فى عبادتها ، ولا مضرة فى الإعراض عنها .

ثم أدعوكم سادسا : إلى تعظيم الأرواح الطاهرة المقدسة ، وهم الملائكة والأنبياء .

ثم أدعوكم سابعا : إلى الإقرار بالبعث والقيامة :

(لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)[2] .

ثم أدعوكم ثامنا : إلى الإعراض عن الدنيا ، والإقبال على الآخرة .

---

(١) ص : ٨٦ ، ٨٧ (٢)النجم : ٣٨

فهذه الأصول الثمانية هى الأصول القوية المعتبرة فى دين الله سبحانه وتعالى ، ودين رسوله محمد ﷺ ، وبداهة العقول وأوائل الأفكار ، شاهدة بصحة الأصول الثمانية ، فثبت : أنى لست من المتكلفين فى الشريعة التى أدعو الخلق إليها .

بل كل عقل سليم ، وطبع مستقيم ، فإنه يشهد بصحتها وجلالتها ، وسمو مكانتها ، وبعدها عن الباطل ، والفساد وهو المراد من قوله : (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) .

والله نسأل أن يمنحنا الهداية والتوفيق ، وأن يجعلنا من خاصة أهل التوحيد ، حتى ينظمنا فى تعداد عباده المخلصين له الدين ، (ألا لله الدين الخالص) ، والحمد لله ، وكفى ، والصلاة والسلام على رسوله المصطفى ، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى .؟

من أهم المصادر

١ ــ تفسير جامع البيان للإمام الطبرى

٢ ــ التفسير الكبير للإمام الفخر الرازى

٣ ــ تفسير لباب التأويل للإمام الخازن

٤ ــ تفسير غرائب القرآن للإمام النيسابورى

٥ ــ تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير

٦ ــ تفسير روح البيان للإمام الألوسى

٧ ــ تفسير محاسن التأويل للعلامة جمال الدين القاسمى

٨ ــ أسباب النزول للواحدى النيسابورى

٩ ــ مسند الإمام أحمد للإمام أحمد بن حنبل

١٠ ــ فتح البارى للحافظ ابن حجر العسقلانى

١١ ــ شرح صحيح مسلم للإمام النووى

١٢ ــ السنن الأربعة للترمذى ، النسائى ، أبو داود ، ابن ماجه

١٣ ــ حجة الله البالغة للإمام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى

١٤ ــ مدارج السالكين للإمام ابن القيم الجوزيه

١٥ ــ فيصل التفرقة لحجة الإسلام الإمام الغزالى

١٦ ــ الاقتصاد فى الاعتقاد لحجة الإسلام الإمام الغزالى

١٧ ــ كشف المحجوب لأبى الحسن الهجويرى

١٨ ــ الشامل فى أصول الدين لإمام الحرمين الجوينى

١٩ ــ مجموع الفتاوى الكبرى للإمام ابن تيمية

٢٠ ــ منهاج السنة النبوية للإمام ابن تيمية

٢١ ــ تيسير العزيز الحميد للشيخ سليمان بن محمد بن عبد الوهاب

٢٢ ــ الإعلام بمناقب الإسلام للعلامة محمد بن يوسف العامرى

٢٣ ــ مجموعة التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب

٢٤ ــ الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح للإمام ابن تيمية

٢٥ ـ الصواعق المرسلة على الجمهية والمعطلة — للإمام ابن القيم الجوزية
٢٦ ـ ذم الهوى — للإمام ابن الجوزى
٢٧ ـ الملل والنحل — للشهرستانى
٢٨ ـ النشر الطيب — للعلامه إدريس بن أحمد الفاسى
٢٩ ـ الفصل فى الملل والأهواء والنحل للإمام ابن حزم الاندلسى

رقم الايداع ٣٠١٥ ـ ٨٣

تصويب الخطأ

الصحيفه	السطر	الخطأ	الصواب
١٣	١٨	أن يترك الانسان عليه	أن يترك الانسان عبادته
١٦	١٩	وهم يعدلون	وهم يعلمون

محتويات الكتاب

الموضوع — الصحيفه

تقديم : الشيخ محمد على الصابونى ٥

تقديم : المؤلف ٧

الباب الأول

(٤٧ ـ ١١٩)

الفصل الأول : « شهد الله أنه لا اله الا هو » ٤٩

الفصل الثانى : «قائما بالقسط» ٧٥

الفصل الثالث : « لا اله الا هو العزيز الحكيم » ٩٧

الباب الثانى

(١٢٠ ـ ٢٢٥)

الفصل الأول : « والهكم اله واحد » ١٢٣

الفصل الثانى : « ان فى خلق السموات والأرض » ١٥٣

الفصل الثالث : « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » ١٩٧

الباب الثالث

(٢٢٧ ـ ٢٩٤)

الفصل الأول : « أصل الدين واحد والشرائع مختلفة » ٢٢٩

الفصل الثانى : « وجه الحاجة الى الدين الخاتم » ٢٤٧

الفصل الثالث : « خاتمة وتتمة » ٢٦٩

من أهم المصادر ٢٩٥



دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

